علي أحمد باكثير

وا إسلاماه



« قل ان كان آباؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره والله لا يهدى القوم الفاسقين » « قرآن كريم »

هذه قصة تجلو صفحة رائعة من صفحات التاريخ المصرى فى عهد من أخصب عهوده وأحفلها بالحوادث الكبرى والعبر الجلى يطل منها القارىء على المجتمع الاسلامى فى أهم بلاده من نهر السند الى نهر النيل وهو يستيقظ من سباته الطويل على صليل سيوف المغيرين عليه من تتار الشرق وصليبيى الغرب • فيهب للكفاح والدفاع عن أنفس ما عنده من تراث الدين والدنيا •

ويشاء الله أن تحمل مصر لواء الزعامة فى هذا الجهاد الكبير فتحمى تراث الاسلام المجيد بيومين من أيامها عظيمين كلاهما له ما بعده : يوم الصليبيين فى فارسكور ويوم التتار فى عين جالوت •

وبطلها الملك المظفر قطز يضرب بنزاهته وعدله ، وشجاعته وحزمه ، وصبره وعزمه ، ووفائه وتضحيته ، وحنكته السياسية وكفايته الادارية ، واخلاصه فى خدمة الدين والوطن مثلا عاليا للحاكم المصلح والرجل الكامل •

وهى بعد شهادة ناطقة بأن فى هذا الشعب الوديع الذى يسكن على ضفاف النيل قوة كامنة اذا وجدت من يحسن استثارتها والانتفاع بها أتت بالعجائب ، وقامت بالمعجزات •

المؤلف

الفصل الأول



قال السلطان جلال الدين ذات ليلة للأمير ممدود ابن عمه وزوج أخته ، وكان يلاعبه الشطرنج فى قصره بغزنة : « غفر الله لأبى وسامحه ! ما كان أغناه عن التحرش بهذه القبائل التترية المتوحشة • اذن لبقيت تائهة فى جبال الصين وقفارها ، ولظل بيننا وبينهم سد منيع » •

فنظر اليه ممدود وقد أدرك أن جلال الدين يريد أن يطوى بساط الشطرنج ، فقال له : « أجل يا مولاى ، ان عمى خوارزم شاه أخطأه التوفيق فيما ذكرت من اثارة هذه القبائل التترية • ولكن لا ينبغى ان نلومه الا بمقدار ، فقد كان رحمه الله – أعظم ملوك عصره وأوسعهم ملكا واشدهم قوة ، وكان لا بد له من التوسع المطرد لئلا يعطل جنوده وجحافله العظيمة عن العمل • فآثر أن يكون ذلك فى بلاد لم يدخلها الاسلام بعد ، حتى يجمع بذلك بين خدمة دنياه بتوسيع رقعة ملكه ، وخدمة دينه بنشر الاسلام فى أقصى البلاد » •

فقال له جلال الدين وقد بدا على وجهه التأثر والحزن العميق:
« ولكن ماذا جنى عمك من هذا يا ممدود غير فقدان الجزء الاعظم من مملكته ، واغراق بلاد الاسلام بهذا الطوفان العظيم من التتار المشركين ؟ »

هؤلاء الهمج الذين لا يدخلون مدينة حتى يدمروها ويأتوا

فيها على الاخضر واليابس ، ولا يتمكنون من أمة حتى يقتلوا رجالها ، ويذبحوا أطفالها ، ويبقروا بطون حواملها ،ويهتكوا أعراض نسائها ••

وهنا طغى البكاء على جلال الدين ، وعاقه برهة عن الاستمرار فى كلامه ، ففهم ممدود ما جال بخاطره ، ولم يلبث أن شاركه فى البكاء فاستخرطا فيه • وما كان بكاؤهما لأمر هين ، فقد تذكرا ما وقع لنسوة من أهلهما فيهن أم خوارزم شاه واخواته ، فقد بعثهن خوارزم شاه من الرى ، حين تفرق عنه عسكره وأيقن بالهزيمة ، ليلحقن بجلال الدين فى غزنة، وبعث معهن امواله وذخائره ، فاتصل ذلك بعلم التتار فتعقبوهن ، وقبضوا عليهن فى الطريق ، فأرسلوهن مع الذخائر والاموال الى جنكيز خان بسمرقند •

ومسح جلال الدين دموعه وطفق يقول : « أواه يا ممدود ليس فى الدنيا مصيبة أعظم من مصيبتنا • أبعد العز الرفيع، والحجاب المنيع ، تساق والدة خوارزم شاه وأخواته الى طاغية التتار ؟ كل فاجعة فى الحياة تهون الا هذه • أى لذة تبقى فى العيش بعد تركان خاتون ؟ ليت شعرى ما حالهن هناك ؟ كيف يعشن بين أولئك الوحوش ! يا ليت أبى قتلهن بيده ، أو وأدهن فى التراب ، أو القاهن فى اليم ، خيرا من أن يقعن سبايا فى أيدى القوم ، ويلقين الذل والهوان عندهم • وما أشك أنه مات فى الجزيرة غما حين بلغه أمرهن •

– الله لهن يا مولاى ! لعل الله أن يستنقذهن من أيديهم بسيفك وسيوفنا معك •

– هيهات يا ممدود ! أبعد أن دانت لهم خراسان كلها ، ودخلوا الرى ، وملكوا همدان ، وعصفوا بزنجان وقزوين ، واتخذ طاغيتهم سمرقند قاعدة له يبعث منها جيوشه وسراياه فى البلاد ، تطمع فى أن نغلبهم بسيوفنا ونجليهم عن بلادنا ؟ لقد كان لوالدى عشرون ألفا من الفرسان فى بخارى ، وخمسون ألفا فى سمرقند ، وأضعافها معه ، فما أغنت تلك الجحافل الجرارة عنه شيئا ، وهو ما هو وفى

شجاعته وباسه ، ونفوذه وصرامته ، فما ظنك بى وأنا دونه فى كل شىء ، وقد قوى التتار وعظم سلطانهم فى البلاد .

— انك ابن خوارزم شاه ، ووارث ملكه وخليفته على بلاده وما يكون لك أن تيأس من هزيمة عدوه ، وطرده من بلاد رعاياه . ولقد كانت الحرب بين ابيك وبين هؤلاء سجالا ، فتارة يهزمهم وتارة يهزمونه ، حتى نفذ القضاء فيه لأمر طواه الله فى علمه ، فمات شهيدا فى جزيرة نائية ، ولكن لم يمت سره فهو حى فيك . ومن يدرى لعل الله ينصر بك الاسلام والمسلمين ، ويجعل نهاية الاعداء على يديك .

— ان خليفة المسلمين ، وملوكهم وأمراءهم فى بغداد ومصر والشام ، يعلمون بما أصاب بلادنا من نكبة التتار ، وقد استنجد بهم أبى مرارا فلم ينجدوه ولم يصغوا لندائه ، فدعهم يذوقوا من وبالهم ما ذقنا . وحسبى أن أدفع شرهم عن البلاد التى ملكنى عليها أبى فلا أدعهم يخلصون اليها .

— ان ملوك المسلمين وأمراءهم فى مصر والشام مشغولون برد غارات الصليبيين الذين لا يقلون عن التتار خطرا على بلاد الاسلام . فلهم وحشية التتار وهمجيتهم ، ويزيدون عليهم بتعصبهم الدينى الذميم ، وهم لا يغزون أطراف بلاد الاسلام ، ولكنهم يغزونها فى صميمها .

— لقد كان هذا الذى تذكره فى عهد صلاح الدين الايوبى ، وأستاذه نور الدين ، أما من بعدهما من ملوك مصر والشام فانهم مشغولون بقتال بعضهم بعضا وكيد بعضهم لبعض ، ولا يجدون حرجا من أن يستنجد احدهم الصليبيين على منافسه من ملوك المسلمين . والله لولا أن التتار على الابواب لدلفت الى أولئك الملوك الخائنين ، فضربت أعناقهم واستصفيت بلادهم ، وانتقمت منهم لأبى ، اذ استنجدهم فلم ينجدوه .

— ما عليك من هؤلاء فحسابهم على الله ، وعسى الله أن يجعل من أبيك الشهيد ومنك فى شرق بلاد الاسلام ، مثل نور الدين وصلاح الدين فى غربها . فهيا بنا نجمع جموعنا فنناجز هؤلاء التتار قبل أن يصلوا الينا .

— قد قلت لك انى سأحصن حدود بلادى وامنعها منهم وساضطرهم بذلك الى تركها والتوجه الى الغرب حيث ملوك الاسلام المتقاعدون .

— انك لن تستطيع حماية بلادك منهم اذا غزوك فى عقرها مالم تمش اليهم فتلقهم دونها بمئات الفراسخ ، فان أظهرك الله عليهم فذاك ، وان تكن الاخرى كان لك من بلادك ظهر تستند اليه وتستعد فيه . وبعد . فان جنكيز خان لن يتوجه الى الغرب حتى يفرغ من الشرق ، ولن يمس العراق والشام حتى يقضى على ممالك خوارزم شاه أجمعها .

فاطرق جلال الدين هنيهة ، وطفق يحرك جبينه بيده كأنه يدير فى رأسه موازنة بين رأيه ورأى ابن عمه ، ثم رفع رأسه وقال : « لا حرمنى الله صائب رأيك يا ممدود ، فما زلت تحاجنى حتى حججتنى ، وهأنذا مقتنع بسداد رأيك ، وماض لما تشير به على ، وحسبى أنك ستكون يدى اليمنى فيما انهض به من الامر .

— سأكون يا بن عمى ويا مولاى أطوع لك من خاتم فى يدك وسأقاتل حتى أقتل دونك .

— انك لم تدع لى فى قتال هؤلاء عذرا يا ممدود . رحم الله أبى ! لقد ورثنى ملكا لا يغبط صاحبه عليه !

وكان الليل قد انتصف اذ ذاك ، وشعر ممدود ان قد آن أن ينصرف الى قصره ليأخذ جلال الدين قسطه من الراحة ، فجمع قطع الشطرنج فى صندوقها الذهبى المرصع بالجواهر ، ووضعه فى صندوق آخر من الابنوس المطعم بالعاج . وقام من مجلسه فقبل رأس جلال الدين واستأذنه فى الانصراف ، فقام له جلال الدين ليشيعه الى باب البهو كعادته ، ولكن حلا لجلال الدين اذ ذاك أن يمشى مع رفيقه الى نهاية الحديقة التى تفصل بين قصره وبين القصر الذى ينزل فيه ممدود وأهله .

فأراد ممدود ان يصرفه عن ذلك قائلا : « حسبك يابن عمى انك بحاجة الى النوم لتنشط غدا لما أنت بسبيله » .

فقال له جلال الدين : « دعنى يا ممدود اتجول معك قليلا



في الحديقة ، أستنشق هواءها العذب واتمتع بجمالها في هذه الليلة القمراء ، فمن يدري لعل بدر التم لا يطلع عليها بعد ليلتنا هذه وأنا في هذا القصر »

فاخذ ممدود بيد جلال الدين ونزل معه السلم المرمري وهو يقول له : « بل أبقى الله قصورك عامرة بك يا مولاي » حتى انتهيا الى الدهليز حيث وجدا الحرس قائمين بالخدمة . فاشار لهم جلال الدين أن يبقوا مكانهم ، وانحدر مع ممدود الى الحديقة ، فاخذا يمشيان بين الكروم والاشجار في ممرات تفصل بينها مفروشة بالرمل الناعم الاصفر .

وتذكر جلال الدين أخته جهان خاتون فسأل زوجها عن حالها، فانه لم يرها منذ أيام ، فأجابه ممدود : « هي في رعاية الله ورعايتك بخير ، وما منعها من المجيء اليك الا ثقل الحمل » .

ـ أجل .. لطف الله بها وبزوجتي عائشة خاتون ، فانهما في شهرها التاسع فبلغها تحيتي ، وعسى أن أتمكن من زيارتكم غدا ان شاء الله » .

ـ سنكون سعداء باستقبالك يا مولاي » .

ـ ها نحن أولاء قد وصلنا الى قصرك .

ـ ما يكون لي أن أدعك ترجع وحدك ، ولكني أرافقك الى قصرك كما رافقتني الى قصري .

فشكره جلال الدين وأعفاه من ذلك ، ولكن ممدودا أبى الا أن يرافقه في عودته الى قصره ، فرجعا في طريقهما معا حتى اذا بلغا دهليز القصر حيث الحرس واقفون ، قال جلال الدين وهو يبتسم : « هل لي أن أرافقك أيضا يا ممدود ؟ » فضحك ممدود وقال له : « اذن ينقضي ليلنا جيئة وذهابا في الحديقة » وودعه وانصرف الى قصره .

الفصل الثاني



طلق جلال الدين ما كان فيه من الدعة والراحة منذ تلك الليلة التي عاهد فيها نفسه على المسير لقتال التتار، وقضى قرابة شهر وهو يجتهد في تجهيز الجيش واعداد العدد وتقوية القلاع في مدن بلاده ، وبناء الحصون على طول خط السير . يعاونه في ذلك صهره ممدود ، حتى اذا تم له من ذلك ما أراد عين يوم المسير .

وكان جلال الدين كأغلب ملوك عصره مولعا باستطلاع النجوم فهو يستشير المنجمين كلما هم بأمر عظيم . فلما أراد المسير لقتال التتار بعث الى منجمه الخاص فحضر عنده ، فأمره بالنظر في طالعه ، فقال له المنجم : « انك يامولاي ستهزم التتار ويهزمونك ، وسيولد في أهل بيتك غلام يكون ملكا عظيما على بلاد عظيمة ، ويهزم التتار هزيمة ساحقة » .

قال جلال الدين : « ماذا تقول .. يهزمني التتار وأهزمهم ؟ »

فسكت المنجم لحظة كالمتهيب لما يقول ثم قال له : « يامولاي بل تهزمهم ويهزمونك »

وكان الامير ممدود حاضرا ، فأدرك ما ساور جلال الدين من الخوف لما قاله المنجم ، وأشفق على جلال الدين من ان يرجع عن عزمه ، فالتفت الى المنجم قائلا « يا هذا لا يعلم الغيب الا الله ، وانما جئنا بك لتبشر السلطان لا لتخوفه ، وليس السلطان بمن يخاف من تنبؤاتك » .

سكت المنجم هنيهة كمن يقول : ليس هذا بذنبي ولكنه ذنب الكتاب الذين بين يدى . ثم قال « اننى عبد السلطان ، ان شاء صدقته ، وان شاء بشرته » .

فقال جلال الدين : « بل اصدقني .. لا اريد الا الصدق . فقل لى متى يولد هذا الغلام الذى ذكرت ؟ »

فنظر المنجم فى كتابه وأخذ يحسب . ثم قال « انه يولد فى خلال هذا الاسبوع » .

فنظر جلال الدين الى ممدود كأنه يعجبه مما يقول المنجم ، ولكن ممدودا لا يشاطر جلال الدين العجب ، ويرى أن المنجم لا بد أن يكون قد ألم بحمل زوجة السلطان وقرب وضعها ، ولا يعز عليه بعد ذلك أن يتنبأ بأنها ستلد ذكرا ، فاذا ولدت أنثى فلا باس عليه من ذلك لانه لم يقل يولد للسلطان ، وانما قال يولد فى أهل بيته . وأقارب جلال الدين فى غزنه وغيرها لا يحصون كثرة ، وربما علم أيضا أن أخت جلال الدين حبلى متم فيكون احتمال مجىء الغلام من احدى المرأتين أقوى .

هكذا يرى ممدود فى هذا المنجم ، وغيره من المنجمين والضاربين للرمل والقارئين فى الكف ، أنهم ليسوا الا دجالين يدعون معرفة الغيب بما أوتوا من براعة وفطنة فى تبين أحوال من يستفتيهم ، وتقصى أسراره ودخائله . وعلى قدر هذه الفطنة والبراعة يوفقون الى اصابة الحقيقة فى تنبؤاتهم وتخرصاتهم .

وخطر لممدود فى خلال ذلك خاطر لم يكد يتبينه ويجيل ذهنه فيه حتى ريع لما ينطوى عليه من الخطر ، فربما تلد زوجته ذكرا وتلد زوجة جلال الدين انثى ، فيوغر ذلك صدر جلال الدين عليه . وربما يذهب به الى أبعد من ذلك فيحمله على قتل الغلام ولو فى السر ، اذا خشى من انتقال ملكه اليه وانقطاعه عن ولده ، فهو يعرف حرص الملوك وتهالكهم على أن لا ينقطع الملك عن نسلهم ، وأنهم لايتحرجون فى ذلك من الفتك بأقرب الناس اليهم وأمسهم بهم رحما . ولكنه طرد هذا الخاطر الغريب عن نفسه ، واستعاذ بالله من نزغات الشيطان ، وجعل همه بعد ذلك أن يطعن على التنجيم والمنجمين عند جلال الدين ، ويصرفه

عن الاعتقاد بهم والثقة بأقوالهم ، وجعل يورد وقائع من التاريخ كذبت فيها تخرصات المنجمين ، ومن أبرزها ما اتفق للخليفة العباسى المعتصم بالله لما أراد أن يسير لفتح عمورية من بلاد الروم ، فنهاه المنجم عن السير فى ذلك اليوم لان الطالع لم يكن فى صالحه وأنذره بالهزيمة ، فلم يؤثر ذلك فى عزم الخليفة ، وضرب بكلام المنجم عرض الحائط ، وتوجه ليومه ذاك فكسر جموع الروم وفتح عمورية .

ولكن هذا لم يصرف جلال الدين عن الاهتمام بما قاله المنجم والتفكير فيه . فكثيرا ما يفرح له ويرى فيه بشارة بانتصاره على التتار ، ولكنه لا يلبث أن يحزن حين يذكر أن التتار يهزمونه فى النهاية . ثم يذكر أمر الغلام فيهون على نفسه الخطب ، ويجد فى ذلك بعض العزاء ، اذ يستخرج من ذلك أن الملك سيدوم فى بيته ، وأن هزيمة التتار الكبرى ستتم على يد أحد أبنائه .

ولم يكن الامير ممدود بأقل من جلال الدين اهتماما بما تنبأ به المنجم ، على سوء رأيه فيه وعدم تصديقه به ، فانه لم يستطع أن يجتث من قلبه الوساوس التى علقت به ، فبقى ذلك الخاطر الغريب يحيك فى صدره نهارا ويؤرقه ليلا ، حتى حرج به وضاق بكتمانه ذرعا ، فأفضى به الى زوجته جهان خاتون ، وحدثها بحديث المنجم ، وشرح لها خوفه من أن تلد هى غلاما وتلد عائشة خاتون جارية .

فشركته جهان خاتون فى الخوف ، لما تعلم من طباع اخيها ، ولكنها كتمته فى نفسها مظهرة لزوجها انها لا تخشى شيئا من ذلك ، لان أخاها جلال الدين يحبها ويعزها ، ويستحيل أن تمتد يده الى ابنها بسوء .

وأخذت تدعو الله من يومئذ أن يرزقها ابنة ويرزق أخاها جلال الدين ابنا . ولكن الله لم يستجب لها ، فلم يمض يومان حتى جاءها الطلق فولدت غلاما ، وبعد ذلك بأيام جاءت زوجة جلال الدين بجارية .

لقد تحقق ما كان يخشاه الامير ممدود ، فقد تغير جلال الدين لما بشر بالانثى ، وظل وجهه مسودا وهو كظيم . وأيقن أن الملك

سينتقل الى ابن أخته على وجه من الوجوه فساءه ذلك . وذهب الى قصر أخته ليطمئن على صحتها ، فلما وقع نظره على وليدها وهى ترضعه لم يملك أن يستر عنها التغير البادى فى وجهه ، وقرأت فى عينه الغدر .

وأرادت جهان خاتون أن تلاطفه بقول يخفف بعض ما يجد فى صدره ، فلم تجد ما أرادت من ذلك ، فسكتت واكتفت بنظرة وجهتها الى أخيها أودعت فيها كل معانى الحنو والاستعطاف . وكان زوجها حاضرا فتولى عنها الكلام فقال « انه ابنك يامولاى وأشبه الناس بك . لقد نزع اليكم يا آل خوارزم شاه فى كل شىء ، ولم ينزع الى فى شىء »

فأجابه جلال الدين وهو يتكلف الابتسام ويمسح بيده على خد الطفل : « هذا الذى سيهزم التتار » فبدره ممدود قائلا : « فى ركاب خاله وخدمته ان شاء الله » .

قال جلال الدين : « بل يرث الملك عنى » .

– معاذ الله أن يرث ملكك الا ابنك الامير بدر الدين بعد عمر مديد ان شاء الله .

– لم يقل المنجم أن بدر الدين هو الذى يملك بعدى ويهزم التتار .

– ان المنجم أحقر من أن يعرف الغيب يامولاى . فدع عنك تخرصاته ولا تعبأ بأقاويله .

وهكذا استطاع الامير ممدود أن يدير الكلام عن الغلام ويصرفه الى المنجم حيث يختلف رأيه فيه ورأى جلال الدين .

فرأى جلال الدين أن لا فائدة من حجاجه ، وشعر بشىء من الخجل لما بدا منه من الارتياب بطفل صغير لا ذنب له حتى عاتبته عينا أخته النفساء ذلك العتاب الحانى المستعطف الذى كان أفعل فى نفسه من وقع السهام .

وسكت جلال الدين برهة كأنه يعاتب نفسه على ما بدر منه فى حق أخته وزوجها المخلصين فى حبه . ثم دنا من سريرها وهو يغالب عبرة ترقرقت فى عينيه ، فطبع على جبينها الابيض الناصع قبلة حارة كأنه يستغفرها مما همس بخاطره من نية

الشر بوليدها ، ويعدها بأن يده لن تمتد اليه بسوء ، فلم تجبه جهان خاتون بغير الدموع تنهمر من عينيها .

وجاءت الانباء بأن التتار دخلوا مرو ، وساروا الى نيسابور فوضعوا فى أهلها السيف وملكوها ، وأنهم سائرون الى هراة ، فلم يبق لدى جلال الدين مجال للانتظار فآذن عساكره بالمسير ، وخرج فى ستين ألفا يحث بهم السير حتى لقى طلائع التتار دون هراة . فقاتلهم قتالا عظيما حتى هزمهم وقتل منهم خلقا كثيرا .

وطاردهم جلال الدين فأجلاهم عن هراة ، ثم ما زال يتعقبهم حتى اوصلهم الى حدود الطالقان ، حيث اتخذها جنكيز خان قاعدة جديدة له بعد سمرقند ، يرسل منها بعوثه وسراياه . ثم رأى جلال الدين ان يكتفى فى هذه الغزوة بما احرزه من الانتصارات عليهم ، وأن لا يهاجمهم فى قاعدتهم الجديدة حتى يستجم ويريح جيوشه من نصب القتال ، ويعد جيوشا اخرى ويستعد استعدادا جديدا لملاقاة أعدائه ، فعاد ببهرة جيشه الى غزنه بعد ان ترك حاميات قوية فى البلاد التى طرد منها التتار .

وكان يوم قفوله الى غزنة يوما مشهودا ، احتفل به أهلها احتفالا رائعا ، لم يغض من جماله الا رجوع الامير ممدود جريحا محمولا على محفة ، بعد ما أبلى بلاء حسنا فى قتال التتار ، وأبدى أروع آيات البطولة ، وركب أعظم الاخطار .

حزن جلال الدين لما أصاب صهره الفارس الشجاع ،واهتم بعلاجه اهتماما كبيرا ، وابتغى له أحسن أطباء زمانه ، وأغدق عليهم الاموال ، ووعدهم بمكافآت كبيرة اذا وفقوا لشفائه . ولكن جراحه كانت بالغة ، فلم تجد فيها مهارة الاطباء ، وأخذت حالته تسوء يوما بعد يوم . وكان جلال الدين لا يغب زيارته فهو يتردد عليه صباح مساء .

ولما ثقلت عليه العلة وأيقن بدنو الموت ، بعث الى جلال الدين أن يحضر ، فلما حضر قال له بصوت متقطع وهو يحضن زوجته وابنها الرضيع « يا ابن عمى : هذه أختك جهان خاتون ، وهذا ابنك محمود ، فأشفق على أيمها ، وارحم يتمه واذكرنى بخير »

فبكى جلال الدين ، وأجهشت أخته بالبكاء • وكان ممدود ينظر اليهما والى الطفل الرضيع نظرات تائهـــة • فلما رأى بكاءهما التفت الى جلال الدين وقال له : « لا تبــك يا جلال الدين •• قاتل التتار •• لا تصدق أقوال المنجمين » ، وكان قد ثقل حينئذ لسانه ولم يلبث أن لفظ روحــــه وهو يردد الشهادتين •

مات الامير ممدود شهيدا فى سبيل الله ولم يتجاوز الثلاثين من عمره ، تاركا وراءه زوجته الباره ، وصبيـــا فى المهد لم يتمتع برؤيته الا أياما قلائل ، اذ شغله عنه خروجه مع جلال الدين لجهاد التتار ، ولم يكن له ـ وهو يودع هذه الحيـــاة ونعيمها ـ من عزاء عنها الا رجاؤه فيما أعـــد الله للشهـداء المجاهدين فى سبيله من النعيم المقيم والرضوان الاكبر •

وفت موته فى عضد جلال الدين ، اذ فقد ركنا من أركان دولته ، وأخا كان يعتز به ويثق باخلاصه ونصحه ، ووزيرا كان يعتمد على كفايته ، وبطلا مغوارا كان يستند الى شجاعته فى حروب أعدائه • فبكاه أحر البكاء ، وحفظ له جميل صنعــه وحسن بلائه معه ، فرعاه فى أهله وولده ، وضمهما الى كنفه ، وبسط لهما جناح رأفته ، واعتبر محمودا كابنه يحبه ويدلله ولا يصبر عن رؤيته ، وكثيرا ما يجتذبه من يدى والدته فيحمله الى صدره ، فربما بال الصبى على ثيابه فلا يزيده ذلك الا حبا وتعلقا به • وكان حين يرجع من قتال التتار يسأل أول ما يسأل عن محمود أين هو ، فيجرى اليــه فيحضنه ويوسعه ضمــا وتقبيلا ، ثم يثنى بابنته جهاد التى كان يحبها ولا يصبر عن رؤيتها كذلك •

وهكذا نشأ الطفل محمود والطفلة جهاد فى بيت واحـد ، تغذوهما وتسهر عليهما أمان ، ويحنو عليهما أب واحد • فكانا يحبوان معا فى دهاليز القصر وأبهـــائه ، وربما خرج بهمـا الخدم الى حديقة القصر فى الصباح الباكر فطفقا يدرجان على العشب يتمرنان على المشى ، ووالدتاهما تنظران اليهمـــا من شرفة القصر ، تطالعان فى عيونهما الحاضر الباسم ، وتتعزيان

به عن الماضى الحزين والمستقبل الغامض • فاذا وقع احد الطفلين على الارض فى غير بأس ضحكتا ضحكة هادئة ، ثم رجعتا الى ما انقطع من حديثهما • وربما تقع جهاد على الارض فيدنو منها محمود ليساعدها على النهوض ، فتنظر احدى الوالدتين الى الاخرى وعلى ثغرها ابتسامة وفى عينيها سؤال حائر •• أيقدر لهذين الطفلين البريئين أن يشبا معا فى هذاالعيش الرغيد فيكون أحدهما للآخر ، أم تحول دون ذلك تقلبات الدهــر وفجاءات القدر ؟

وكيف تأمنان غدر الزمان وسطوات الغير ، وتطمئنان الى ما هما فيه من نعيم العيش وعز الملك ، وقد شهدتا بعينيهما كيف انقض التتار على مملكة خوارزم شاه فقطعوا أوصالهـــا ومزقوها شر ممزق ؟

ولا ينقص من قلقهما على المستقبـــل أن جـــلال الدين قد استطاع لذاك الحين أن يهزم التتار فى كل معركة لقيهم فيها ، وان يدفع غائلتهم عن البلاد التابعة له ، وأن يتحدى جنكيز خان طاغيتهم الاكبر فيرسل اليه كتابا يقول له فيه : « فى أى مكان تريد أن تكون الحرب ؟ » ، فان هذا لا يعنى أنه قضى على خطرهم واستراح من هجماتهم • وقد كان خوارزم شاه أقوى وأعظم هيبة وأكثر جنودا منه ، واستطاع أن ينتصر عليهم فى معــارك جمة ، ولكنهم غلبوه فى النهاية بكثرة عددهم وتوالى امداداتهم، وتدفقهم كالسيل ، وانتشارهم كالجراد ، وان الامل لضعيف فى أن يقوى جلال الدين على ما لم يقو عليه والده العظيم •

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى حققت الايام مخاوفهما ، فقد وردت الانباء بأن جنكيز خان قد استشاط غضبا من تحدى جلال الدين له ، فسير عسكرا أعظم من عساكره التى بعثها من قبل ، وسماه جيش الانتقام ، وجعل أحد أبنائه عليه فاندفعوا كالسهام وطفقوا يخترقون البلاد حتى وصلوا الى أبواب كابل • فقصدهم جلال الدين بكل ما عنده من الجيش ، فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا دام ثلاثة أيام بلياليها • وكان جلال الدين يصرخ فى جنوده أثناء المعركة « أيها المسلمون أبيدوا

جيش الانتقام » ، وقد انتهى القتال بهزيمة التتار لما أبداه المسلمون من المصابرة والمرابطة ، ويرجع معظم الفضل فى ذلك الى قائد باسل من قواد جلال الدين يدعى سيف الدين بغراق ، استطاع أن يكيد التتار ، فانفرد بفرقته عن الجيش وطلع من خلف الجبل المطل على ساحة القتال ، ولم يشعر التتار الا بهذا السيل من المسلمين ينحدر عليهم من الجبل فاختلت صفوفهم ، فأوقع بهم المسلمون ·

وبلغ جنكيز خان ما وقع بجيشه من الهزيمة ، فاشتد غيظه ، وزاد حنقه فجمع جيوشه وقادها بنفسه ، وتقدم لقتال جلال الدين ، فلم يثبت له جلال الدين ، وفر الى غزنه فتحصن بها أياما ، ثم رأى أن لا قبل له بدفع المغيرين عنها ، وخشى من رقوعه ووقوع أهله فى قبضة عدوه ، فحزم أمتعته ، وجمع امواله وذخائره ، فحملها ورحل بأهله وحاشيته صوب الهند · وسار معه سبعة آلاف من خاصة رجاله ، فعبر بهم ممر خيبر ، ولم يكد يفضى الى سهل الهند حتى لحقته طلائع جنكيز خان ، فكر عليهم وقاتلهم وشردهم ، ولكنه أيقن بالهزيمة حين توالت عليه الجموع ، فتقهقر برجاله الى نهر السند ، وعزم ان يخوضه الى العدوة الاخرى · ولكن العدو عاجله قبل أن يجد السفن اللازمة لحمل أهله وحريمه وأثقاله ، فاقبل على أهله ونسائه وفيهم والدته ــ وكانت قد لحقت به من خوارزم قبل سقوطها فى أيدى التتار ــ وأخته جهان خاتون وزوجته عائشة خاتون ، فلما رأينه صحن به قائلات : « لا ينبغى ان نقع فى أيدى التتار · · بالله عليك اقتلنا بيدك وخلصنا من الاسر والعار » ·

صادف هذا القول هوى فى نفس جلال الدين · اذ كان قد عزم على قتلهن خيفة أن يقعن أسيرات فى أيدى العدو ، فأمر رجاله باغراقهن فى نهر السند ، وذلك حين مالت الشمس للغروب ، وتلونت مياه النهر بحمرة الشفق ، فابتلعهن اليم وهو على حافة النهر ينظر اليهن بعين دامعة ، ويشيعهن بقلب مكلوم ·

ولم يدع له العدو فرصة للتحسر على أعز أحبابه فى الحياة والتفكير فى هول ما صنع بهم ، فأمر رجاله بخوض النهر ، والقى بنفسه فى مقدمتهم فاندفعوا يسبحون فى أثره ، وما ابتعدوا عن الشاطىء الا قليلا حتى أقبلت طلائع العدو فوقفوا على حافة النهر وانبرى رماتهم فأعملوا قسيهم ، فكانت السهام تتساقط عليهم كالمطر ، فأصيب كثير من رجال جلال الدين ، ولولا الظلام وحيلولته دون رؤيتهم لفنوا على بكرة ابيهم · وأوفى جنكيز خان ممتطيا جواده ، والمشاعل تضىء من حوله ، فلم يتبين أحدا فى النهر ، فأرسل ضحكة رنت فى جنبات السهل، وأخذ يهز سيفه فى الهواء ويقول : « هأنذا قضيت على خوارزم شاه وولده ،و شفيت غليلى وأخذت بثارى » وأمر رجاله بالرحيل ، فرجعوا من حيث أتوا ·

وقضى السابحون شطرا من الليل وهم يغالبون الامواج ، ويتنادون بينهم بالاسماء ، فيتعارفون بذلك ، ويتواصون بينهم بالصبر ، فربما كل أحدهم من طول السباحة فاستغاث باخوانه فيحمله من يلونه ريثما يستعيد شيئا من نشاطه · وكان صوت جلال الدين يسمع من حين الى حين يحدوهم فى المقدمة ، ويحضهم على الصبر والمغالبة ، فكانوا يستأنسون به · ولكنه انقطع بعد ذلك فلم يسمعوه ، فذهبت بهم الظنون كل مذهب ، وصاح بعضهم : « قد غرق السلطان فما بقاؤكم بعده ؟ فاستسلم فريق منهم للامواج فغرقوا ·

وأدرك أحد خواص رجال السلطان الخطر ، فأخذ يقلد صوت جلال الدين ويحدوهم كما كان جلال الدين يفعل لئلا يستيئس الباقون ، فكان لعمله هذا أثر جميل فى نفوسهم ، اذ انتعشت ارواحهم واستأنفوا صبرهم وجهادهم ، ورجع من عزم منهم على الاستسلام للموت عن عزمه ، وبقوا كذلك حتى بلغ فرطهم الضفة فصاحوا باخوانهم ان قد وصلنا البر فمنهم من خرج من الماء فارتمى على الارض من الاعياء ، ومنهم من بقى لديه فضل من القوة فاخذ يساعد الاخرين على الطلوع بجذب ايديهم او بارخاء ما بقى عليهم من الثياب لهم حتى يتعلقوا به ·واستمر



هذا العمل الى الثلث الاخير من الليل حين لم يبق على الماء احد من الناجين ، فوضع الجميع رءوسهم على الارض وغرقوا فى السبات العميق ٠

وطلع الصباح على أربعة آلاف من القوم صرعى فى الصعيد يتقلبون على جنوبهم لم يوقظهم الا حر الشمس ، فنهضوا من نومهم حفاة عراة لا يكاد يسترهم شيء من الثياب ، والتمسوا سلطانهم بينهم ، فلم يجدوه ، فاصابهم هم عظيم ، فأوصاهم الرجل الذى قلد صوت السلطان فى النهر بان لا ييأسوا من لقائه ، فربما سبقهم السلطان الى الضفة من موضع اخر فلجأ الى قرية من القرى ، وقال لهم ان الرأى ان يبقوا هناك ويتبلغوا بما يجدونه من اوراق الشجر وثماره ، وما يقع فى ايديهم من صيد البر والنهر وان لا يبرحوا مكانهم ذاك حتى يأتيهم خبر السلطان ٠

فوافق الجميع على هذا الرأى ، وبعثوا جماعة منهم للبحث عن جلال الدين فى المواضع البعيدة من الشاطىء ٠ فعثروا عليه بعد ثلاثة ايام فى موضع بعيد رماه الموج اليه مع ثلاثة من اصحابه ، فقدموا على القوم ففرحوا بنجاة سلطانهم ، وماكادوا يصدقون عيونهم اذ رأوه ٠ فأمرهم بان يتخذوا لهم اسلحة من العصى يقطعونها من عيدان الشجر ٠ ثم مشى بهم الى بعض القرى القريبة فجرت بينه وبين اهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها عليهم ، واستلب اسلحتهم واطعمتهم فوزعها فى اصحابه فطعموا من جوع ، وامنوا من خوف ، وقووا من ضعف ٠ ثم دلف بهم الى لاهور فملكها واستقر بها مع رجاله ٠ وبنى حولها قلاعا حصينة تقيه من هجمات اعدائه من اهل تلك البلاد ٠

فلما اطمان بها خلا الى نفسه ، فتذكر ما حل بأسرته من النكبات العظيمة ، واستعرض حوادث ابيه وامجاده وغزواته وفتوحاته فى البلاد حتى امتدت مملكته من فرغانة الى ابواب الهند ، وكانت ملوك الارض تهابه وتخشاه ، وتركع امامه طلبا لرضاه ، وكانت اموال الدنيا تجبى اليه ، حتى جاء طوفان التتار ، فصمد لهم وصدق الله فى جهادهم ، ووقف سدا بينهم

وبين الانقضاض على بلاد الاسلام ٠ وما زال يقاتلهم ويقاتلونه فيغلبهم مرة ويغلبونه مرة حتى انتهى امره ، وذهبت ريحه، وتفرقت عنه جموعه ، فلجأ الى جزيرة فى بحر طبرستان مات فيها بعيدا عن اهله واحبابه ٠

ثم ذكر ما وقع لنفسه من الاحداث فى الماضى القريب كيف انطوى ملكه ، ودمرت بلاده ، وتشتت شمله وشمل ذويه ٠ وكيف اختطف ابنه الوحيد وولى عهده الذى لم يبلغ الثامنة بعد ، فحمل الى طاغية التتار ، وذبح بين يديه ذبح الشاة وكيف عاش حتى رأى امه الصالحة وزوجته واخته وبنات اخواله واعمامه يغرقن فى اليم بأمره ، وعلى مشهد منه ٠ وكيف اختفت ابنته جهاد وابن اخته محمود فلم يعلم عنهما شيئا ، فلعلهما غرقا مع حريمه فى النهر ، او اذهلهن الفزع فتركنهما فى العراء ، او اشفقن عليهما وضنن بهما على حيتان النهر ٠

وهكذا قدر له ان يعيش وحيدا فى هذه الدنيا ، لا أهل له فيها ولا ولد ، فكأنما بقى حيا ليتجرع غصص الالم والحسرة بعدهم ٠ وما هذه الرقعة الصغيرة التى ملكها بالهند الا سجن نفى اليه بعد زوال ملكه ، وتفرق اهله واحبابه ٠ ولمن يعيش بعدهم ؟ وعلام يحمل نفسه اعباء الولاية وتكاليف الامرة ؟ ولكنه تذكر ان التتار هم سبب نكبته ونكبة اسرته ، فليعش لينتقم منهم ، ولتكن هذه امنيته فى الحياة ، ان لم تبق له فيها أمنية ٠

الفصل الثالث



لم يكن جلال الدين يعلم وهو يبكى اهله وذويه أحر البكاء ويتفطر قلبه حزنا عليهم ، ان طفليه الحبيبين محمودا وجهادا حيان يرزقان . ولو علم ذلك وانهما لا يبعدان عنه كثيرا ، اذ يعيشان فى احدى الدساكر المجاورة لطار اليهما فرحا ،ولتعزى بهما فى كل ما اصابه من نكبات الحياة .

ذلك ان عائشة خاتون وجهان خاتون لما ايقنتا بالنكبة يوم النهر ، ورأتا ان لا محيص من الموت او الاسر ، عز عليهما أن تريا الطفلين البريئين يذبحان بخناجر التتار المتوحشين ، او يغرقان معهما فى أمواج النهر ، وجاشت بهما عاطفة الامومة فاوحت اليهما فى ساعة الخطر ان يسلماهما الى خادم هندى أمين ، كان قد خدم الاسرة منذ ايام خوارزم شاه ، ليهرب بهما من وجه التتار ، ويحملهما الى مسقط رأسه ، حيث يعيشان عنده فى أمن وسلام . وأرادتا ان تخبرا جلال الدين بما صنعتاه ، ولكن ضاق وقتهما ، وشغلهما الهول عن ذلك .

اما الشيخ سلامة الهندى فقد فصل عن المعسكر قبيل عصر ذلك اليوم المشئوم . وأركب الطفلين على بغلة بعد أن كساهما ملابس العامة من الهنود ، وساقهما حثيثا نحو الشمال على شاطىء النهر ، ثم سلك بهما الطرق المنعرجة ، وغاب بهما فى منعطفات الجبال . وأدركه الليل فاوى الى مغارة

فى سفح جبل ، فانزل الطفلين ، وربط البغلة الى صخرة فى فم المغارة ، وفرش لهما فى داخلها وطفق يسامرهما ، ويهدىء روعهما ، ويعللهما بلقاء اهلهما من الغد ، بعد ان يكسر السلطان جلال الدين التتار ، ويذبح جنكيز خان بيده . وما زال بهما كذلك حتى غلبهما النعاس ، فناما مكانهما ونام جنبهما .

فلما كان اليوم الثانى ساق البغلة بهما ، وانحدر بهما من السفح حتى بلغ بها بطن الوادى ، فالتفت الى الجنوب فلم يجد اثرا لخيل العدو ولا رجله ، فساقها متيامنا جهة النهر حتى اشرف عليه عند الزوال ، فنزل فى ظل شجرة هناك ، وسقى البغلة وأراحها ، وأطعم الطفلين وسقاهما ، وظل يسليهما بقصص يقصها عليهما ، ونوادر يحكيها لهما ،وهما يستمعان اليه ويتضاحكان . وهو فى ذلك يترقب السفن فى النهر ، فمرت سفينة كبيرة عند العصر ، فلوح لها الشيخ أن تدنو منه ، فلم تعبأ به ومضت فى سبيلها . ثم لاح قارب من قوارب الصيد . فلوح له الشيخ بردائه ، فاقترب منه فاذاعليه صياد وابنه ومعهما شبكة صيد ، فسأله الصياد ماذا يريد ، فأجابه الشيخ بالهندية ، ورجاه ان يحمله ويحمل طفليه الى الضفة الشرقية للنهر ويعطيه على ذلك اجرا طيبا ، فقبل الصياد وفرح بالاجر ، فأنزلهم فى قاربه . ونظر الصياد الى البغلة فسأل الشيخ ما تصنعون بالبغلة ، فأجابه الشيخ « نتركها اذ لا يمكن حملها على القارب » . فقال الصياد : « اذن نأخذها لنا » . قال : « خذها فلا حاجة لنا بها » فأمر الصياد ابنه بالطلوع من القارب ليسوق البغلة الى قريته . وكان الشيخ سلامة قد اوصى الصبيين ان لا يتفوها بما يدل على انهما من بيت السلطان جلال الدين ، وأفهمهما ان صاحب القارب قد يسلمهما الى التتار اذا عرف اصلهما ، ففهما ما أراد على صغر سنهما ، فقد تعلما الخوف والحذر مما مر بهما من الاهوال وما شهداه من الحوادث المروعة ، فكانا ـ وهما فى الرابعة من سنهما ـ كأنهما من اولاد السابعة او الثامنة .

وجرى القارب فى عرض اليم تتدافعه الامواج ، فترى

الصبيين مستكينين من الخوف ينظر احدهما الى الاخر لا يدريان الى أين يصار بهما ، الا أن محمودا كان يظهر التجلد ،ويحاول ان يكتم خوفه عن جهاد ، فيطوق ظهرها بذراعيه كانه بذلك يقول لها : هأنذا أحميك فلا تخافى ·

ومضى الشيخ يتحدث الى الصياد عن قريته فى الهند ،وكيف سافر الى كابل وتزوج بها فرزق هذين الطفلين ، ولكن امهما ماتت فأحب ان يعود الى مسقط رأسه ، ليربيهما بين اهله وذويه · ثم يترك الحديث للصياد فيحدثه هذا عن حياة الصيد وما يلقى فيها من الاخطار ، وعن اهول ليلة مرت به فى حياته ، مفاخرا بصبره وشجاعته · ثم ينتقل به الى قريته فيحدثه عنها وعن حياة أهلها وعاداتهم فى أعراسهم وما تمهم ، وعن كوخه وزوجته وأبنائه وبناته ، وعن مزرعته الصغيرة وفراخه وأرانبه وبقرته الحلوب وكيف تعنى بها زوجته ، وعن ببغائه الجميلة كيف تسمع الكلام فتحكيه وتردده وتسلى أولاده · فكان محمود وجهاد يجدان لذة عظيمة فى سماع احاديثه ، أنستهما ما كانا يشعران به من الخوف ·

وقد مر الوقت دون ان يشعروا به من امتاع حديث الصياد اذ وصل القارب الى الشط ، فنزل الصياد من القارب وساعد الشيخ وطفليه على النزول · ثم ارشد الشيخ الى خير طريق يوصله الى أقرب قرية من ذلك الموضع ، وقال له : « صحبتك السلامة فى طريقك » فأعطاه الشيخ دينارا ، وكان قد رضى بأقل من ذلك ، ففرح به وشكره وقال « لن أشغل نفسى اليوم بالصيد فحسبى هذا ، وستفرح به زوجتى فرحا عظيما » ·

سار الشيخ فى الطريق الذى ارشده اليه الصياد حاملا جهادا على كتفيه ، حتى اذا ظن بمحمود التعب من السير انزلها تسير وحمل محمودا مكانها ، وهكذا دواليك حتى بلغ القرية بعد غروب الشمس ، فبات فى كوخ بها ، واشترى ما يلزمه ويلزم الطفلين من الطعام · حتى اذا اصبح الصباح ابتاع له حمارا من القرية اركبهما عليه · وظل كذلك يتنقل فى القرى حتى وصل الى مسقط رأسه فى دسكرة من الدساكر المجاورة لمدينة لاهور

وعاش الصبيان فى القرية الهادئة فى أمن وسلام كما أرادت لهما والدتاهما المرحومتان ، وكان الشيخ يرعاهما رعاية بالغة، ولا يألو جهدا فى ترفيه عيشهما وادخال السرور عليهما بكل ما يملك من وسائل التسلية والترويح ، واذا سئل عنهما قال انهما يتيمان وجدهما فى طريقه فتبناهما · ولكن هذا القول لم يقنع فضول أهل القرية ، فأخذوا يتخرصون ويخترعون الحكايات ، ويحوكون القصص عن اصلهما ، ويتفق معظمهم فى انهما من أولاد الملوك ، لما يبدو على وجوههما من سيماء الملك، وأمارات النبل ، ونضرة النعيم · ولم يجد الشيخ سلامة بدا من الافضاء بحقيقة حالهما الى بعض اقاربه الادنين الذين كانوا يعلمون بأنه قضى جل عمره فى خدمة السلطان خوارزم شاه والسلطان جلال الدين من بعده ، وسمعوا بما حل بهما من نكبة التتار ، ولكنه استكتمهم الخبر لئلا يصيب الصبيين من جراء ذلك سوء · ولم تمض الا برهة قصيرة حتى انتهت الى أهل القرى المجاورة لمدينة لاهور انباء السلطان جلال الدين وفراره من بلاده الى الهند ، ومطاردة جنكيز خان له حتى اضطره الى خوض النهر مع عسكره بعد ان أغرق حريمه ، خيفة أن يقعن سبايا فى أيدى التتار · وترامى اليهم ما جرى بعد ذلك من الوقائع بينه وبين أهل الهند حتى افتتح لاهور واتخذها قاعدة ملكه ، وأخذ يوطد سلطانه بشن الغارات على ما حوله من البلاد والقرى ، فانتشر خوفه فى قلوب أهلها ·

وحرج لذلك موقف الشيخ سلامة بين اهل بلاده ، اذ بدأوا يشكون فى أمره وفى أمر الصبيين اللذين معه ، ويرجحون انهما من أولاد السلطان جلال الدين ، فخشى عليهما من فتكهم ،واخذ يفكر فى طريقة للفرار بهما الى لاهور ·

وبينما هو ينتظر سنوح الفرصة لذلك اذا بجنود السلطان قد اقبلوا يغزون القرية ، فخرج اليهم الشيخ وعرفهم بنفسه، وأبرز لهم ابنة السلطان وابن اخته ، وتوسل بهما ان يكفوا عن غزو القرية حتى يأتيهم أمر السلطان · فأجابوا طلبه ، وبعثوا رسولا الى السلطان بالخبر ، ولبثوا ينتظرون خارج القرية ،

فما راعهم الا السلطاان قد أقبل على جواده فى لمة من فرسانه، فلما سلم عليهم ، قال : « أين الشيخ سلامة ؟ » فتقدم اليه الشيخ وقبل ركابه قائلا : « هأنذا عبدك وعبد أبيك يامولاى » فترجل له السلطان وعانقه ، وقال له : « أين محمود وجهاد ؟ » وما أتم السلطان كلمته حتى اندفع الصبيان فارتميا عليه ، فضمهما الى صدره ، وطفق يقبلهما ويقبلانه ، وهو لا يكاد يعى ما حوله من الفرح ، وقد انهمرت دموعه فبللت خدودهما، وهو يقول : « ابنتى جهاد ·· ابنى محمود ·· انتما فى قيد الحياة ·· الحمد لله ، لست وحيدا فى هذه الدنيا ، لقد بقيا لى وبقيت لهما » · ·

ثم دفع الصبيين الى فارسين من فرسانه ليردفاهما خلفهما ، وركب جواده وامر الشيخ سلامة ان يركب معه ، وقال لقائد الحملة : « كفوا عن هذه القرية والقرى التى تجاورها ، لا يؤخذ من أهلها الخراج ، اكراما للشيخ سلامة » · فشكره الشيخ ودعا له بطول العمر ·

وانتشر الخبر فى القرية فخرج أهلها رجالا ونساء فرحين متهللين ليشاهدوا السلطان جلال الدين ، وتقدم اليه وفد من شيوخها وكبرائها يشكرونه على مكرمته وفضله ، قائلين : « نحن عبيدك وبلادنا بلادك ، ونحن جميعا فى طاعتك »فحياهم السلطان وقال لهم : « ان الفضل للشيخ سلامة ، فلاتشكرونى واشكروه » · فاقبل الرجال على الشيخ وحملوه على الاعناق، وارادوا ان يزفوا به فى طرقات القرية ، فقال لهم السلطان : « اننى بحاجة اليه الان ليحدثنى بأخباره ، فهل لكم ان تدعوه الان لى ؟ »

فقالوا جميعا سمعنا واطعنا ، وانزلوه من اعناقهم ، فتقدم الى جواد اعد له فركبه · وسار السلطان وسار رجاله خلفه راجعين الى لاهور ، وأهل القرية يهتفون له ويحيونه حتىغاب موكبه عن الانظار ·

وتباشر سكان القرى المجاورة بما اعلنه السلطان جلال الدين من الامر بالكف عن غزو بلادهم واعفائهم من الخراج ، فصار

ذلك حديث المجالس والاسمار ، وأصبح جلال الدين حبيبا الى قلوبهم بعد ان كانت اكبادهم تغلى كراهية له ، ومضاجعهم تقض خوفا منه · وقدمت وفودهم على قصر السلطان بلاهور تشكره على احسانه اليهم ، وتقدم له ولاءهم وطاعتهم ، حاملة معها الهدايا النفيسة · فقبل السلطان هداياهم واجازهم عليها وردهم الى بلادهم مكرمين ·

وتبدلت احوال جلال الدين بعد عثوره على ولديه الحبيبين وعاد الى وجهه البشر بعد العبوس ، والطلاقة بعد الانقباض ، وانتعش فى قلبه الامل ، وشعر كأن أهله وذويه بعثوا جميعا فى محمود وجهاد · وكلما رآهما تذكرهم وتعزى بهما عنهم · وحمد الله على أن لم ينقطع سببه · وقوى رجاؤه فى استعادة ملكه وملك آبائه ، والانتقام من اعدائه التتار ليورث محمودا وجهادا ملكا كبيرا ، متين الاساس ، قوى الدعائم ، يخلد به سؤدد بيته العظيم ·

ومما قوى رجاءه فى نجاح مسعاه ما طاف بذاكرته حينئذ من حديث المنجم الذى تنبأ لمحمود ــ وهو بعد جنين ــ بانه سيصير ملكا عظيما ، يملك بلادا عظيمة ويهزم التتار هزيمة ساحقة · فقد تأكد لديه الان ان المنجم كان صادقا فيما تنبأ به · فقد قتل التتار الامير بدر الدين ابنه الوحيد وولى عهده، فلم يبق من أهل بيته من أحد اجدر بوراثة الملك عنه من محمود ابن اخته · ولعل الله لم ييسر له النجاة من الموت المحقق بالغرق فى النهر او بسيوف العدو الا لما ينتظره فى المستقبل من مصداق قول المنجم فيه ·

ولم يعد جلال الدين يشعر بما كان يشعر به من قبل من الغضاضة والخوف ان ينقطع الملك عن ولده ، وينتقل الى ولد ممدود ابن عمه · فقد اصبح يعتبر محمودا كابنه ، بل ربما كان أعز عليه واحب اليه من ابنه ، لما كان يمتاز به الامير الصغير من خفة الروح ، وتوقد الذهن ، وعزة النفس ،وجمال الصورة ، فى مسحة خفيفة من الحزن العميق تتردد فى وجهه الابيض الوسيم ، فتأبى على من يراه الا أن يرق له ويحبه

ويجذب اليه اول ما تقع عينه عليه • وقدعجب جلال الدين لنفسه
كيف خطر بباله يوما ان يقضي على هذا الغلام الوسيم وهو
في مهده ، خيفة ان يرث الملك عنه ، وما كان يعلم اذ ذاك أن
هذا الغلام سيكون يوما ما بقية اهل بيته وعزاءه الوحيد
في هذه الحياة • فحمد الله على ان عز له من الامور ما غل يده
على الامتداد اليه بسوء •

وهذه الذكرى الاليمة اسلمته الى التفكير في حقارة الحياة
الدنيا ، وغرور متاعها ، وكذب امانيها ، وفي لؤم الانسان
وحرصه على باطلها ، وبخله بما لا يملك منها ، وخوفه مما
عسى أن تكون فيه سلامته وخيره ، واطمئنانه الى ما لعله يكون
مصدر بلائه وهلكته • الم يعش هو حتى رأى الدولة التي
شادها ابوه العظيم تنطوي بين عشية وضحاها فاصبحت اثرا
بعد عين ؟ الم يبلغ به الحرص على الملك وتوريثه لابنائه ان
فكر في قتل طفل من امس الناس به رحما اذ قيل له رجما
بالغيب انه سيكون ملكا عظيما ؟ أفلم ينطو هذا الملك كما
انطوى ملك ابيه ؟ هل استطاع ان يضمنه لنفسه في حياته
حتى اراد ان يضمنه لابنه بعد مماته ؟ وهل اخذ على الايام عهدا
ان تحفظ له ابنه حتى يلي الملك بعده ؟ عجبا ما اجهل
الانسان يقرأ من اخبار الماضين وما حاقت بهم من صروف الدهر
وحلت بساحتهم من المثلات ، ما فيه عبرة له ، وتبصرة بما
ينفعه وما يضره ، فلا يتعظ بذلك ، ويتمادى في باطله حتى
يكون هو نفسه مضرب العظة • وستكرر هذه المآسي على ملعب
الحياة قرونا بعد ذلك وقرونا ، ويوجد بعد في هذه الدنيا ملك
يقتل أباه أو أخاه أو ابن أخيه أو عمه أو ابن عمه، تنافسا على ملك
زائل ، أو عرض حائل •

كان جلال الدين منفردا في مخدعه ، متكئا على جانب سريره
لما استرسل في هذه الافكار ، وغرق في هذه التأملات ، فما ايقظه
الا وقع اقدام خفيفة سريعة ، فعرف ان القادم اما محمود او
جهاد ، فتهيأ للقائه ،فقد اشتاق الى هذين الرفيقين العزيزين
اذ لم يرهما منذ الصباح ، وقام الى الباب ففتحه فاذا جهاد

تسعى اليه ، فاستقبلها متهللا وحملها واقعدها على حجره في
السرير • فما راعه الا استخراطها في البكاء ، فضمها ابوها
الى صدره وقال لها بلهجة حانية : ماذا بك يا جهاد يا حبيبتي؟
فاستمرت في بكائها ولم تجب •

— هل وقعت من ظهر جوادك الصغير ؟ فأومأت برأسها
أن لا •

— هل ضربك محمود ؟ هل كسر لك احدى عرائسك
الجميلة ؟ هل قال لك قولا أغضبك ؟

فكانت تجيب عن كل سؤال من هذه الاسئلة بالنفي وهي
مطرقة ، كانها لا تطيق أن ترى عيني ابيها ، فوضع خديها بين
كفيه ، وأدار وجهها اليه قائلا : « اذن ماذا أصابك يا بنيتي
العزيزة ••• ألا تقولين لابيك ؟ » •

فهدأ جاشها لما غمرها من هذا الحنان الابوي الخالص •
وأجابت أباها قائلة : « لابد أن التتار قتلوا محمودا ، فقدخرج
لقتالهم من الصباح ولم يعد » •

فابتسم ضاحكا من قولها وقال لها :

— لماذا لم تخرجي معه على جوادك كعادتكما ؟

— انه منعني اليوم أن أخرج معه لانه سيلتحم في معركة
كبيرة مع التتار ، ويخشى أن أقع اسيرة في أيديهم •

فلم يتمالك السلطان ان أغرب في الضحك ، ولكنه لحظ على
وجهها الامتعاض كأنها تستنكر من أبيها ان لا يقابل مثل هذا
الحدث الجليل الا بالضحك ، وأدرك خطأه فأراد ان يصلحه
بمراعاة شعورها ومجاراتها فيما تقول ، فقطب فجأة ، وتصنع
الاهتمام والتطلع ، وقال لها بصوت هادىء رزين : « لاتخافي
على محمود فانه فارس شجاع لن يقدر التتار على قتله » •

— نعم انه فارس شجاع ، ولكنه واحد وهم ألوف •

— صدقت ، ولكن خبريني أولا : ألم يمتط محمود جواده
الاشقر ، ولبس خوذته الفولاذية ، ودرعه المسردة ، وتقلد
سيفه البتار ، ورمحه الطويل ، وتنكب قوسه وحمل ترسه ؟

— بلى ، انه خرج بكامل سلاحه •

– هل انت موقنة بانه لم ينس شيئا من اسلحته هذه ؟
– نعم ، أنا التى أحضرتها له وساعدته على لبسها .
– اذن لماطمئنى عليه ، ان سيفه سيكسر سيوفهم ، ورمحه سيحطم رماحهم ، ودرعه وخوذته ستقيانه وقع سهامهم وضربات سيوفهم ، وقوسه كفيلة باصابة بعيدهم ، واذا تكاثرت عليه الجموع ، ففى جواده الخير ، سينجو به منهم ، ولا يتعلق بغباره منهم أحد !
– ولكنه لم يعد الى الان .
– لعله استحلى قتالهم ، فلم يشأ ان ينصرف عنهم حتى يبيدهم أو لعلهم انهزموا فذهب يطاردهم ويتعقب آثارهم .. هل أسر اليك كلمة قبل خروجه او طلب منك شيئا ؟
– ... لم يطلب منى شيئا ... نعم طلب منى أن أقبله فلم أفعل ...
– انك اخطأت يا جهاد اذ منعت فارسك قبلة صغيرة لاتكلفك شيئا ، وهى له كل شىء .
– انى وعدته بها حين يرجع ظافرا من قتالهم .
– هذه قبلة الانتصار تجزين بها فارسك على ما أظهر من البطولة فى ميدان الوغى ، وأهم منها وأنفع له قبلة التشييع تزودينه بها ، فتملؤه عزما وايمانا وتزيده ثباتا واقداما ، وتكون له سلاحا امضى على أعدائه من كل ما تقلده من السلاح . أرأيت اذن كيف اخطأت فى عملك ؟
– ساصلح خطئى – سأقبله مرتين اذا عاد ظافرا من المعركة .
– سيكون هذا اسرافا منك تقل به قيمة قبلاتك عنده . يجب أن تكون قبلاتك غالية يا جهاد ، ولكن امنحيه قبلة واحدة حين يعود ، وأجلى الاخرى حتى يخرج لقتالهم مرة ثانية . والآن يا أميرتى امنحى أباك قبلة صغيرة من فمك هذا الجميل .
فطوقت عنقه بذراعيها وقبلته ، ثم استلقت على حجره باسمة ، فأدار لها خده الاخر قائلا : « وقبلة لهذا الخد » .
فجذبت نفسها من حجره ، وانتصبت واقفة ونظرت اليه تقول :

– يا سيدى يجب أن تكون قبلاتى غالية ! .
قالت هذا وانطلقت تعدو الى جهة الباب ، وأومأت اليه تدعوه للحاق بها ، فتبعها جلال الدين ، فخرجت تعدو فى الدهليز ، فجرى خلفها حتى دخلت البهو ، فعمدت الى الستائر السندسية المرخاة على النوافذ الكبيرة فاستخفت وراءها فلما دخل ابوها البهو وقف يتفرس فى أى ناحية من البهو اختبأت ابنته الجميلة . فعسر عليه تعيين تلك الناحية ، ولم يشأ ان يقصد ناحية ربما يخطىء فيها ، فعمد الى حيلة يستخرجها بها من مخبئها ، فنظر جهة الباب وقال بصوت عال: « أهلا بمحمود أين كنت يا بنى ؟ » فما أتم كلمته حتى لاحت له حركة فى احدى الستائر فهجم عليها ، فانتزعها منها وحملها الى صدره، وطفق يلثمها فى وجناتها ويقول لها : « هاتى قبلة لهذا الخد » فتأبى قائلة : « ان قبلاتى غالية . » فيقول لها : «ليست غالية على ابيك » ويعود الى لثمها فتصيح قائلة : « حسبك أطلقنى ! أرسلنى ! » فيجيبها : « كلا لن ارسلك حتى تقبلى الخد الاخر » فما وسعها الا أن ترضخ له فتقبل خده الاخر ، فيمسك برأسها ويضمه الى وجهه يطيل بذلك مدة القبلة الغالية .
وما ان أرسلها حتى انطلقت الى جهة الباب تبحث عن محمود فلما لم تر أحدا التفتت الى أبيها قائلة : « انك أوهمتنى أن محمودا جاء ولم يجىء » .
فأجابها ضاحكا : « انى فعلت ذلك لاهتدى الى مقرك وقد نجحت فى الحيلة » .
فسكتت الصبية هنيهة وطفق وجهها يربد ويغيض اشراقه ، ثم قالت وهى على وشك البكاء : « لقد قلت لك انه لن يرجع، فلا بد أن التتار ظفروا به فقتلوه أو أسروه » .
فانحنى جلال الدين على ابنته واخذ يجيل يمينه فى شعرها الذهبى اللامع ويقول لها : « قلت لك يا حبيبتى ان لا خوف على محمود ، فلن يظفر التتار به ، ولعله الساعة فى طريقه الينا » .
ولم يقل جلال الدين كلمته هذه كما قالها فى المرة الاولى ،

فقد استطال غياب محمود حقا ، واستبطأ مجيئه ، وبدأ الشك يدب فى خاطره ، والقلق يساوره خشية ان يكون وقع للغلام حادث فى تجواله بضواحى المدينة ، فرأى ان يستفهم عنـــه الشيخ سلامة ، فأخذ بيد ابنته قائلا : « هيا بنا نستقبـــل الفارس الشجاع يا جهاد » . ومشى ومشت جهاد معه متثاقلة فى مشيتها كأنها ادركت فى نفسها انهما لا يسيران لاستقباله ، كما زعم ابوها ، بل للبحث عنه .

وهبطا الى الطبقة السفلى ، ومرا بالخدم والحجاب ، فنـادى جلال الدين الشيخ سلامة الهندى ، فخرج من غرفته يسعى حتى اذا دنا منه قبل الارض بين يديه ، ووقف ينتظر الامر .

قال له جلال الدين : « أين الامير محمود يا سلامة ؟ »

فأجابه الشيخ سلامة : « انه لم يعد بعد من تجـــواله يا مولاى » .

ـ هل رافقه سائسه أم ركب وحده ؟

ـ انه أمر سائسه اليوم أن يخرج معه بســلاحه قائلا انه سيقاتل التتار .

فانفرجت شفتا جلال الدين عن ابتسامة خفيفة لم تكد تستر القلق البادى فى وجهه ، ثم قال : « أما ترى انه تأخر اليـــوم كثيرا عن ميعاد رجوعه ؟ » .

ـ أجل يا مولاى ، انه ـ حفظه الله ـ مغرم بالركوب لايكاد يتعب منه ، وقد شكا الى السائس انه يجد عنتا كبيرا كل يوم فى حمل الامير على الرجوع من تجواله .

والتفت السلطان الى ابنته فرأى ازدياد قلقها من الحـديث الذى دار بينه وبين الشيخ سلامة ، فأراد تطمينهـا وقال : « اذهب يا سلامة فمر باحضار جوادى وجواد الاميرة جهاد ، لنركب معا فى استقبال الفارس الشجاع » .

فمضى الشيخ لطاعة أمر السلطان متقهقرا الى الوراء ، لئلا يستدبر مولاه السلطان احتراما له كدأبهم فى ذلك . وما ابتعد بضع خطى حتى سمع صهيل جواد محمـــود خارج السور ، فقال السلطان : « ارجع ياسلامة ، هاهو ذا محمود. قد اقبل

فيما أرى » .

ولم تنتظر جهاد أمر ابيها ، فخفت الى جهة باب السور ، وتبعها جلال الدين ، فلم يرعهما الا الجواد الاشقر الصغير قد اقبل يركض وحده ليس عليهصاحبه . فلما دنا منهما خفف من عدوه ، وأرخى ذيله ونكس رأسه ! وطفق يحمحم حمحمة تعرف فيها نغمة الحزن ، حتى أسلم زمامه للسلطان ، فأخذ يصعد النظر فيه ويصوبه ، وقد استولى عليه الذهول وبلغمنه القلق مبلغه ، فهاله ما رأى من آثار الدم على وجه الجوادوصفحة عنقه وكفليه ، فأيقن أنه تدحرج من تل عال . وكأن الصدمة أذهلته عما يقتضيه الموقف من الحركة ، فوقف هنيهة صامتا لا يدرى ما يفعل . اما جهاد فقد اخذت بجلباب ابيها ، وتعلقت به ، وهى تكظم عبرة تكاد تخنقها وتوشك ان تنفجر .. واذا بجواد كبير قد لاح من منعطف السور وهو يسير سيرا رفيقا، وعليه رجل وغلام امامه . فلم يبق لدى جلال الدين شك فى أن محمودا أصيب ، وان السائس حمله معه على جواده ، فرأى من الحكمة ان يصرف ابنته الصغيرة عن مشهد قد يصدمهـــا ويذهب صوابها . فأمر الشيخ سلامة ان يحملها الى داخـــل القصر . وما انتزعها من جلباب ابيها حتى انهمرت دموعها ، وانفجرت تصيح وتعول .

وانطلق جلال الدين طائراللب حتى لقى الجواد القـــادم فى منتصف الطريق ، فاحتمل الامير الصغير من يدى السائس الذى ملكه الخوف فلم يدرك ما يقول . والقى عليه السلطـــان نظرة هائلة كاد يصعق لها . وكان الارتباك قد انساه انيترجل احتراما لمولاه . فترجل وفرائصه ترتعد ، فلم يكلمه السلطان، ومضى يحمل الامير المصاب مسرعا . ولكن فى رفق ، حتى بلغ الباب فدخله ، وأشار للحجاب بأن يسرعوا باحضار الطبيب . وصعد الى أعلى القصر ، وانطلق الحجاب مهرولين عليهم دلائل الدهش والقلق .

ودخل الطبيب على السلطان ، فوجده مكبا على الامير المصاب يجس نبضه ليطمئن على انه حى بعد ، ولكن القلق أطار صوابه

فخيل اليه أن النبض ساكن وليس بساكن . وما ان لمحـــه السلطان حتى تنحى له عن المصاب ، فدنا من السرير ، وكان أول ما فعل ان حل عن الفارس الصغير ملابسه العسكرية ، ثم جس نبضه والسلطان ينظر اليه واقفا على أحر من الجمر ، يتفرس فى وجهه عسى ان يقرأ فيه حقيقة الحال قبل ان ينطق بها لسانه . ولكن الطبيب لم يبطىء عليه فى الجواب اذ قال له : « مولاى ، ان مولاى الامير بخير لا خوف على حياته ، وانما به اعياء شديد افقده وعيه » .

ثم استخرج من حقيبته حقا به سائل احمر ، فغمس فيه قطنة صغيرة فمسح بها حول انف الامير ورش على وجهه شيئا من ماء الورد ، ثم كشف عن جسده ، فرأى جراحا طفيفـــة فى مواضع منه ، الا جرحا واحدا غائرا فوق حاجبه الايمن مسح عنه الدم ، ثم ذر عليه مسحوقا ابيض ، ووضع عليه قطنـــا لفه بعصابة ربط بها رأسه .

وما أتم عمله هذا ، حتى تحرك الامير وفتح عينيه ، فجعـل يديرهما فى أرجاء السقف ، ثم حاول الجلوس وهو يقول : « أين أعدائى ، أين الاوغاد الجبناء ؟ لقد هربوا خوفا منى ! » ولم يملك جلال الدين نفسه من الفرح اذ رآه يتحرك وينطق أن دنا منه ، فضمه وجعل يقبله فى رأسه ، ويقول : « الحمد لله ، انت بخير يا محمود ، يا حبيبى ، يابنى » .

فتعلق محمود بعنقه ، وجعل يتأمل فى وجهه كأنه يستحضر شخصا بعد العهد به فنسيه ، ثم ابتسم قائلا : « خالى ! ماجاء بك هنا ؟ هل جئتنى بمدد لقتال العدو ؟ »

ـ أجل يا محمود ، أتيتك بمدد عظيم ، وسنبيد التتـــار أجمعين .

وتلفت محمود حوله ، ونظر الى نفسه فقال : « أين سيفى ورمحى ، وأين جوادى ؟ » .

لم يجد جلال الدين ما يجيبه به . وأدرك الطبيب ان الصبى لم يسترجع بعد كامل رشده ، فدنا منه وحل يديه من عنق السلطان ، وأضجعه على الفراش ، وقال له متلطفا : « ان القتال

واقف الان ، وانت بحاجة الى النوم والراحة ، فنم واسترح ثم نستأنف قتال الاعداء بعد ذلك » قال ذلك ونشر الغطاء على الامير ، وما استقر رأسه على الوسادة حتى استرخى جفنـــاه وغلبهما النعاس ، فغرق فى سبات عميق .

أما سيرون السائس فقد التجأ فى خلال ذلك الى الشـيخ سلامة ، وقص عليه ما وقع للامير على غير تقصير منه فى رعايته وحمايته ، قال : « ولكن الامير صعب المراس ، شديد الغرام بالركوب ، ينطلق بجواده فلا يكل ولا يتعب ، ولا يقف ولا يستريح ، واذا أفضى الى ميدان فسيح أطلق لجواده العنــــان لا يبالى ما يعترض امامه ، فربما وثب به تلا عاليا ، او انحدر به فى جرف غائر ، واذا رآنى حفزت جوادى لاقاربه ، رعاية له وحفاظا عليه ، الهب جواده بالسوط ، فزاد فى عدوه ، فلا يسعنى الا ان اكف عن مباراته ليقارب من سيره . وربمـــا خشيت عليه من شدة الجرى فاحضرت جوادى ملء عنانه ، فقبضت على زمام جواده واختطفته من سرجه ! وكان هذا اشد شىء عليه اذ يغضب منه ، ويوسعنى ضربا بسوطه وركلا برجله فلا يرضى حتى أمكنه من جواده مرة أخرى .

أما اليوم فقد خرج بكامل سلاحه ، وقال لى فى الصـــباح انه سيقاتل التتار قتالا عنيفا ، وسيلتحم معهم فى معركة هائلة وأمرنى أن أحمل سيفى معى فربما يحتاج الى معونتى . فلما خرجنا من المدينة همز جواده فتوجه به نحو الغابة الشرقية ، فسألته اين يريد ؟ ، فقال لى ان الاعداء هناك ، وأمرنى بأن أتبعه ، وان الزم السكوت ، فتبعته حتى اذا كنا على مرمى حجر من طلائع اشجار الغابة ، وقف واشار الى فوقفت حذاءه فأخرج قوسه وناولنى جعبة سهامه ، فجعل يأخذ منها سهما بعد سهم فيثبته على القوس ثم ينزعها كأحسن ما ينزع الرماة وينطلق السهم له حفيف بين فروع الاشجار واغصانها الملتفة ويقول لى بين حين واخر :



– انظر لقد شككت بطلين بهذا السهم !

وكان يفعل ذلك بحماسة عظيمة ، جعلتني احسب نفسي في معركة حقيقية ، لا بين يدى امير صغير يلعب . ولما فرغت الجعبة من السهام تنكب قوسه ، وسل سيفه من قرابه ، وأمرني ان افعل كذلك ، ثم تقدم بخطى ثابتة وهو شاهر سيفه ، حتى اذا بلغ الاشجار قال لى اضرب ، فجعل يضرب فروع الاشجار بسيفه يمينا وشمالا ، وأنا أفعل مثله ، وبقينا كذلك حتى كلت يدى من الضرب ، ورأيته قد احمر وجهه ، وتصبب العرق من جبينه ، ولكنه ظل يواصل الضرب ، حتى أشفقت عليه . ولما رآني كففت ، نظر الى مغضبا وصاح : « اضرب يا هذا ! » ، فبقيت فى حيرة من امره ، كيف احمله على وقف الضرب ، حتى هداني عقلى الى حيلة طريفة . فاظهرت حماسة كبيرة فى القتال ، وجعلت اضرب ضربا شديدا ، فرأيته طرب لعملى ، وحمى وازدادت حماسته ، فصار يضرب ضربات متتابعة ، وعند ذلك صحت بأعلى صوتي : « لقد انهزم جيش العدو ! ها قد فروا من سيفك يا مولاى الامير ! »

انتجت حيلتى هذه الاثر المطلوب ، اذ كف الامير عن الضرب لما سمع هذا القول ، واستنار وجهه ، وتهللت اساريره . وما كان اجمله وهو يختال بجواده ، وجواده يختال به ، كأنما احس الحيوان بما ادرك مولاه من مجد الانتصار فشاطره الفخر به ، او كأن خيلاء البطولة التى أسكرت حمياها لب الامير فلعبت بمعاطفه ، سال فضلها منه على حامله ، فجرى صيدا فى جيده ونزقا فى أعطافه !

وقف الامير كذلك هنيهة يتلعب بعنان جواده ، فطورا يشده وطورا يرخيه ، والجواد يرفع صدره ويخفضه ، ويترنح ترنح النشوان يمنة ويسرة . ولعل الفارس البطل انتبه حينئذ الى أن عمله لم ينته بعد ، وان عليه ان يطارد العدو ويتعقب آثاره بعد ان هزمه ، فماهى الا لحظة حتى دفع جواده فى صدر الغابة ، فأدركت الخطر ، وخشيت ان يصطدم بشجرة او يقع فى غدير ماء ، فصحت به : « ان الاعداء اخذوا هذا

الوجه يامولاى وانطلقوا فى عرض الميدان » فكر راجعا الى حيث كنت ، فاستدبرت وانطلقت الى الميدان الفسيح ، فدفع جواده فلحقني ، ثم سبقني صائحا بأعلى صوته : « ادفع ! ادفع ! لابد من ادراك العدو » .

وأعمل سوطه فى كفل الجواد ، فطار به قدما ، وخلف غباره في وجهي ، ولم أتمكن من اللحاق به الا بعد عناء وجهد . وكلما اقتربت من محاذاته زاد فى دفع جواده ليحتفظ لنفسه بفضل السبق . وكان هذا دأبه معى كل يوم . ولكنه لم يظهر فى يوم من الايام من القوة والنشاط والتحمس والاندفاع ما أظهره اليوم . لقد خلتنى أمام بطل من ابطال الفروسية ، لا امام صبى لم يسلخ السابعة . وأقسم لك لولا تذكرى دائما ما عهد الى من حراسته ووقايته ، وخوفي ان يصاب بسوء وهو فى عهدتى ، لما جشمت نفسى مشقة الجرى معه ، فقد كل جسمى ، ونفدت قوتى ، وبلغ الجهد منى مبلغا كاد يقضى على ، وهو ما زال فى عنفوان قوته ، وغلواء نشاطه ، كأنه معين نشاط لا ينضب . وان عجبى من جواده الصغير لا يقل عن عجبى من راكبه ، وانه ليجرى وانى لاجرى معه ، وكأن السهل بساط يطوى تحتنا طيا ، وكأن التل يجذبنا جذبة واحدة الى رأسه ، ثم يدفعنا دفعة واحدة الى اسفله !

وبينما نحن كذلك ، اذ بصرت بجرف شديد الانحدار يقترب منا . فقف شعر رأسى ، ونبهت الامير للخطر . وصحت به أن يمسك العنان ، فلم يأبه لقولى ، واستمر فى جريه كأنه يتحدانى ، وأيقنت انه صائر الى الجرف ، فلم اجد بدا من أن ادفع جوادى بكل ما بقى من قوتى ، فدنوت منه ، فاختطفته من سرجه على مدى خطوات من الجرف ، وشددت احد طرفى العنان بقوة ، فذعر الجواد ومال الى جنبه ، وانقلب بنا فى الارض ، اما الجواد الصغير فلما رأى الخطر حاول اتقاءه ، فأعجزه أن يقف قوة اندفاعه ، فصرف فضل جريه ، ووجهه الى جهة يساره ، حيث وقع فى جانب من الجرف أقل انحدارا مما كان مقبلا عليه . ولم نعلم ما حدث له حينئذ . ولم نره الا [illegible]

عندكم . وقد اغمى على عقب السقوط ، ولما عاد الى صـــوابى رأيت الامير جاثما على وجهه وقد بردت أطرافه ، وشحب وجهه ، فحملته على جوادى ورجعت به » .

ما انتهى السائس من حديثه حتى شعر بدوار فى رأسه ، فاسنده الشيخ الى صدره ، ومشى به الى سرير دونه فاضجعه عليه وهو يقول : « انى متعب شديد الاعياء ، فبالله عليك الا ما شفعت لى عند مولانا السلطان وبسطت له عذرى ، فانى اخشى من عقوبته » .

قال له الشيخ : « ليطمئن بالك فلن يعاقبك مولانا السلطان ، وارجو ان يجزيك على جميل ما صنعت فى خدمة أحب الناس اليه » وذهب غير بعيد فأحضر له شرابا منعشـــا وقال له : « اشرب هذا فانه ينفعك ويعيد اليك قوتك » ثم دثره بالغطاء ، وتركه ينام .

واستيقظ الامير محمود فى صباح اليوم التالى بارئا كانما نشط من عقال ، لا يرى عليه اثر مما اصابه بالامس الا العصابة المربوطة برأسه . فلما رآه جلال الدين كذلك سر به ، وادناه منه قائلا « حياك الله يا هازم التتار ، لقد هزمتهم يابنى الى غير رجعة » . فابتسم محمود ابتسامة يخالطها الحياء خجلا من ثناء خاله عليه . واستمر جلال الدين فى كلامه يقول « لكن حذار يابنى أن تجازف مرة اخرى بحياتك . كان عليك وقد هزمت عدوك فى الغابة ان تكتفى بذلك ، وأن لا تكلف نفسك مشقة الجرى وراءه بل تعنى بتنظيم جيشك والاستعداد للقائه اذا حاولت فلول جيشه ان تكر عليك » .

قال محمود : « انى اردت ان أطرده من حدود بلادنا فلا يعود اليها » .

– ان أبيت يا بنى الا مطاردة العدو فأرسل احد قـــوادك فليطاردهم ، وليتعقب آثارهم ، ولا تطاردهم بنفسك ، فان فى ذلك خطرا عليك وعلى جيشك .

– ليس عندى الا سيرون وهو قائد جبان ، لن يمضى لمطاردتهم وحده .

– لا تقل هذا فى حق سيرون فما هو بجبان ، ولـــكنه قائد حازم ، لا تعميه شجاعته عن رؤية الخطر الذى امامه . ولا خير فى شجاعة بغير حزم . ألم ينبهك الى الجرف لتتقيه فلم تسمع لقوله ؟ ولو لم يحل بحزمه بينك وبين تهـــورك لتدهدهت فى الجرف الذى اوشكت تتردى فيه . فانت مدين له بحياتك ، وعليك ان تعرف له هذا الجميل .

سكت محمود لما سمع هذا ، ولم يحر جوابا ، وعلاه اكتئاب كانما عز عليه ان يلام على عمل مجيد فى زعمه . وادرك جلال الدين ما جال بخاطر الامير الصغير ورق لوجومه . فاخـــذ يده برفق وضمه الى صدره بحنـــان وقال له : « اننى معجب بشجاعتك وبطولتك ايها الفارس الشجاع ، وانما اريد منك أن تضيف الى شجاعتك الحزم لتكون قائدا كاملا ، واملى كبير فيك ان تعمل بنصحى وتحقق رجائى ، ولن ارضى عنك حتى تعدنى بشرفك ان لا تجازف بنفسك مرة اخرى » .

فقال محمود وقد خفت عنه الكآبة : « أعدك بشرفى ان لا أجازف بنفسى مرة اخرى » .

– وأن تنظر الى ما امامك .

– وأن أنظر الى ما أمامى .

– وأن تقف اذا رأيت خطرا قدامك .

– وأن أقف اذا رأيت خطرا قدامى .

– وأن لاتجرى جوادك ملء عنانه .

فتوقف محمود لحظة أدرك جـلال الدين خلالها أنه يصعب على محمود أن يعده بهذه ، فاستدرك قائلا : « الا فى سهل خال من المرتفعات والمنحدرات » .

– وأن لاأجرى جوادى ملء عنانه الا فى ســـهل خال من المرتفعات والمنحدرات .

فضرب جلال الدين على خده يدلله ويقول له : « الآن اطمأن قلبى على فارسى الشجاع فما أخشى خطرا عليه » .

وتذكر محمود حبيبته جهاد فسأل اباها عنها قائلا انه لم يرها منذ أمس . فأجابه جلال الدين بأنها جاءت أمس تسأل

عنه فوجدته نائما فلم تشأ أن توقظه .

وكانت جهاد فى قلق شـــديد منذ حملها الشيخ سلامة فأسلمها الى وصيفتها خيفة أن يذهب بصوابها مشهد محمود المصاب . فظلت تبكى وتصيح محاولة أن تراه حين كان الطبيب يعالجه ، فلمـا انتهى من ذلك واطمأن جلال الدين عليه ذهب اليها ، فادخلها على محمود وهو نائم ، وقال لها انه متعب من طول القتـــال ، وان عليها أن تتركه ليأخذ قسطه من النوم والراحة .

فاكتفت بالقاء نظرة على وجهه ، فراعتها العصابة المربوطة فى رأسه ، ونظرت الى أبيها تستفهمه عما حدث به ، فأسر اليها بأنه أصيب بضربة خفيفـــة فى جبهته من سيف قائد التتار لما بارزه ، فغلبه محمود اذ ضربه بسيفه ففلق هامته ، وقد داواها الطبيب وربطها ولاخوف عليه منها ، فغدا سيبرأ منها ، وتلقاه فتهنئه بانتصاره المجيد على أعدائه التتار .

وباتت ليلتها تفكر فى محمود ، والضربة التى أصـــابت جبهته ، فتشفق عليه منها ، وتذكر ماأخبرها به أبوها من مبارزته لقائد التتـــار وضربه اياه بالسيف حتى فلق هامته ، فتمتلىء اعجابا بحبيبها البطل ، وتود لو تراه فى تلك الساعة ليحدثها بأخبار الوقعة لعظيمـــة التى انتصر فيها على التتار ، وهزمهم وشردهم الى أقاصى البلاد .

وأطلقت لخيالها العنان فجعلت تتصور محمودا وهو يقاتل أعداءه فى الميدان ، راكبا جواده الاشقر ، والسيف يلمع فى يمينه ، وهو يضرب به يمينـــا وشمالا ، فيجندل الابطال ، وتتمثله اذ برز له قائدهم فلقيهمحمود فتجاولا ساعة وتصاولا، وأمكنته غرة من محمــــود فضربه ضربة فى جبهته فلم تصنع شيئا ، وحمى محمود لما اصيب بالضربة فحمل على قرنه حملة صادقة ، وعلا رأسه بالسيف ففلقه نصفين .

ثم سرحت تفكر كيف تقابله غدا ، وكيف تهنئه علىانتصاره، واى هدية تقدمها له . ثم تذكرت أنها وعدته بقبلة عند رجوعه ظافرا ، وأنه يحب الزهر ، فاستقر عزمها على أن تفى له بوعدها،

فتقبله أول ماتلقاه ، وتقدم له طاقة من الزهر . واطمأنت لهذا الرأى وسرت به سرورا اذن للنوم على عينيها فحل بهما ضيفا كريما .

ولما أصبح الصباح هبت من نومهـــا فرحة ، وانطلقت الى حديقة القصر فقطفت أشــــتاتا من الرياحـــين وأزهار الورد والياسمين ، فدفعتها الى وصيفتهـــا فألفت منها طاقة جميلة .

وزينتها الوصيفة وألبستها حلة من السندس الأحمر مطرزة فى جيوبها وكميها وأطرافها ببنائق الفضة ، وأصلحت شعرها وفرقته ، وعقلته بشريط من الحرير يحفظه مرسلا على ظهرها . ثم وضعت على فرقها قلنسوة هندية سوداء موشاة بالذهب ، قد زين مقدمها بحباب من اللؤلؤ منسوقة على شكل الهلال .

مضت جهاد كذلك الى غرفة محمود حاملة بيدها طاقةالزهر، فلما رآها قام لها ، وخفت اليه فقبلته فى جبينه ، ثم قدمت اليه طاقة الزهر قائلة : « هــــذه هى هديتى اليك أيها الفارس الشجاع » فتقبل محمود الطاقة وقال لها : « أشكرك ياجهاد على هديتك الجميلة » .

فنظر اليهما جلال الدين وهـــو يضحك من فعل الحبيبين الصغيرين ، وقال لها : « وأين هديتى أنا ياجهاد ؟ »

ابتسمت وقالت : « ليس لك عندى هدية لأنك لم تخرج لقتال التتار » .

فقال جلال الدين : « ياليتنى خرجت معك لقتالهم يامحمود ، فتعطينى جهاد مثل هذه الهدية الجميلة » .

قال ذلك وجذب الصبيين فجمعهما فى حجره وطفق يضمهما الى صدره وهو يقول : « بارك الله فيــكما يارلدى ! أسعد الله أيامكما ياحبيبى ! »

الفصل الرابع



عاش السلطان جلال الدين فى مملكته الصغيرة بالهند عيشة حزينة ، تسودها الذكريات الأليمة ، ذكريات ملكه الذاهب ، وذكريات أهله الهالكين ، من أب مات فى الغربة شريدا ، وكان فى سلطانه ملء القلوب والأسماع والابصار ، ومن أخوة ذبحهم التتار وكانوا على عروشهم زينة الملك وعنوان المجد ، وجمال الشباب ، وجدة وعمات ساقهن التتار سبايا الى طاغيتهم ، وكن فى أيامهن بهجة القصور ، وأم كريمة وزوجة بارة وأخوات عقائل أمر باغراقهن فى النهر وهو ينظر اليهن . وصار يجد سلواه الوحيدة فى ولديه الحبيبين محمود وجهاد فيقضى جل أوقاته معهما ، ينزل الى عالمهما الصغير ويصادقهما ويشترك معهما فى العابهما،ويجاريهما فى أحاديثهما البريئة وأحلامها الصافية ،فيجد فى ذلك لذة تنسيه هموم الحياة وآلامها .

وكان مع ذلك لاينسى تدبير ملكه ، وتنظيم شؤونه ،وتقوية جيشه وتعزيز هيبته ، فكان فى كفاح دائم مع أمراء الممالك الصغيرة التى تكتنف مملكة لاهور ، يدفع غاراتهم على بلاده ويغزوهم الفينة بعد الفينة ، وهو فى ذلك يتنسم أخبار ممالكه السابقة ، ويرقب حركات التتار بها ، يتربص بهم الدوائر وينتظر الفرص للانقضاض عليهم ، والانتقام منهم ، واسترداد

ممالكه وممالك أبيه من أيديهم أو أيدى أعوانهم وأجرائهم .

فقد كان التتار أمة لاتطمع فى ملك البلاد وحكمها وحسبها أن تغزوها فتقتل من تقتل من رجالها ونسائها وأطفالها، وتسبى منهم من تشاء ، وتنهب خزائنها فلا تدع شيئا الا أتت عليه ، ثم تغادرها الى بلادها حاملة معها الغنائم والأسلاب ، فتنقبع فيها ماتنقبع ، ثم تعود كرة أخرى فيطغى سيلها على الأمم والممالك فتقتل وتنهب وتسلب ، ثم تعود الى منبعها وهكذا دواليك . وربما عقدوا مع أهل البلاد التى غزوها اتفاقا يأمنون به من عودتهم ، على أن يحملوا اليهم جزية كبيرة فى مستهل كل عام . وحينئذ يولون عليها من يتوسمون فيهم الميل اليهم، والرضى بسياستهم من عبيد الأهواء الطامعين فى المناصب من أهل تلك البلاد .

كذلك كانت الحال فى العواصم والمدن التى تخلى عنها جلال الدين ، فقد وليها جماعة من الطغاة والمستبدين ، لاهم لهم الا جمع المال من كل سبيل ، فيصادرون أملاك الناس ، ويفرضون الضرائب الثقيلة عليهم . ويسلبون أموال التجار . ومن جرؤ على الشكوى منهم كان جزاؤه القتل أو الاهانة والتعذيب .

وكان لجلال الدين فيها أعوان وأنصار لايحصون كثرة ، يتمنون عودته ، ويراسلونه سرا فيصفون له أحوال الناس بها، ومايعانونه من ظلم الحكام وفسادهم وطغيانهم، ويحضونه على العودة اليهم ويعدونه بالنصر والتأييد ، وبأنهم سيثورون ثورة عامة على أولئك الحكام اذا ماعاد جلال الدين الى بلاده . وذكروا له أن جنكيز خان مشغول عنهم بحروب طويلة فى بلاده مع قبائل الترك .

فرأى جلال الدين أن الفرصة سانحة ، وصحت عزيمته على اغتنامها ، فتجهز للمسير ، وكتم خبره عن الناس جميعا ماعدا قائده الكبير الأمير بهلوان أزبك ، اذ استنابه على مايملك بالهند ، وترك له جيشا يكفى لحمايته ، وسار هو بخمسة آلاف قسمهم الى عشر فرق ، جعل على كل منها أميرا ، وأمرهم أن يسيروا خلفه على دفعات من طرق مختلفة ، حتى لايستشعر الناس بخبر مسيرهم .

وكان قبل مسيره قد فكر مليا فى أمر ولديه الحبيبين ، وتردد طويلا أيستصحبهما معه أم يتركهما بالهند ، فانه ان أخذهما معه عرضهما لأخطار الطريق ومتاعب هذه الرحلة الشاقة ، واذا نجا بهما من ذلك رمى بهما الى ماهو مقدم عليه من الكفاح العظيم ، والقتال المستميت ، لاسترداد بلاده وبلاد أبيه ، ولا يعلم الا الله وحده ماذا تكون عاقبة سعيه وماذا يكون مصيره ، وسيفضى به هذا لامحالة الى مواجهة التتار وقتالهم من جديد ، ومن ذا مضمن له الغلبة على تلك الأمة الهائلة التى لانهاية لجموعها ولا صاد لهجماتها ، ولا عاصم من أمرها الا من رحم الله ؟

وانه ان تركهما بالهند فلا طاقة له بفراقهما ،ولاطاقة لهما بفراقه . وليس له فى الدنيا أهل غيرهما ومالهما فيها من أهل غيره . وقد وجدهما بعد ضياع ، ولقيهما بعد يأس ، فانتعش بهما أمله ، وأشرق بهما وجه حياته ، وكانا له عزاء عن كل مافقد من ملكه وأهله ، أفيتركهما وحيدين فى بلاد غريبة عليهما لايدرى ماذا يكون مصيرهما فيها ، فربما يطوع امراء الهند فى مملكة لاهور ويستضعفون نائبه عليها حين يبلغهم مسير السلطان بمعظم عسكره عنها ، فيقومون عليها قومة واحدة ، وتسقط فى أيديهم ، ويومئذ لايكون لرجاله مهرب ، ويقع الاميران فى قبضتهم ولا امل فى نجاتهما من سيوفهم .

أخذ جلال الدين يوازن بين الخطتين الى أن آثر أهون الخطرين عنده ، ففضل أن يأخذ الأميرين معه ، اذ كان هذا أحب الرأيين الى نفسه ، وأقربهما الى هواه فحسبه أن يراهما دائما معه ، فاذا قدر له النجاح فذاك ، وان خانته الحظوظ وأخفق ، فلن يبقى بعد ذلك أمل فى الحياة ، ولن يؤويه بعد ذلك مكان ، وخير لهما حينئذ أن يقتلا معه ، فلا يتعرضا لما يتعرض له مثلهما من الشقاء والهوان .

وكان جلال الدين كان ينظر من سجف العيب الى هذا اليوم ويستعد له ، اذ عنى بتدريبهما من صغرهما على ركوب الخيل وحمل السلاح وسائر أعمال الفروسية وتربيتهما تربية

خشنة تعدهما لتحمل المشاق ، وركوب الأخطار ، والتغلب على المصاعب .

وطالما سمعنا منه أو من الشيخ سلامة الهندى أخبار جدهما خوارزم شاه ووقائعه مع التتار ، وحروب جلال الدين معهم من بعده ، فكانا يطربان لذلك ويتحمسان ، وكثيرا ماكان جلال الدين يصف لمحمود شجاعة والده الأمير ممدود وحسن بلائه فى قتالهم ، وغرامه بمبارزة قوادهم وأمرائهم ، الى أن يقص عليه أخبار وقعة هراة التى أصيب فيها ، فمات من جراحه شهيدا فى سبيل الله بعد أن نكل بالأعداء تنكيلا ، ومزقهم شر ممزق ، فيمتلىء محمود بالحماسة ، ويود لو شهد تلك الوقائع فكانت له فى قتال التتار مواقف مشهودة .

وكان محمود يشعر فى قرارة نفسه بأنه سيقاتل التتار يوما ما ، اذا بلغ مبلغ الرجال ، فيثأر منهم لأبيه ، وينتقم منهم لما أصاب جده وخاله ووالدته وجدته وسائر أهله ، وقد سيطر عليه هذا الشعور ، وملك عليه جميع مذاهبه ، فكان شغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، ولا يفتأ يفكر فيه نهارا ويحلم به ليلا . وانه ليطغى عليه أحيانا فيقع منه فى كرب عظيم ، فلا يجد أداة يعبر عنهاعن حبيس رغبته وينفس بها عن كربه ، الا أن ينطلق فى عالم الخيال حيث يصور له الوهم معارك تدور بينه وبين التتار ، ينتصر فيها عليهم ويشتت جموعهم ويجندل أبطالهم ويفرق صفوفهم ، وينهزمون فيجد فى طلبهم ويتعقب آثارهم حتى يشردهم الى أقاصى البلاد ويعود الى المدينة ظافرا ، تقام له الزينات ، وتضرب له الطبول ، وتنثر عليه الأزهار والرياحين .

وكانت جهاد تشاطره هذا الشعور ، وتشجعه على حروبه هذه ومعاركه ، وترى فيها تحقيقا لأمانيها فى بطلها العظيم ، وتنفيسا لما يحتدم فى صدرها من كراهية التتار وحب الانتقام منهم ، فكان لايلذ لها شىء مايلذ لها الاصغاء الى حديثه حين يقص عليها مادار بينه وبينهم من المعارك الهائلة ، وماأظهر فيها من آيات البطولة والاقدام .



حتى جلال الدين نفســه كان يشجع محمودا فى أعماله الحربية ، ويجاريه فى تصوراته ، ويصغى لأحاديث بطولته ، ويثنى عليه فيها ، ويتلطف فى اسداء النصائح اليه خلالها . وقد أمر رجاله وحجاب قصره وخدمه بأن يجاروه فى أحلامه ، ويصدقوه فى مزاعمه .

فما سمع محمود وجهاد بعزم جلال الدين على المسير لقتال التتار واســترداد بلاده حتى أظهرا له من الفرح والاستبشار بذلك ماجعله يعجب من نفسه : كيف فكر فى تركهما بالهند ، وعدم استصحابهما معه فى رحيله . اذن لشق عليهما ذلك ، وآذاهما أبلغ الأذى . وربمـا أعجزه أن يحملهما عليه الا أن يرهقهما أو يحملهما مالا طاقة لهما به .

سار جلال الدين من الهند ومعه خواص رجاله ، فقطعـوا المفازة على خيولهم ، وعبروا نهر السـند فى مراكب عظيمة قد أعدها جـلال الدين لذلك من قبل ، حملتهم وحملت خيولهم وعتادهم . وتبعته فرق جيشه فرقة بعد فرقة حتى التقواجميعا عند ممر خيبر ، فساروا حثيثا حتى اذا اقتربوا من كابل،بعث جلال الدين رسلا الى اشياعه يخبرونهم بمجيئه ، ففرحـوا بذلكواشاعوه فىالمدينة ،فوثباهلها علىحاكمهم واشياعهفقتلوهم ودخل جلال الدين المدينة فملكها بدون قتال كبير .

وشاع هذا الخبر فى سائر المدن والعواصم ، فاستعد دعاة التتار وأعوانهم ، وأجمعوا علـى ملاقاته ومقاومته ، وبعثوا الى جنكيز خان يستنجدونه ، فعاجلهم جلال الدين قبل أن تأتيهم امدادات التتار ، فمضى يفتح المدينـة بعد المدينة بغير عناء يذكر ، لأن أهلها كانوا يثورون على حكامهم حين يقف جلال الدين على أبوابها ، ويسـاعدونه عليهم ، فيلوذ هؤلاء الخونة بالفرار الى جنكيزخان ، حتى وصل جلال الدين الى كرمان ، ثم سار الى الأهواز فاسـتولى عليها ، ثم أذربيجان فملكها . ودانت له سائر بلاد ايران .

وكان محمود وجهاد يسيران حيث سار جلال الدين لايفارقانه فى تنقلاته كلها ، وكان يقوم بخدمتهما الشيخ سلامة الهندى وسيرون السائس . وماكان أشد فرح محمود وهو ينتقل فى

ركاب خاله من مدينة الى مدينة ، فتفتح لهما أبوابها ، وتدق لهما الطبول ، وتصطف الجماهير لمشاهدتهما وتحيتهما ، وتتعالى أصواتهم بالهتاف للسـلطان وولى عهده . ولكنه مع ذلك كان يشتهى أن يرى وجوه التتـار ، وكثيرا ماسأل خاله : « أين أعداؤنا التتار ؟ متى يخرجون الينـا فنقاتلهم ؟ » فيبتسم السلطان جلال الدين ويجيبه : « لاتستعجل الشر يابنى انهم آتون الينا قريبا ، فناصرنا الله عليهم ان شاء الله » .

عادت المياه الى مجاريها ، وخطب للسلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه ولولى عهـده محمود بن ممدود على منابر البلاد جميعها . وكان أول مااهتم به جلال الدين بعد أن استتبت له الأمور فيها أن يحيى ذكرى والده العظيم ، فسار فى موكب كبير لزيارته فى الجزيرة التى دفن بهـا ، فبكى عند قبره وترحم عليه ، ثم أمر بنقل رفاته ، فدفنه بقلعة « أزدهن » فى مشهد حافل حضره العلمـاء والكبراء والأعيان من جميع الأصقاع . وبنى عليه قبـة عظيمة أنفق على بنائها وزخرفتها أموالا كبيرة ، وجلب لها أمهر البنائين والصناع .

وماتم له ذلك حتى بلغه أن جنكيزخان قد أرسل جيوشـا عظيمة لقتاله بقيـادة أحد أبنائه ، فتجهز للقائهم ، وسـار بأربعين ألفا يتقدمهم جيشه الخاص الذى أتى به من الهند وسماه جيش الخـلاص ، وكان قد بقى منه زهاء ثلاثة آلاف ، فلقى جموع التتار فى سهـل مرو ، ودارت بين الفريقين معركة من أهول المعارك ، ثبت فيها جيش الخـلاص حتى باد معظمه ، واضطربت صفوف المسلمين ، ويئس جلال الدين من الانتصار ، فصمم على أن يستشهد فى المعركة ، فالتفت الى محمود ، وكان واقفا على جواده خلفه ، وهو يتقد حماسة وغيرة ، فقال له : « ها أنت قد رأيت التتار يامحمود ، وانى سأقاتلهم بنفسى ، فاثبت خلفى ، ولا تدع أحدا يأسرك » . فتهلل وجه محمود ، وعد ذلك فخرا عظيما أن يثق خاله به . وعجب السلطان من رباطة جاش الغـلام وتهلله للموت . وتقدم يحرض رجاله ويجمع صفوفهم ، ويقاتل بنفسه ، والأمير الصغير وراءه على

جواده والسيف فى يمينه • فلما رأى المسلمون ذلك دبت فيهم الحمية ، فقاتلوا دون السلطان قتالا عنيفا • وبينما هم كذلك يقاتلون مستميتين والسلطان فى مقدمتهم والتتار ظاهرون عليهم ، اذ بصفوف التتار قد اضطربت ، واذا بأصوات تسمع من خلفهم «الله أكبر ! الله أكبر ! نحن جنود الله ! أيها المسلمون! قاتلوا المشركين ! »

فعجب المسلمون من أمرهم ، وظن بعضهم أن هؤلاء ملائكة بعثهم الله لتاييد المسلمين ، فحملوا على التتار حملة صادقة ، وهم يصيحون : « الله أكبر ! » وماهى الا لحظة حتى انهزم التتار ، ولكنهم لم يجدوا مهربا اذ تلقاهم المسلمون المقاتلون من أهل بخارى وسمرقند ، وكانوا خرجوا من بلادهم عقب مسير التتار ، فكبسوهم من خلفهم على غرة منهم ، فأعمل الفريقان من المسلمين سيوفهم فيهم ، حتى أبادوهم على بكرة أبيهم ، وتصافح الفريقان من المسلمين على السهل الذى امتلأ بجثث التتار •

وفرح السلطان جلال الدين بجيش بخارى وسمرقند وأثنى عليهم ، وكان مماقاله لهم : « انكم جنود الله حقا • وماأنتم الا ملائكة بعثهم الى من السماء لتأييد المسلمين • واننا مدينون لكم بحياتنا وانتصارنا » • وأكرمهم وخلع عليهم ، وعرض عليهم الانضمام الى جيشه فقبلوا شاكرين •

وأمر بالأسرى فقتلوا جميعا ، وكان فيهم قائدهم ابن جنكيزخان فأمر به فأحضر لديه ليقتله بنفسه • ولكنّ محمودا تقدم اليه قائلا : « ياخالى انك لاتقتل الا جنكيزخان نفسه • أما ابنه هذا فدعه لسيفى فانه غير أهل لسيفك » •

فضحك جلال الدين ، وضحك من معه وقال له : « صدقت يامحمود ، عليك به فاقتله على أن لاتزيد على ثلاث ضربات » فتقدم محمود حتى دنا من الأمير التترى ، وكان قدشد بقيوده الى الأرض ، فهز سيفه هزتين فى الهواء . ثم ضرب به عنق الأسير ضربة أطارت رأسه • فكبر الحاضرون فرحين بقوة الأمير الصغير • والتفت محمود الى خاله قائلا : « لم أزد على

ضربة ! » فقام له جلال الدين ، وعانقه قائلا : « بارك الله فيك يابطل ! »

بلغ جنكيز خان نبأ هذه الكسرة الشنيعة ومقتل ابنه ، فغضب أشد الغضب ، وتوعد بالمسير بنفسه لقتال جلال الدين، وان لايرجع حتى يقتله ويقتل ولى عهده ويذبح المسلمين رجالهم ونساءهم وأطفالهم ذبح الخراف • ولكنه لم يزل مشغولا اذ ذاك بحروب طويلة فى بلاده مع قبائل الترك ، اكرهته على أن يؤجل انتقامه من جلال الدين الى حين •

وكان جلال الدين يعلم حق العلم أن جنكيزخان آت بجموعه يوما ما للانتقام منه ، وأن انتقامه سيكون عظيما مهولا ، وأن عليه أن لايطمئن الى الانتصار الذى أحرزه فى سهل مرو ، وأن يستعد لذلك اليوم العبوس ، على أنه عرف من عيونه ومراسليه فيما وراء النهر أن جنكيزخان لن يستطيع أن يفرغ له من حروبه القبلية الداخلية ويسير اليه قبل ستة أشهر على الأقل •

فرأى أن لايضيع هذه المدة فى غير عمل يزيد فى قوته حتى يضمن لنفسه القدرة على الوقوف فى وجه جنكيزخان اذا ماأقبل بقضه وقضيضه اليه •

ونظر الى بلاده فوجدها منهوكة القوى ، قد عمها الخراب التام ، وعضها الفقر المدقع ، وفشا فيها القحط ، ونضبت فيها الموارد ، وكسدت فيها الأسواق من عظم مامنيت به من غارات التتار ، ونهبهم وسلبهم ، وتقتيلهم وترويعهم • وتخريبهم وتدميرهم،وطغيانهم وفسادهم ، ومن طول مارزحت تحت كلاكل الحكام الخونة الظالمين من أعوانهم • فأيقن انها لن تستطيع أن تمده بما يحتاج اليه من المال والعتاد والخيل والسلاح وغيرها من أسباب القوة ، ليصد بها جموع التتار ، ويقف بها فى وجه خصمه الجبار •

ظل اياما يفكر فى وسيلة يسد بها خلته ، ويقوى بهاضعفه، وبعد السبح الطويل فى مهامه الفكر ، انتهى به المطاف الى ماكان فكر فيه وحاوله والده العظيم خوارزم شاه قبله من

الاستنجاد بدار الخلافة ، وملوك المسلمين وأمرائهم فى الشام ومصر ، فلديهم من الغنى الفاحش ، وفى بلادهم من موارد الثروة الواسعة مايكفل له القدرة على مواجهة عدو المسلمين جميعا اذا امدوه بنزر مما يملكون ، لايرزأهم شيئا ٠

ولم ينس جلال الدين أن أباه أخفق فى مسعاه ، وأن أحدا من أولئك الموك والامراء لم ينجده بشىء ٠ ولم يصغ لنداءاته واستغاثاته ، واكتفى بعضهم بالاعتذار الجميل ، وضن بعضهم حتى بهذا الرد الجميل ٠ ولكنه لم يشأ أن يستعجل ردهم ، ويوصد دونه هذا الباب الوحيد للخروج من مأزقه الحرج ، وحلا له أن ينتحل المعاذير ، فيما خيبوا من أمل أبيه فيهم ، واصموا آذانهم عن سماع ندائه ، بما كان يروع تلك البلاد فى ذلك العهد من حملات الصليبيين ومايسودها من الاضطرابات الداخلية ٠

وكان يشعر فى قرارة نفسه بأنهم لن ينجدوه ، ويعلم انه انما يغالط نفسه ، اذ يرجو منهم أن ينيلوه مالم ينيلوا أباه ، ولكن ماالحيلة وليس أمامه الا هذا السبيل ؟

كتب جلال الدين رسائل الى الخليفة ببغداد ، والى الملوك والأمراء ، بين لهم فيها خطر التتار على بلاد الاسلام جميعها ، ووصف ما ارتكبوه فى أهل بلاده من الفظائع والعظائم ٠ودعاهم الى نجدته وتأييده فى جهاده لهم ، ووقوفه سدا بينهم وبين سائر بلاد المسلمين ، وبعث بها رسلا اليهم ، فباء الرسل اليه بالخيبة ، ولم يكن حظه من أولئك الملوك بأحسن من حظ أبيه ، فغضب جلال الدين منهم ، وضاق صدرا باعراضهم ، فعزم على قتالهم قبل قتال التتار نكاية بهم ، وتأديبا لهم ، وطمعا فى الاستيلاء على مافى أيديهم ، والحصول على خيرات بلادهم ، ليستعين بها فى جهاد التتار ٠ وقد رأى أن يبدأ بالملك الأشرف لأنه أغلظ له فى الرد ، وكان من جوابه له أنه ليس من الغفلة والجهل بحيث يساعد جلال الدين على عدوه ، ليخلو له الجو بعد ذلك فيغير على بلاده ، فلا فرق عنده بينه وبين التتار المتوحشين ٠ فكاد جلال الدين يتميز من الغيظ وأقسم ليغزون

بلاد الأشرف ، وليفعلن بها الأفاعيل حتى يصدق بذلك قوله أن لافرق بينه وبين التتار المتوحشين ٠

فتوجه جلال الدين بعسكره الى خلاط ، فهجم عليها ، وقتل أهلها ونهب أموالها ، وخرب قراهم ، وأغار على حران والرها وما يليها ، فاستباحها واستاق منها اموالا عظيمة ٠ وظفر بغنائم كبيرة سيرها الى بلاده ، بعد ان زلزل تلك البلاد وروعها ونهبها وفعل بها فعل التتار ٠

وكان فى نيته أن يواصل غزوه على هذا النحو حتى يعصف ببلاد الشام كلها ويخلص الى مصر ، لولا أن جاءته كتب من بلاده تنبئه بمسير جنكيزخان ، فطار اليها على عجل ليفرغ لخصمه العنيد ٠ وكان الله شاء أن يعاقبه على ماأنزل ببلاد المسلمين من الخسف والدمار ، وارتكب فى أهلها الأبرياء من العظائم ، انسياقا مع هواه الذى أعماه عن رؤية الحق ، وأضله عن سبيل المؤمنين ، فحمله على الايقاع بقوم لم يعتدوا عليه ، ولا ذنب لهم الا أنهم رعية ملك أساء اليه ، فافتقد فى طريقه هذا ثمرتى قلبه وأنسى حياته حين كان يجتاز بلاد الأكراد قافلا الى بلاده ٠ فطلبهما فى كل مكان ،والتمسهما بكل سبيل ، فكأنما ابتلعتهما الأرض ٠ وغاب معهما الموكلان بخدمتهما وحراستهما الشيخ سلامة الهندى ، وسيرون السائس ٠

وأقام السلطان وعسكره فى الموضع الذى افتقد هؤلاء فيه ، حيث بث رجاله فى طلبهم ، والتفتيش عنهم فى جميع تلك النواحى ، فلم يعثروا لهم على أثر ، الا أنهم فى اليوم الثانى وجدوا جثة السائس ملقاة فى منحدر ضيق بين جبلين ،وقد مزقت صدرها الخناجر ، وهشمت رأسها وأطرافها الحجارة ، كأن الأثمة المجرمين ألقوه من سفح أحد الجبلين ، بعد أن أوسعوه بخناجرهم طعنا ٠

فتحقق جلال الدين ان الأميرين اختطفا مع خادميهما ، وان المختطفين قتلوا سيرون لانهم ضاقوا بمقاومته ، وأمر رجاله بالبحث عنهم فيما حول الجبلين ، ودهب معهم بنفسه ، فلم يجدوا لهم أثرا ، ولم يسمعوا عنهم خبرا ٠ فكاد جلال الدين يموت من الغم ، وامتنع عن الطعام ،وعزم أن لايبرح ذلك المكان

حتى يقف على خبرهم .

وكانت البرد تتوالى عليه من نواب بلاده ، يخبرونه بأن جنكيز خان قد قطع بجموعه النهر ، وانقضـوا على بخارى فدمروها ، وانتقموا من أهلها شر انتقام من جراء ذلك الفريق البخارى الباسل الذى هاجم مؤخرة التتار فى معركو مـرو فكان سبب هزيمتهم والقضـاء عليهم ، وانهم دالفـون الى سمرقند ، ففاعلون بها مافعلوا ببخارى .

ولكن جلال الدين كان فى شغل شاغل عنهم من أمر محمود وجهاد ، فكان يعرض أحيانا عن الرد ، وأحيانايعد بقرب السير. واذا نصحه أحد رجاله بوجوب الاسراع بالرحيل ، صب عليه جام غضبه ، وصاح فى وجهه : « ياخائن أتنصحنى ويلك بترك ولدى ؟ اغرب عن عينى قبل أن أفرق بين رأسك وجسدك » .

تغيرت طباع جلال الدين وساء خلقه ، وأصابه مس من جنون الحيرة والقلق حتى صار لايجرؤ أحد من رجاله على الدنو منه والكلام معه الا باحتراس شديد . وألح به الهم فلجأ الى الشراب ، وعكف على الخمر وأدمنها ، وجعل يشرب الكأس تلو الكأس حتى صار لايفيق من سكره .

وكان يصيح ليلا ونهارا : « محمود ! جهاد ! أين ذهبتما ؟ كيف تركتمانى وحدى ؟ خذانى معكما أو عودا الى .. .. أيها اللصوص ، كيف تستطيع قلوبكم أن تقسو على جهاد ومحمود ؟ كيف طوعت لكم أنفسكم خطفهما منى ، أنا الذى لايصبران عن رؤيته ولا يحتملان العيش بدونه ! خبرونا ماذا حملـكم على خطفهما ؟ أتنتقمون لأنفسكم منى ؟ اذن فخذونى مكانهما وخلوا سبيلهما ، فانهما صبيان بريئان . خذوا جلال الدين بن خوارزم شاه ملك الهند وايران وخراسـان وماوراء النهر ، فافعلوا به ماشئتم : اقتلوه أو عذبوه أواصلبوه أو احرقوه ، أو ابعثوا به أسيرا الى جنكيز خان . وان أردتم المال فأعيدوهما الى ، ولكم على عهد الله وميثاقه لأملأن بيوتكم ذهبا وفضة وجواهر . وان شـئتم تخليت لكم عن ملكى وبلادى ، أيها الأعداء ! أيهـا الاصدقاء ! ـ أجل ستكونون أصدقائى اذا أعدتم ولدى الى ـ

رحماكم بى ! أما تعرفون من أنا ! أنا التعس الشقى ! أنا الوحيد الطريد ، ذهب ملك ابى فمات فى الجزيرة غما ، وذبح التتار اخوتى وأعمامى ، وسبوا جـدتى وعماتى ـ نعم جدتى تركان خاتون بنت الملوك وأم الملوك . أما فيكم من شهدها وهى تنثر الذهب والدر على الغنى والفقير ، والبعيد والقريب ، والمقيم والغريب ! أليس فيكم أيها اللصوص ، أيها الأصدقاء ، أيهـا الأعداء ، أيها الكرماء ، أيهـا الأنذال ، من مسه سيب من عطاياها ، أو أصابته حفنـة من ذهبها ، فيعرف لها الخير ، ويحفظ لها الجميل ، ويرق لحفيدها البائس المنكوب ، فيرد اليه ولديه الصغيرين ؟ وأغرقت أمى ـ أمى التى ولدتنى وغذتنى وربتنى ، وأختى شقيقتى ، ابنة أمى وأبى ، وزوجتى أم أولادى وتوءم نفسى ـ اغرقتهن جميعا فى نهر السند وقت الأصيل عند غروب الشمس ! أرأيتم تحت السماء أشقى منى حالا ، وأجدر بالرثاء والرحمة ؟ أين هما ! أين محمود وجهاد ؟ ويل لكم أيها اللصوص ، أيها السفلو الأوغاد ، آجترأتم على اخذ ولدى منى ؟ ثكلتكم أمهاتكم : أتعرفون من أغضبتم وتعرضتم لنقمته وعذابه ؟ اجهلتم من أنا ؟ أنا جلال الدين ملك ملوك الأرض ، خاقان المشرق والمغرب ، مبيـد التتار وقاهر المسـلمين والكفار ، لأستخرجنكم من بطون الثرى وأستنزلنكم من صياصى الجبال ، وأقتحمن عليكم المعاقل والحصون ، وآخذن عليكم مسـالك الارض ، ولتصلن اليكم يدى ولو تعلقتم بالنجوم ! فلأذيقنكم عذابا لم أذقه أحدا من العالمين ، لأقطعـن أيديكم وأرجلكم ، وأسملن عيونكم ، واصطلمن آذانكم وانوفكم ، وأبقرن بطونكم ، وأخرجن أمعاءكم ، وأشدخن رءوسكم ، ثم لأقطعنكم اربا اربا ، وأرمينها للكلاب الجائعة ! ولأبيدن أهلكم وقبائلكم ، وأحرقن مساكنكم وقراكم فلا يبقى منكم على وجهها أثر ، وويل لكم منى وبل ! » .

هكذا أمضى جلال الدين أيامه السود فى مجاهل بلاد الأكراد ، فكان يقضى يومه هائما على وجهه فى بطـون الاودية وشعف

الجبال يبحث عن ولديه الضائعين ، وقد فقد صوابه ، ونهكه السهر والخمر وأمضه الحزن ، فكان يبكى حينا حتى يحسب رائيه أنه لن ينقطع عن البكاء . ويضحك حينا حتى يظن الرائى أنه لن يكف عن الضحك ، فاذا نال الاعياء منه ، ووقع على الارض مغشيا عليه ، حمله رجاله الى سرادقه حتى يرجع الى حاله ، فيعود الى طوافه كما بدأ

واذا أقبل عليه الليل ، أسرف فى شرب الخمر ، وعربد وتكلم كلمات غير مفهومة ، وأتى بحركات غريبة ، حتى اذا أثقل رأسه السكر ، وغلبه الخمار ، انصرع على سريره ، وبات يهذى هذيان المحموم ، فكان الذين يسهرون عليه من رجاله يسمعونه يسأل نفسه ويجيب نفسه ، ويلوم نفسه ويعتذر لها . وسمعوه ذات ليلة يقول : « أيها الرجل البخارى ، أيها المسلم البخارى ، كأنك حاج من حجاج بيت الله الحرام ، ألا تقف عندى لحظة لأتبرك بك »

« انك رجل أحبطت عملك ، فأخاف أن يمسنى عذاب من الرحمن فى اللحظة التى أقف فيها عندك » .

« بل أنا رجل مسكين بائس منكوب ، ذهب ملك أبى فمات فى الجزيرة غما ، وذبح التتار اخوتى وأعمامى ، وسبوا جدتى . . »

« حسبك حسبك ، قد عرفت ماذا تريد أن تقول » .

« انى أراك تبكى أيها الولى الصالح ، فما يبكيك . . أأنت منكوب مثلى ؟ »

« انما أبكى لحالك . . ؟

« تبكى لحالى ! اذن أنت تحبنى . . »

« أجل انى أحبك ياجلال » .

« ياجلال ! هكذا كان والدى رحمه الله يدعونى . دعنى أتأمل فى وجهك . . يظهر لى أن فيك مشابه من والدى خوارزم شاه » .

« أنا خوارزم شاه ياجلال » .

« أنت اذن والدى نفسه . . أبى ! أبى ! » .

« لاتقترب منى . ابق مكانك ! » .

« فيم ياأبتاه ؟ »

« لست أباك » .

« لست أبى ! ألم تقل لى الآن انك خوارزم شاه ؟ » .

« بلى أنا خوارزم شاه ، محمد بن تكش » .

« انت اذن ابى . أتبرأ منى ؟ » .

« انى أبرأ الى الله من عملك ، ولو استطعت ان أبرأ ملك لفعلت . أبعد جهادك التتار المشركين ، رجعت تقاتل المسلمين، وتستحل دماءهم ؟ » .

« انما أردت أن أؤدب الملوك الذين استنجدت بهم لجهاد التتار فخذلونى ، كما استنجدت بهم قبلى فخذلوك » .

« فهل قبضت على أولئك الملوك كما زعمت ، أم عمدت الى الرعايا المؤمنين الآمنين فى بلادهم ، فقتلت رجالهم ، ونهبت أموالهم ، وخربت ديارهم ومزارعهم ؟ وأعظم من ذلك عند الله ، أن سبيت نساءهم ، واسترققت أطفالهم . أفترضى أن يصنع ذلك بنسائك وأطفالك ؟ » .

« أواه ! لقد صنع ذلك بأطفالى .. لقد خطف منى محمود وجهاد .واحزنا على محمود وجهاد ! » .

« جزاء وفاقا ! اذكر كم من أطفال المسلمين فرقت بينه وبين أمه وأبيه ، وكان أعز عليهما من ولدبك عليك » .

« أواه على محمود وجهاد ، ماذا جنيا من ذنب فيحملا عقاب آثامى ؟ » .

« لاتبك عليهما خير لهما أن يفارقاك بعد اذ حدت عن سبيل الله » .

« ولكنى أحبهما ولاصبر لى على بعدهما » .

« لن ينفعهما حبك ، ولن يضرهما بعدك ، ولاتضع وقتك فى البحث عنهما فلن تراهما أبدا » .

« لن أراهما أبدا ! كلا سأراهما .. سأبحث عنهما ، وسأجدهما .. اذهب عني .. لا ، بل عد الى .. أيها البخارى الصالح ، عدلى الى ... أذاهب أنت الى الحج ؟ فادع لى ربك..

أيها البخاري الصالح ، ادع لى عند ربك عساه يغفر آثامى ..
محمود! جهاد ! »

• • • •

مرت الايام على جلال الدين ، ومايزيد حاله الا سوءا حتى يئس رجاله من رجوعه الى صوابه • ونفد صبرهم على شذوذه وجنونه • وكانت الانباء تأتيهم بتقدم جنكيز خان ،واستيلائه على المدينة بعد المدينة ، يقتل فيها ، وينهب ويدمر ، حتى بلغ تبريز ، فعز عليهم أن يبقوا واقفين أمام سلطانهم المرزوء فى عقله ، الميؤوس من حاله ، حتى يطحنهم التتار وهم ينظرون •

فتسللوا من حوله ، ولحقوا باخوانهم المجاهدين ، البخاريين ، والسمرقنديين الذين انفصلوا من قبل عن جلال الدين ، حين رأوه يقاتل بهم اخوانهم المسلمين ، وأمروا عليهم احدهم ،فلقوا طلائع التتار بين تبريز وديار بكر ، فقاتلوهم قتالا شديدا حتى هزموهم ، وقوى أملهم فى النصر بعد ذلك . اذعلموا أن جنكيز خان قد قفل راجعا الى بلاده لعلة شديدة أصابته ، خشى منها أن تودى بحياته فيموت فى غير مسقط رأسه ، وكان قد بلغه ماصار اليه خصمه الكبير من سوء الحال ، فرأى أن القضاء عليه أيسر من أن يقتضى بقاءه فى قيادة الجيش واحتمال العلة فى ديار الغربة ،ولكنه اصدرقبل رحيله أوامر صارمة الىرجاله بان لايقتلوا جلال الدين اذا ظفروا به ،.وأن يجتهدوافىالقبض عليه وحمله حيا اليه ، ليرى رأيه فيه • وينتقم منه بنفسه •

وما لبث التتار ان اقبلوا افواجا يتدفقون تدفق السيل ، فغص بهم الفضاء ، وأيقن المجاهدون ان لا قبل لهم بملاقاتهم، ولكنهم تعاهدوا على الموت فى سبيل الله ، دوقفوا فى وجه العدو ، كانهم البنيان المرصوص ، فلم يستطع ان يتقدم شبرا الا على أشلاء أولئك الابطال المجاهدين •

سال طوفان التتار بعد انكسار هذا السد المنيع ، فطم على تلك البلاد والقرى ولم يبق بينهم وبين الموضع الذى اقامفيه جلال الدين الا بضعة فراسخ ، ما لبثوا أن قطعوها فوت الريح ، وكانوا قد علموا أين يقيم ، وليس كالتتار سرعة

حركة ، ومهارة فى التجسس واستطلاع احوال العدو ، فلهم فى ذلك امور تشبه الخوارق •

وكان قد بقى مع جلال الدين عدد قليل من رجاله ، عزعليهم ان يتخلوا عن سلطانهم العظيم وهو فى حاله تلك، وآثروا أن يحتملوه على علاته ويكونوا معه الى النهاية • وقد ازعجهم تقدم التتار ، فتأهبوا لحماية مولاهم والذب عنه ، ريثما يعدون العدة للفرار به •

بيد أن التتار قد صاروا اذ ذاك اقرب الى جلال الدينورجاله مما ظنوا • فما شعر هؤلاء الا بالطلائع قد كادت تحيط بهم ، فقاموا الى السلطان فوجدوه سكران كدأبه ، فصبوا الماء على رأسه واركبوه الفرس ونجوا به منهم •

وافاق جلال الدين خلال ذلك ، وأدرك ما هو فيه من الخطر ، فانطلق الى آمد • فمنع من دخولها وكبسته رجال من العدو وأحدقوا به دونها حتى لو شاؤا أن يقتلوه لامكنهم ذلك، ولكنهم انما ارادوا القبض عليه ، فدافعهم عن نفسه وقتل جماعة منهم ، وذب عنه بعض خواص رجاله ، وشاغلوا رجال العدو عنه حتى خلص منهم •

وطارده فرسان التتار ، وكان لا يبارى فى ركوب الخيل، ففاتهم حتى دنا من ميافارقين ليحتمى بملكها ، فدخل قرية من قراها • ولكن الفرسان لحقوه بها • فبرحها ودفع جواده فطار به منهم وأصعد الى جبل هناك يسكنه قوم من الاكراد يتخطفون الناس ، فلجأ الى احدهم وقال له : انا السلطان جلال الدين استبقني واخف مكانى عن العدو الذى يطاردنى ، وساجعلك ملكا • فأخذه الكردى الى بيته واوصي امرأته بخدمته

وكان قد لمحه كردى اخر موتور منه فعرفه ، ورآه حين دخل البيت ، فأخذ يتربص خلو البيت من صاحبه • فلما خرج صاحب البيت لقضاء حاجة له جاء الكردى الموتور وبيده حربة فقال : « لم لا تقتلون هذا الخوارزمى ؟ » فقالت امرأة صاحب البيت : « لا سبيل الى ذلك فقد أمن زوجى » •

فقال الكردى : « لا أمان لهذا • انه السلطان وقد قتل أخالى

في خلاط خيرامنه » .

وكان جلال الدين رابط الجاش ولم ينبس ببنت شفة ، وما أتم الكردى كلمته ، حتى هز حربته فسددها بقـــوة الى السلطان ، فحاص عنها فنشبت فى الجدار خلفه . واسرع جلال الدين فاختطفها منه وقال له : « الان سألحقك بأخيك »

فأيقن الكردى انه مقتول فقال له : « ان تقتلنى كما قتلت أخى فقد شفيت نفسى باختطاف ولديك ! » .

كانت هذه الكلمة الصغيرة أشد وقعا على جلال الدين مما لو أصابت الحربة كبده ، فقد زلزلت كيانه ، وافقدته تماسكه وعجب الكردى اذ رأى خصمه واجما ينظر اليه نظرة ذاهلة ، والحربة تضطرب في يده . وكان قد ملكه الخوف وتوقع بين كل لحظة واخرى ان تخترق الحربة حجاب قلبه ، ولم يكد يصدق انه حى بعد لولا ان سمع بأذنيه قول السلطان يسأله بلهجة حزينة : « وماذا صنعت بهما يا هذا ؟ » قال الكردى وقد زال عنه بعض خوفه : « انهما عندى ولن اسلمهما اليك حتى تؤمننى » .

قال جلال الدين وقد تهلل وجهه : « قد امنتك » .

« لا أصدقك حتى ترمى هذه الحربة من يدك » فالقاها جلال الدين على الارض قائلا : « اذهب فأتنى بهما وسوف أكافئك حين اقدر على مكافأتك » .

فقصد الكردى جهة الباب وهو يتوقع ان الحربة ستدق فى ظهره ، حتى اذا أيقن انه بمنجاة من بطش جلال الدين به وقف خارج الباب وصاح : « أيها المخبول نجوت منك ! لقد بعت ولديك لتجار الرقيق من الشام ، فلن يعودا اليك ابدا » .

وهم الكردى بالهرب لولا أن رأى السلطان يتمايل كالذى يدار به حتى سقط على جنبه وهو يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله ! لقد بيع محمود وجهاد بيع الرقيق ! » .

فكر الكردى راجعا والتقط الحربة فطعن بها جنب جـــلال

الدين ، فنشبت بين ضلوعه ، ولم يحاول جـــلال الدين أن يدفع الكردى عن نفسه ، بل استسلم له قائلا : « هنيئا لك يا كردى ، لقد ظفرت برجل اعجز جنكيز خان ! اجهز على وأرحنى من الحياة فلا خير فيها بعد محمود وجهاد » .

وأراد الكردى نزع الحربة الناشبة بين الضلوع فلم يستطع حتى ساعده جلال الدين على ذلك وهو يقول : « عجل بموتى حنانيك ! » .

وسدد الكردى الحربة الى صدر جلال الدين فدقها فيـــه حتى نفذ سنانها الى الارض وهو يقول : « هأنذا أرحتك من الحياة » .

وجحظت مقلتا جلال الدين ، ورنا الى جهة الباب كانه يرى شبحا قدامه حتى فاضت روحه كذلك وهو يقول : « أيهـــا البخارى الصالح ! أيها الحاج البخارى ، ادع لى عند ربك ، عساه يغفر ذنوبى ويكفر آثامى ! » .



الفصل الخامس



مات جلال الدين ولم يعلم عن محمود وجهاد الا انهما اختطفا فبيعا لاحد تجار الرقيق بالشام ، أما كيف اختطفا ، وماذا لقيا بعد ذلك ، فبقى سرا مكتوما عنه الى الابد ، وتفصيل ذلك ان السلطان جلال الدين كان شديد الولع بالصيد لا يتركه فى اقامته ولا سفره • وقد بلغ به حب الصيد أن ربما كان يسنح له سرب من الظباء او حمر الوحش فى طريقه وهو سائر الى غزوة او قتال فينفتل عن جيشه ويطرد فى أثر السرب ولا يعود حتى يصيب شيئا منه فيأمر رجاله بحمله • وطالما نصحه خاصة رجاله فى ذلك وحذروه مما قد ينتج عنه من الخطر على نفسه أو على جيشه ، فكان يسلم لهم بصواب رأيهم ويعدهم بأن لا يقع ذلك منه مرة اخرى ، ولكنه لا يلبث ان يرى صيدا فينطلق فى أثره • ويقول لهم فى ذلك انه أمر لا يقدر على دفعه وقد سرى هذا الغرام بالصيد منه الى ابن اخته من طول ما صحبه الغلام حين كان يخرج لذلك فى بلاد الهند • وكثيرا ما خرج محمود مع سيرون سائسه لاصطياد الارنب البرى خاصة

ولما انتهى جلال الدين من الاغارة على بلاد الملك الاشرف ، وقصد بلاده مسرعا للقاء جنكيز خان ، لم يشغله ذلك عن الانفتال عن عسكره ، والجرى وراء غزال لاح له فى أول الطريق فحبسهم ساعة ينتظرونه حتى رجع •

وكان جماعة من أهل خلاط قد امضهم ما فعل جلال الدين بأهلهم وأطفالهم واموالهم • فتعاهدوا على اغتياله ولو كلفهم

ذلك ارواحهم • ولما علموا بسفره تبعوه وساروا وراء عسكره يتربصون فرصة انفراده عنهم او غفلة حرسه عنه فيهجمون عليه ولما اعياهم ذلك ويئسوا من الظفر به ، عقدوا العزم على اختطاف ولديه • وكانوا قد لحظوهما يسيران على جواديهما ولا يستقران فى ناحية واحدة ، بل يتنقلان فى اكناف الجيش ، فحينا مع السلطان فى المقدمة يتحدثان اليه ،وحينا فى الساقة يستعرضان الجيش او يتندران على بعض رجاله • وكثيرا ما تخلفا عنه حتى اذا ابتعد عنهما قليلا دفعا جواديهما ولحقا به يستبقان ايهما يسبق الاخر • وكان محمود اقدر على السبق من صاحبته ، ولكنه كان لا يضن عليها بنيل هذه الامنية احيانا ، فيتعمد ان تكون لها الغلبة تدليلا وتطييبا لخاطرها ، وكان يرافقهما فى كل ذلك ويحرسهما الشيخ سلامة الهندى وسيرون السائس فما يفارقانهما اينما سارا • وهذا ما جعل جلال الدين مطمئن النفس من قبلهما لا يخاف عليهما سوءا •

وبينما كانا يسيران فى مؤخرة الجيش اذ بصرا عن يمينهما بأرنب برى منطلق بين الحشائش فى اسفل الجبل ، فساق محمود فى طلبه ، وانطلقت جهاد وراءه ، وجد معهما الحارسان ليرداهما عن ذلك حتى غابوا جميعا فى منعطف الجبل • ولم يكترث لهم احد من الجيش اتكالا على وجود الحارسين مع الاميرين ، ولم يخامر أحدا منهم شك فى أن هؤلاء سيعودون ويلحقون بهم ، وقد صار مألوفا عندهم أن يتخلف الاميران عنهم قليلا فلا يلبثا ان يعدوا وراءهم حتى يفوتاهم •

أما ما فات الجيش كله علمه ، فهو ان سبعة من الاكراد الموتورين كانوا يسيرون وراءه غير بعيد منه ، متوارين خلف الاشجار او خلف التلال يتطلعون اليه يقظين حذرين بحيث يرونه من حيث لا يراهم ، قد لمحوا محمودا يطرد وراء الارنب ناحية الجبل وخلفه جهاد والحارسان ، فداروا من خلف الجبل وطلعوا عليهم من ثنيته فجأة ، فأحاطوا بهم ، وتلقف احدهم محمودا فأنزله من جواده وكم فاه ، وقبض ثان على جهاد وصنع بها ما صنع رفيقه بمحمود ، وهدد الآخرون الشيخ سلامة

وسيرون بقتلهما وقتل الاميرين معهما اذا صاح احدهما بكلمة، او أبديا اية حركة للفرار . فهم سيرون بالاستغاثة ، ولكن الشيخ سلامة اشار له أن يلزم الصمت وان يطيع القوم ، فاستسلما لهم خوفا على حياة الاميرين وطمعا فى ان يلحق بهم جماعة من الجيش للبحث عنهم اذا استبطأوا عودهم .

ولكن هذا لم يغب عن الاشقياء ، فجعلوا وكدهم الفرار بهم من ذلك الموضع بأسرع ما يمكنهم . فاردف اثنان منهم الصبيين وسبقاهم الى الثنية ، وتبعهما الاخرون يسوقون الحارسين بسيوفهم ، حتى اذا بلغوا السفح الاخر من الجبل بدت من قبل سيرون محاولة للهرب ، فما امهله احدهم ان طعنه برمحه فى كبده حتى اثبته ، فأخذوه فرموا به فى منحدر ضيق عن يمين الجبل . واخذوا بعنان جواده ومضوا فى منعطفات الجبال. وسلكوا الاودية الضيقة . وما زالوا كذلك حتى رقوا بهم الجبل الذى لاذ به جلال الدين بعد ذلك ، حين طارده التتار ، فلقى فيه حتفه على يد ذلك الكردى الموتور .

وكان يسكن هذا الجبل قوم من الاكراد شطار يقطعون الطرق على القوافل فينهبونها ، وعلى المسافرين فيقتلونهم ويخطفون أطفالهم ونساءهم فيبيعونهم لعملائهم من تجار الرقيق الذين كانوا يرتادون هذا الجبل لهذا الغرض الممقوت ، فيحملهم هؤلاء الى اسواق العراق ومصر والشام .

لم يقم محمود وجهاد بجبل الشطار الا بضعة ايام ، حتى جاء احد تجار الرقيق الى الجبل ، فعرضوهما عليه بعد ان غيروا اسميهما العربيين باسمين أعجميين فاشتراهما منهم بمائة دينار . اما الشيخ سلامة فانه لما عرض على التاجر أبى أن يشتريه ، وقال : « ما أصنع بهذا الشيخ الفانى ؟ » فاستاء الشيخ من ذلك ، فقد كان يود ان يصحب الاميرين لعلهما يستأنسان به ، أو يحتاجان الى خدمته ، ولو بعض حين ، ريثما يوطنان انفسهما لهذا الاسلوب الجديد من الحياة الشاقة التى تختلف عن حياتهما السابقة كل الاختلاف ، ولما يئس من مرافقتهما لان التاجر أبى شراءه حزن لذلك اشد الحزن الا انه

تعلل بانه مهما يرافقهما فلا بد ان يفترق عنهما يوما ما فى سوق النخاسة . فسلم امرهما الى الله .

وأراد أن يزودهما بنصيحة تنفعهما فى حياتهما الجديدة ، فتوسل الى البائعين ليأذنوا له ان ينفرد بهما ، كى يودعهما، ويسدى اليهما نصائح تنفعهما ، فأذنوا له بذلك . وكان مما يسر له موافقتهم ان محمودا كان لا يكف عن التبرم والشكوى ولا يفتأ يلعن خاطفيه ويسبهم ويعلن انه ابن اخت السلطان جلال الدين ، وان جهادا ابنته ، وان من باعهما او اشتراهما فهو متعرض لنقمة السلطان وسطوته . وكان يضرب بيده او يركل برجله اى واحد من هؤلاء يقترب منه . فيعاقبونه بالضرب الموجع ليمتنع عن ذلك فلا يمتنع ، وان جهادا كانت تواصل البكاء لا يرقأ لها دمع ، ولا يسوغ لها طعام ، حتى نحل جسمها واصفر وجهها ، وخشى عليها من جراء ذلك . فقال لهم الشيخ : انه لو خلا بهما فتلطف فى نصحهما لربما استطاع ان يفثأ لوعتهما ، ويهدىء ثورتهما ، ويصرفهما عما هما فيه من البكاء وعدم الانقياد ، فكان فى ذلك مصلحتهما ومصلحتهم ومصلحة التاجر وكان يقول لهم ذلك بغاية الحكمة والرزانة فاستنصحوه واستصوبوا رأيه ، وقبلوا طلبه .

ولما خلا بهما قال لهما بصوت يفيض رقة وحنانا ، ويتنازعه الحزن والتجلد : « يا أميرى الحبيبين قد رأيتما ما نحن فيه من البلاء والمكروه ، وان علينا ان نلقاه بالصبر حتى يأتينا الفرج من الله ، وانه لقريب ان شاء الله . انكما حديثا السن ، طريا العود ، ولكن الله قد رزقكما من الذكاء والفطنة ما تفوقان به على كثير ممن هو اكبر منكما سنا . انتما من اولاد الملوك ، فجدير بكما ان تصبرا صبر الملوك . ان الجزع لا يفيدكما شيئا بل يزيد بلاءكما وشقاءكما ، وربما يسلمكما الى مرض يودى بحياتكما ، فيشق ذلك على مولاى السلطان جلال الدين حين يطلبكما بعد أن ينتهى من قتال التتار فلا يجدكما . يا ولدى العزيزين ان هؤلاء اللصوص اختطفوكما ، فباعوكما لهذا التاجر ، وان من مصلحته ان تكونا معه بخير حتى يبيعكما بثمن

يرضيه . فاسمعا له وأطيعاه ليحسن معاملتكما ، ولا يتعرض
لكما بأذى أو اهانة . وانه يعرف قدركما ولا يجهل قيمتكما ،
وسيطلب بكما ثمنا كبيرا فلا يتصدى لشرائكما الا السراة
والامراء ومن فوقهم من الملوك والخلفاء حيث تعيشان فى قصورهم
عيشة صالحة ، حتى تنقضى هذه المحنة القصيرة ان شاء الله
ان مولاى السلطان جلال الدين سينتصر على التتار باذن الله ،
وساكتب اليه بأمركما فسيبعث فى طلبكما من اطراف الارض،
وسترجعان اليه فيفرح بكما وتفرحان به . ولكى يسهل
عليه الاهتداء اليكما ، عليكما ان تصغيا لما اقول ، اياكما أن
تقولا لاحد انكما من اولاد جلال الدين ، اكتما هذه الحقيقة
عن كل احد لان هذه الحقيقة قد تسبب لكما متاعب انتم فى
غنى عنها ، وقد تحول دون سهولة الاهتداء اليكما حين يسعى
فى طلبكما مولاى السلطان ، اذ قد يضن بكما من تكونان فى
حيازته ، فيبالغ فى اخفائكما ، ويحول بينكما وبين وسائل
الاعلان عن مقركما ، اما بالكتابة الى مولاى السلطان او الاتصال
بأحد معارفه او رسله . اما اذا بقى هذا السر مكتوما حتى تحين
ساعة الطلب ، فسيكون يسيرا عليكما ان تهدياه الى مقركما،
حيث يأخذكما اليه . والحمد لله قد كفانا هؤلاء اللصوص
مؤنة تغيير اسميكما ، فليعتمد كلاكما اسمه الجديد ، ولايجد
فى ذلك حرجا فانه اسم مؤقت ينتهى اجله حين تنقشع هذه
الغمامة ، ويومئذ يموت المملوك قطز ، وتموت المملوكة جلنار،
ويعود الامير محمود بن ممدود والاميرة جهاد بنت السلطان
جلال الدين الى القصر الملكى بغزنة ، حيث يرثان ملك آل خوارزم
شاه ، بعد عمر مديد لمولاى السلطان . أما تذكر نبوءة المنجم
يا أميرى محمود اذ بشر بأنك ستكون ملكا كبيرا ، وتهزم
التتار هزيمة كبرى ؟ » وسكت الشيخ هنيهة كأنه ينتظر
تصديق الامير له .

فقال محمود : « بلى . انى لاذكرها ، ولكنى اصبحت لا أومن
بصدقها اليوم » .

قال الشيخ : « لا تقل هذا يامولاى فانك ستكون ملكا ،

وتهزم التتار ومولاى السلطان لا يشك فى هذا البتة » .

قال محمود : « هيهات ان يكون المملوك ملكا ، انى لا اريد
الملك وحسبى ان اعود انا وجهاد الى خالى ، واقاتل التتار
معه » .

فقال الشيخ : « اذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام
كيف بيع بدراهم معدودة لعزيز مصر ، فما لبث ان صار ملكا
على مصر ، وهكذا تحدثنى نفسى انك ستكون كيوسف ، غير
أن يوسف كان من بيت النبوة وانت من بيت الملك ، ياليتنى
أعيش حتى أراكما تملكان البلاد ، ولكنى شيخ كبير لا احسب
عمرى يمتد بى الى ذلك العهد السعيد » .

وكانت جهاد تصغى لحديث الشيخ بكل جوارحها وقد كفكفت
دمعها واطمأنت الى صدق ما يقول ، فما قال الشيخ كلمته
هذه حتى قالت له : « كلا انك ستكون معنا دائما ولن تفارقنا»

فقال الشيخ : « يسمع الله منك يا أميرتى الصغيرة ، انى
سأبقى هنا لان التاجر أبى أن يشترينى لكبر سنى ، ولكنى
سألقاكما قريبا ان شاء الله عند مولاى جلال الدين ، فلا افارقكما
حتى الموت ، ولعل بقائى هنا انفع لنا ، اذ اكون قريبا من
بلادنا فاكاتب السلطان بأمركما ، واطمئنه بوجودكما » .

وأحس الشيخ بأن مدة الانفراد بالصبيين قد طالت ،وخشى
من غضب الجماعة عليه ، فأعاد عليهما مجمل حديثه السابق
تثبيتا له فى اذهانهما . واكد عليهما أن لا يبوحا بحقيقة
حالهما لاحد ، وأن يطيعا امر مولاهما ليحسن معاملتهما ، ثم
دنا منهما فضمهما الى صدره وهو يقول : « استودعكما الله
حافظ الودائع » فطفقا يبكيان ويقبلان رأسه . ثم قام بعد
أن هدأهما وجفف دموعهما ، وسار بهما الى مجلس القوم ،
حيث ينتظرهما التاجر ليمضى بهما فقال له : « يا سيدى انى
قد أوصيتهما بطاعتك فلن يخالفا امرك فأوصيك بهما خيرا ،
انهما حديثا السن قليلا التجارب ،فارفق بهما واحسن سياستهما
بارك الله لك فيهما ، وبارك لهما فيك » .

وعجب القوم اذ رأوا الغلام قد لان جانبه ، وانكسرت



شكيمته ، بعد أن كان عصيا عنيدا ، والجارية قد سكن جأشها ، وأطمأن بالها ، فتبعا مولاهما طائعين ، غير متمردين ولا متذمرين غير انهما لما فصل التاجر بهما على بغاله ، غامت عيونهما بالدمع والتفتا الى جهة الشيخ وجعلا يلوحان له بأيديهما حتى اختفيا

واختلف القوم فى أمر الشيخ ماذا يصنعون به ، فمن قائل نطلقه يمضى حيث يشاء ومن قائل نقتله ، ومن قائل نستخدمه وندعه يحتطب لنا ، حتى اتفقوا اخ رالامر على ان يبقوه عندهم حتى يبيعوه لتاجر اخر قد يرغب فى شرائه ٠

وما أوى الشيخ سلامة الى محبسه ، حتى انكب على وجهه ، وجعل يبكى بكاء مرا ، وهاجت شجونه ، فتـذكر ايامه فى خدمة مولاه الكبير ، السلطان خوارزم شاه . وخدمة السلطان جلال الدين من بعده ، وما شهدت عيناه من الاحداث والنكبات التى حلت ببيتهما ، وكان اخرها هذا الذى نزل ببقية ذلك البيت المجيد ، وأفضى بهذين الاميرين الصغيرين الى ذل العبودية وهوان الرق ، حيث يباعان فى أسواق النخاسة ، ويتنقلان فى أيدى المالكين ٠

ومما زاده ألما وملأه حسرة وكمدا ، أنه ـ وهو خادمهما الامين ـ قد استعمل نفوذه عليهما ، وثقتهما به ، واطمئنانهما اليه ، فى حملهما على الرضاء بهذا الهوان ، واستنزالهما عن ايمانهما وعزتهما ، ليخضعا خضوع العبيد لمن اشتراهما بمائة دينار ، وانه استغل سذاجتهما وسلامة نيتهما وقلة بصرهما بالحياة ، فخدعهما عن حقيقة حالهما ، وكنه مصيرهما ، وأوهمهما ضلة وكذبا ان هذه محنة طارئة لا تلبث ان تزول ، وغمة عارضة لا تلبث ان تنقشع ٠

نعم انه اشفق عليهما من اهانة المولى وقسوة المالك ، ولم يرد بهما الا الخير ، اذ نصحهما بالخضوع وحسن الطاعة ، ولكن علام هذا كله ، وفيم هذا الحرص على البقاء وما قيمة الحياة اذا فقد المرء حريته وشرفه ،وصار سلعة تبـاع وتشترى ؟ فكيف بأمير واميرة نشآ فى أكبر بيوت الملك ، وتقلبـا فى أعطاف النعمة والعز ، يراد بهما ان يرضيا بحياة العبد والامة حيث يلقيان صنوف الذل وألوان الامتهان ، ويلقى اليهما أن فى

ذلك خيرهما وسعادتهما لئلا يأتيهما الموت . فيقطع عنهمـا فتات الموائد وفضول الشراب !

انهما ذهبا راضيين لما خلبهما من سحر حديثه ، آملين ان يعودا الى كنف السلطان جلال الدين بعد برهة قصيرة من الزمن فماذا يكون حالهما اذا تبدد منهما هذا الحلم الجميل ، وعرفا الحقيقة المرة : أن لا خلاص من حياة الرق ، ولا فكاك لهما من قيد الاستعباد ؟ وأنكى من ذلك ان هذين الاميرين عاشا اليفين متلازمين منذ الطفولة ، لم يغب احدهما يوما واحدا عن الاخر ، ولا يكاد يصبر ساعة عنه ، وقد ظنا حين ذهبا مع النخاس انهما سيظلان كما كانا رفيقين متلازمين ، ولم يخطر ببالهما قط ان أسواق الرقيق قد تفرق بينهما ، فيقع هذا فى يد رجل من المشرق وتباع هذه لرجل من المغرب ٠ وكانا يشعران من طول تلازمهما انهما شخصان لا يفترقان ابدا ، وانهما سيعيشان معا ويموتان معا ٠ وما دار بخلدهما ان احدا من الناس يمكن أن يفكر فى ابعاد احدهما عن الاخر ، فهذا شىء لاسبيل اليه ٠ وما علما ان تجار الرقيق لا يرعون لمثل هذه الالفة عهدا ، ولا يقيمون لهذه الصحبة الطويلة والامتزاج الاخوى وزنا ٠ وانما يعتبرون المال وحده ، ويميلون مع الربح حيث يميل ٠ فان قدر لهما ان تضمهما يمين مالك واحد ، كان ذلك اتفـاقا غريبا ، وصدفة غير مقصودة ، لا رعاية لهما ولا ابقاء على اجتماع شملهما ٠

جاشت هذه الخواطر كلها بقلب الشيخ المكلوم ، فشـعر بهم عظيم يسد ما بين جوانحه ، ويأخذ بأكظامه ، فمل لحياة وتمنى لو اخترمه الموت فأراحه من همومه وآلامه ٠ وبقى اياما لا يذوق الطعام الذى يقدم اليه حتى وهنت قوته وساء حاله ، وأصابته حمى شديدة بات يهذى منها طوال ليله ، حتى وجدوه فى الصباح جسدا هامدا لا حراك به ٠ فكفنوه فى ثيـابه ، وأهالوا عليه التراب ٠

مات الشيخ سلامة الهندى ، ولم يدر بخلده وهو ينعى نفسه فى ذلك الجبل النازح ، ان مولاه وولى نعمته السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سيلقى حتفه فى ذلك الجبل ، بعد بضعة ايام من وفاته ، ويدفن على مرمى حجر من الرمس الذى يرقد فيه .

الفصل السادس



أما قطز وجلنار ، فقد وصل بهما التاجر الى حلب ، فأنزلهما معه فى بيت بعض معارفه ، وكساهما ثيابا حسنة ، واراحهما ، ولم يكلفهما اى عمل يقومان به ، ولم يحبسهما فى المنزل بل تركهما يجيئان ويذهبان كما شاءا فى ساحة الحى · وكان لطيفا معهما طوال الطريق ، يقدم لهما الطعام ، ويساعدهما فى الركوب والنزول ، ويجاذبهما أطراف الحديث ويداعبهما ، ويسليهما بالقصص والنوادر باللغة الفارسية التى كان يجيدها اجادة حسنة ، حتى مال الصبيان اليه ، وخف عنهما ما كانا يجدان من الوحشة والقلق ، ونظرا اليه كأنه صديق لهما ، لا مالك اشتراهما بالمال · وكان للتاجر مملوك ثالث فى سنهما ، يدعى بيبرس ، قد أحضره اليه أحد وكلائه ، فضمه اليهما ، ولكنه كان يعامله معاملة قاسية ، ويضربه ويحبسه فى المنزل لايبرحه مثلهما : فعجبا فى أول الامر من خلق الرجل كيف يرفق بهما ذلك الرفق ، ثم يقسو هذه القسوة على الغلام ؟ ولكن سرعان ما زال عجبهما حين عرفا بيبرس وتمرده على مولاه ، وسوء خلقه معه ، وميله دائما للاباق منه ، فادركا حينئذ ان مولاهما حكيم فى سياسته ، يعامل كلا بما يليق به من الشدة واللين · على انهما مع ذلك لم يخلوا من الشفقة على هذا الغلام القبجاقى

الاشقر ، ذى العيون الزرق تنم عن الحيلة والمكر ، فكان قطز يحسن اليه على غير علم مولاه ، ويقتطع له شيئا من أدامه وحلواه فيقدمه له ، فيلتهمه الصبى التهاما · فنشأت من جراء ذلك صداقة متينة بينهما ، أما جلنار فكانت على شفقتها عليه تشعر بنفور شديد منه ، وتتقى نظراته الحادة كأنها سهام ماضية لا تقوى على احتمالها عيناها الوديعتان ·

وما هى الا أيام قلائل حتى حل موعد السوق بحلب ، وكان يوم الاربعاء من كل اسبوع ، فتقاطر اليه الناس من سائر مدن الشام وقراه ، ليشهدوا منافع لهم ويبيعوا ويبتاعوا ، وكان يقام فى رحبة واسعة فى طرف من أطراف المدينة تنصب فيها الخيام ، وتضرب فيها السرادقات العظيمة وتقسم أقساما : فقسم للحبوب والغلال ، وقسم للاقمشة والملابس من الصوف والقطن والكتان والحرير ، وقسم للآنية والسرج وسائر أدوات المنازل ، وقسم للادوية والعطور ، والادهنة والمقويات ، وقسم للجوارى والعبيد ، وقسم للخيول والمواشى ، الى اخر ما هناك · وكان كل قسم من هذه الاقسام يسمى سوقا ، فسوق الغلال · وسوق البز · وسوق الرقيق · وسوق الخيل وهلم جرا ·

ولما اصبح يوم الاربعاء أمر التاجر مواليه الثلاثة فاغتسلوا وكساهم ، واصلح شعورهم وطيبهم ، ثم مضى بهم الى السوق الكبير · أما بيبرس فقد امسك التاجر بيده يجره جرا وهو يسبه ويلعنه ، وأما قطز وجلنار فقد اطلقهما ، فسارا فرحين وما يظنان الا انهما ذاهبان لشهود هذا الموسم العظيم ، والتفرج على ما فيه ، حتى بلغ بهم سوق الرقيق فاذا سرادقات عظيمة مملوءة بالجوارى والغلمان من بيض وسود والوان بين ذلك شتى وقد جلسوا على الحصر جماعات متفرقة ، وقام على كل جماعة منهم الدلال الذى عهد اليه ببيعهم ، فيأخذ الدلال أحدهم ويوقفه على دكة منصوبة امامه وينادى عليه بين الذين حضروا للابتياع بكلمات مسجوعة او منظومة فى الاشادة بمحاسن المعروض للترغيب فى شرائه · وهؤلاء السماسرة يفتنون فى ذلك افتنانا

عجيبا ، ويستعين كثير منهم بالشعراء لينظموا لهم مقطوعات فى أوصاف الجوارى والغلمان ونعوتهم المختلفة ، فينادون بها على من يعرضون من الرقيق بحسب ما يقتضيه المقام ، فهذا دلال قد اقام على الدكة غلاما تركيا وسيما وجعل ينادى عليه :

من للغلام الجميل شاربه لا يستقيل
اطوع من بنانه أنفذ من سنانه
اذا حبست الذهب فى عينه ما ذهب

وهذا دلال آخر ينادى على عبد أسود قد أقامه على الدكة ، وجعل يقول :

من للفتى النوبى من ؟
أحلك من ليل الشجن
أسنانه مثل اللبن !
أقوى يدا من الزمن
مدرب على المهن
لا يشتكى من الوهن
على الحريم مؤتمن !
خذوه من غير ثمن !
من لشبيه المسك من ؟

وتلك جارية رومية شقراء قد وقفت على دكتها والدلال ينادى عليها :

من يشترى حسناء من نسل الروم ؟
بائعها بين الأنام محروم !
وخصرها بين الخصور مهضوم !
وريقها مثل الرحيق المختوم .
عيونها مثل السماء الصافية
خدودها مثل الورود الزاهية
شعورها سلاسل من الذهب
تسطع فى الشمس كأنها لهب !

وما ان سلم النخاس مواليه الثلاثة الى احد الدلالين حتى جعل يقلبهم ، ويصعد النظر فيهم ، كأنه يختبر نعوتهم ، ويتبين

سماتهم . ثم كتب اسماءهم فى دفتره ، وتحت كل اسم منها صفته وسنه وأصله ، وأقل قيمة يطلبها صاحبه فيه ثم دفعهم الى الحصير ، فقعدوا عليه بين غيرهم من الرقيق الذى عنده .

أما بيبرس فقعد مطمئنا لا أثر عليه من امتعاض أو اكتئاب وجعل يجيل نظراته الحادة فيمن حوله من الناس ، فاذا رأى عبدا أسود او جارية شوهاء ، او غلاما قبيح الخلقة ، ضحك عليه ، وأشار لقطز اليه غير مكترث بالدلال الذى كان يحدجه بالنظر من حين الى حين ، ويقطب له ليردعه بذلك عن عمله ، فما يجيبه بيبرس بغير اخراج لسانه ، وتحريك حاجبيه .

وأما قطز وجلنار فقد غلبهما الوجوم واصبحا لا يعيان شيئا مما حولهما ، وظنا انفسهما فى منام لافى حقيقة ، لولا انهما تذكرا ما وقع لهما من اختطاف اللصوص ، ثم بيعهم اياهما للنخاس . وما زالا بعد فى ريب من ان يكون التاجر الواقف امامهما بعد ان سلمهما للدلال، هو عين ذلك الرجل الذى أحسن اليهما منذ يومهما ، وأظهر لهما ذلك البرونلك الرعاية . وترقرق الدمع فى مآقيهما فكانا يمسحانه بطرف ردائهما مسارقة ، وما أمسك دمعهما ان ينسكب الا حياؤهما من ان يبدو عليهما الضعف بين من حولهما من الناس ، أو يظهرا أقل جلدا واحتمالا من زميلهما الضاحك العابث .

ومرت ساعات طويلة شهدا كيف تعرض الاماء والعبيد والغلمان ، وينادى عليهم ، ويقلبهم الراغبون فى الشراء ظهرا لبطن ، لا فرق بينهم وبين السلع ، فينفق من ينفق منهم ، فيمضى لسبيله مع من اشتراه ، ويبور من يبور ، فيعاد الى مكانه فى الحصير كاسف البال . حتى جاء دورهما ودور صاحبهما فبدىء ببيبرس ، ونصب على المنصة وهو يلتفت يمينا وشمالا ، وقد جرد من ثيابه الا ما يستر وسطه ، فبدأ يابس الساقين ، بارز الصدر ، مفتول الساعدين ، فنادى المنادى وهو يضرب على صدره وظهره :

من للفتى القبجاقى ؟ ينفع فى الحماق
يدفع عن مولاه كيد الذى عاداه

ستطلع الأيام   ان صح ظني فيه
مغامرا مقدام   يعز من يؤويه
يهزأ بالأهوال   في ساحة النزال
أنكى على الأبطال   من أسد رئبال

فتقدم اليه رجل يظهر من سحنائه وزيه أنه تاجر من مصر، فاشتراه ونقد الدلال ثمنه مائة دينار • وكان مالكه النخاس لا يطمع في أكثر من خمسين دينارا ولكن الدلال لما لحظ تطلع التاجر المصري اليه ، وشدة رغبته فيه ، جعل يرفع قيمته حتى بلغ بها مائة ، فكان له فوق أجرة الدلالة نصف ما زاد من قيمته على ما حدده المالك ، اى خمسة وعشرون دينارا • وقد فرح الدلال بهذه الصفقة فرحا كبيرا جعله يبالغ في ملاطفة التاجر المصري ويقول له :

« خذه اليك ••• بارك الله فيك ، وحافظ على هذا الغلام الخبيث فانه شرس أباق » •

ولم يكن بيبرس يعرف العربية الا قليلا ، ولكنه فهم من حركات الدلال واشارات يده ، ونبرات صوته • معنى الكلام الذي نادى به عليه ، فوقف حين وقف على الدكة مختالا بنفسه ، مدلا بقوته ، ونزل حين نزل منها ومشى الى مولاه المصري مزعوا يكاد يخرق الارض تيها • ولم يمض المصري بعد أن اشترى بيبرس ، بل عاد الى مكانه الاول ولزمه ، ينظر الى الصبيين الوصيفين كأنه يرغب في شرائهما ايضا ، أو يريد أن يرى كم يبلغ ثمنهما •

واخذ الزحام يشتد على حلقة الدلال حينما تهيأ لعرضهما ، وكان في الحاضرين رجل دمشقي جميل الهيئة ، تبدو عليه مخايل النعمة واليسار ، قد وخطه الشيب في رأسه ولحيته ، فزاده وقارا وهيبة • وقد حضر الى سوق الرقيق من الصباح الباكر ، فظل زمنا يطوف على حلقات السماسرة ، يجيل بصره في وجوه الرقيق ، وكلما لمحت عينه صبيا أو صبية ، وقفت عنده تتأمله تأملا دقيقا ، حتى وصل الى حلقة دلالنا حافظ الواسطي ، فما وقع بصره على قطز وجلنار ، حتى خفق قلبه •

وقال في نفسه « هأنذا قد وجدت طلبتي » ووقف برهة يتفرس في الصبيين فما يزداد الا ميلا اليهما ورغبة فيهما ، ثم دار على الحلقات الاخرى كرة أخرى كأنه أراد أن يتثبت لنفسه ويستيقن ان ليس فيه أصلح له منهما وأوفق ، أو انما شاء أن يصرف الانظار عنه، ولا سيما نظر الدلال لئلا يعرف تعلقه بهما فيغليهما عليه ثم عاد الى الحلقة واتخذ لنفسه مقعدا في جانب منها، بحيث يرى الصبيين ، فظل يسارقهما ويسارق الناس النظر اليهما طوال لبثه هناك ، ينتظر أوان عرضهما •

وما لبث قطز وجلنار ان شعرا بمكان هذا الشيخ الجميل الهيئة وتكراره النظر اليهما دون سائر الحاضرين الذين شغلهم التطلع الى المعروضين قبلهما ، والاستماع الى ما ينادي به الدلال الفصيح عليهم ، من طرائف البيان الممتع ، فالهاهم ذلك عنهما ، وهما يمسحان دمعهما الفينة بعد الفينة ، خلسة عن الاعين ، الا عين ذلك الشيخ الذي كان لا يغفل عنهما لحظة ، كأنه مشغول بهما عما الناس فيه • فتضايقا اول الامر من عينه العالقة ، وحسباه رقيبا موكلا باستطلاع ما يحاولان ستره عن العيون من لواعج همهما لما شعرا به من الذل والمهانة في ذلك الموقف البغيض ، ولكنهما ما لبثا اذ رأيا الطيبة الناطقة في وجهه ، والحنان الفائض من عينيه ، أن تبدل شعورهما نحوه ، فصارا يميلان اليه ، وطفقا يبادلانه النظر بحب وطمأنينة ، احس بهما الرجل فشاع السرور في وجهه ، ولولا مراعاة الحاضرين لقام اليهما فاحتضنهما كما يحتضن الاب ولديه يلقاهما بعد غياب طويل • وكذلك كان شعور الصبيين نحوه شبيها بشعوره نحوهما ، اذ احسا كأنه صديق لهما يعرف حقيقة حالهما ، وسر نكبتهما قد جاء لينقذهما مما هما فيه • وما يدريهما أن لا يكون رسولا من قبل ابيهما السلطان جلال الدين ، قد بعث في طلبهما بعد ان فرغ من قتال التتار ، الم يقل ذلك لهما الشيخ سلامة الهندي ؟ ألم يعدهما بانه سيكاتب السلطان بأمرهما من الجبل ؟

كان الصبيان يجيلان هذه الافكار فى رأسيهما فى وقت معا، كأنما يستبقان فى شوط واحد ، ولا بدع فى ذلك من امرهما، لانهما درجا معا ، حتى بلغا من التآلف والامتزاج ان صار احدهما يعرف خبيئة نفس الاخر ، ومكنون صدره ، كأنما يشعران بقلب واحد . ولبثا ينتظران أوان عرضهما بفارغ الصبر ، وهما لا يشكان فى أن صاحبهما سيتقدم لشرائهما ولا يغليهما عنده ثمن . وتشوقا الى معرفة سره اذا ما اشتراهما ومضى بهما من ذلك السوق الذى أندى جبينيهما ، ولقيا فيه الخزى والهوان .

أما الدلال فانه ما كاد يفرغ من أمر بيبرس حتى وجد الناس يتطلعون الى الصبيين ، وما يشكون فى انهما شقيقان لشدة تقاربهما فى الملامح ، واتفاقهما فى الدم ، فوقف امامهما لا يدرى بأيهما يبدأ . وكانت سنته فى ذلك ان يبدأ بالاقل قدرا ، ليحتفظ ببقاء الناس فى حلقته ، متطلعين الى من يفضله من الباقين عنده . وقد حار اى الصبيين يقدم ، لانه لما يجزم أيهما يفضل اخاه ، ولكن قطزا قطع عليه هذا التحير فى التخير، اذ قام فتقدم يعرض نفسه ، فما وسع الدلال الا قبول عرضه فأوقفه على الدكة ووجهه يحمر خجلا ، يكاد ينبجس منه الدم ، ونادى عليه والعيون ثابتة فيه :

من للغلام الوسيم   من النجار الكريم
تبين عن حر أصله   منه مخايل نبله
أمنية المتمنى   وطرفة المتبنى
ذكاؤه فوق سنه   وحسنه دون يمنه
سماحة وشجاعة   وحسن خلق وطاعة
سيده يزهى به   اذا مشى فى ركابه
لولا صروف الليالى   ما بيع هذا بمال !

ولم يكد الدلال يتم نداءه هذا حتى تسابق الراغبون فى شرائه أيهم يفوز به ، فجعلوا يتبارون فى رفع قيمته ، حتى بلغوا بها مائتين وسبعين ، فاتمها الشيخ الدمشقى ثلثمائة فلم يجرؤ أحد على الزيادة ، فسلمه الدلال اليه وهنأه به ، ومضى الغلام الى مولاه الجديد فرحا يحمد الله على أن لم يظفر به سواه ،

ووقف قريبا منه . وما لبث الشيخ أن كلمه كلاما لينا تطييبا لخاطره ، فلم يفهم قطز ما يقول ، ولكنه أدرك أنه يلاطفه بذلك ، فود لو كان يعرف اللسان العربى ليجيبه على حديثه فاكتفى بأن ابتسم له . ولم يمهلهما الدلال طويلا اذ أخذ حينئذ بيد جلنار فأقامها على الدكة ، فتوجه انتباههما وانتباه الناس اليها ، وقد تورد خداها وأخذت ترنو الى قطز والى مولاه الشيخ كأنها تستعطفه أن يحوزها ولا يدع احدا غيره يفوز بها دونه . ولم يخف على الدلال تطلع الحاضرين ، ولا سيما الرجل الدمشقى ، لشرائها ،ولو شاء لاستغنى بعرضها عن المناداة عليها ولكنه لم يشأ أن يخل بعادته هذه ، ولم تطب نفسه بالسكوت عن الاشادة بمحاسن هذه الصبية البارعة الحسن فجعل يقول :

يا قطرة من الندى   يا فلقة من القمر
يا نسمه من الشذى   تنفست وقت السحر
حاملة فى ردنها   أطيب أنفاس الزهر
يا درة من المنى   صيغت وأهواء البشر
تفوق فى بهائها   على اللآلى والدرر
كأنها من حسنها   ونضرة الوجه الأغر
وصيد فى جيدها   بين اباء وخفر
صغرى بنات أبرويز   أو بنات يزدجر !
من باعها بوزنها   من ذهب فقد خسر
يا فوز من يملكها   ولو أضاع ما ادخر

فتنافس الحاضرون فى شرائها ، ولكن الرجل الدمشقى ظل يزايدهم فى الثمن حتى بلغ ثلثمائة دينار . وكان قد عزم على أن يقف عند هذا الحد ولا يزيد عليه . وكاد يتركها لمنافسه الذى زاد عليه عشرة دنانير لولا أن نظر الى قطز فرآه ممتقع الجبين يابس الشفتين ينتفض من القلق ، والدمع فى عينيه يستعطفانه أن لا يبخل بالزيادة لئلا يفرق بينه وبين رفيقته ، فرق له . وغلبته الشفقة فزاد أربعين دينارا دفعة واحدة ليقطع على منافسه السبيل ، فعرف المنافس أن لا فائدة من المزايدة فتركها له . وما كان أشد فرح الغلام اذ أعلن الدلال أنها لمولاه ، وقدمها له فنقده الشيخ ثلثمائة وخمسين دينارا ، ومضى بهما وهما لا يكادان يصدقان من الفرح أنهما قد نجوا من خطر الفراق .

الفصل السابع



اطمأن بالصبيين المقام بدمشق عند سيدهما الجديد الشيخ غانم المقدسى ، ونزلا فى قصره الكبير بدرب القصاعين ، تحيط به حديقة غناء حافلة بالكروم وأشجار التين والتفاح والزيتون،وكان الشيخ غانم المقدسى من أعيان دمشق ووجهائها المعدودين ، له أملاك كبيرة وضياع واسعة ورثها عن آبائه ٠ وكان رجلا طيبا يحب الصدقة ويحضر مجالس العلم ، قد كبر فى السن ولم يسلم له من الولد الا ابن يدعى موسى كان قد أنفق فى تربيته ، وتهذيبه كثيرا من المال ليجعل منهرجلا صالحا يخلد ذكره ويخلفه فى بيته المجيد ٠ ولكن موسى أخلف ظن أبيه فيه ، فنشأ فاسد الخلق ميالا الى الشراب واللهو ومخالطة عشراء السوء من الفتيان الخلعاء الماجنين ٠ وقد حاول أبوه بكل وسيلة أن يصرفه عن ذلك فلم يفلح ، وما زاد موسى الا عتوا ونفورا حتى يئس من صلاحه ، فترك حبله على غاربه واعتبره كأن لم يكن ٠ ولولا مكان والدته وشفاعتها فيه لطرده من بيته وتخلص من معرته ، وقد دفعه يأسه من ولده الى التفكير فى أن يبتاع غلاما وسيما حسن الطاعة عسى أن يتخذهولدا يأنس به ويطمئن اليه ، ويجد عنده من البر والاستقامة ما فقده فى ولده ٠ فجهد زمنا يتتبع أسواق الرقيق ليجد الغلام الذى يطمح اليه حتى وجد ضالته فى قطز

فاشتراه ، ولم يتردد ، لما توسم فيه من الخير والنبل ، وعن له لما رأى جلنار أن يشتريها ليتخذها ابنة تؤنسه وتؤنس زوجته العجوز ٠

وشاء الله ألا تخطىء فراسة الشيخ فى الصبيين فلم تمض عليهما فى حوزته الا أيام قلائل حتى تبين اخلاصهما فى حبه وتعلقهما الشديد به ، فأحبهما وأنزلهما من نفسه منزلا كريما ٠ وبالغ فى رعايتهما والحدب عليهما ، ووكل بهما من ساعدهما على تعلم اللسان العربى ، فكان لهما من ذكائهما ما أسرع بهما الى معرفته واتقانه فى زمن قصير ٠

ووردت الأنباء اذ ذاك بموت الطاغية جنكيز خان فى مسقط رأسه ، وأن قومه التتار الذين كانوا يقاتلون السلطان جلال الدين قد انحسروا الى بلادهم ورجعوا عن غزو بلاد الاسلام لما بلغهم خبر هلاكه،ففرح الناس بذلك فرحا عظيما ، وذهب عنهم ما كان يساورهم من الخوف والهلع ، وحمدوا الله أن كفاهم شر أولئك الغزاة المتوحشين الذين ينزلون الهلاك والدمار والنقمة والعذاب بكل بلد ينزلونه ، وبلغهم كذلك موت السلطان جلال الدين قتيلا فى جبل الأكراد حين لجأ اليه بعد ما انهزم من عدوه ، فمنهم من شمت بموته لما ارتكبه فى بلاد الملك الأشرف من الأفاعيل المنكرة ، ومنهم من حزن عليه لما قام به وقام أبوه من قبله من جهاد التتار وصد جموعهم عن بلاد الاسلام ٠

استفاضت هذه الأخبار فى دمشق حتى صارت حديث الناس فى مجالسهم وأسمارهم ، وتذكروا وقائع جلال الدين وخوارزم شاه مع التتار ، وما حل بهما وببيتهما من النكبات العظام ، حتى انطوى ملكهما وانقطع دابرهما ولم يبق من أهلها من أحد ٠ ولكن أحدا منهم لم يعلم أن ابنة جلال الدين وابن أخته يعيشان بين ظهرانيهم فى قصر من قصور مدينتهم العظيمة وعند رجل من كبار أعيانها ٠ وقد حزن قطز وجلنار لما بلغهما من موت جلال الدين وقد كانا يمنيان نفسيهما بالرجوع اليه ، فانقطع أملهما فى ذلك ، وأيقنا أنهما سيبقيان فى رقهما الى الأبد ، وانما عزاهما فى ذلك وخفف من حزنهما ما كانا يجدان

من بر مولاهما وحسن رعايته لهما واحسانه اليهما ، فجعلهما يسلوان مصابهما وشيكا .

ومرت السنون سراعا ، وتوالت الأحداث تترى ، وانقضت لهما في بيت الشيخ غانم المقدسي عشرة أعوام أو تزيد وترعرعا حتى بلغ قطز مبلغ الرجال وبلغت جلنار مبلغ النساء ، وكانت الانفة التي بينهما تنمومعهما وتترعرع وتنتقل من طورالى طور حتى نضجت حبا وغراما . فشعرا بفيوض من السعادة لم يشعرا بمثلها قط تغمرهما فنسيهما كل ما مر بهما من نعيم الملك ، وما اختلف عليهما بعد ذلك من صروف الايام ونكباتها . وحليت الدنيا في عينيهما فصارت رياضا وأنهارا وورودا وأزهارا وطيوفا من ضياء الشفق البهيج وروحات من نسيم الفجر العليل يتقلبان منها في أيام كلها أصيل وليال كلها سحر !

وكان مولاهما الشيخ وزوجته يعلمان بهذه الصلة البريئة الطاهرة بينهما فشملاها بالعطف والرضى ، وتعهداها بالتنمية ، ووعداهما بتزويج أحدهما من الآخر حينما تتهيأ الفرصة ويخف الشيخ من مرض الشلل الذي ألم به ، لكي يحتفل بعرسهما ، ولما تطاول به المرض أراد أن يحتاط لمستقبلهما فأوصى لهما بجزء من أملاكه ، وبأن يعتقا اذا ما دهمه الموت قبل أن يهيء لهما أمرهما .

على أن الجنة التي يعيش فيها هذان الحبيبان لم تخل من شيطان يكدر صفوها عليهما ، وينفث فيها سمومه نكاية بهما وسعيا في اخراجهما منها ، فهذا موسى الخليع الفاسد قد زادت غيرته من قطز لما انفرد به دونه من ثقة أبيه حتى سلمه مقاليد خزائنه ، وأسند اليه ادارة أمواله وأملاكه . فكان قطز يوزع صدقاته ونفقاته على أقاربه وذويه ، وينفق على حاجات القصر ومن فيه من الخدم والعبيد ، ولا يخرج دينار ولا درهم الا من يده ، فشق ذلك على موسى ،و غاظه أن يتسلم راتبه اليومي من يد مملوك أبيه . ومما زاده حقدا عليه أنه كثيرا ما يحتاج الى المال لينفقه في سبيل غيه وفساده ، فيتوسل الى قطز ليعطيه زيادة على راتبه من غير علم أبيه فيأبى قطز ويقول له : « هذا

مال سيدي ، وانما أنا أمين عليه فلا أفرط فيه ، ولكن استأذن أباك فان أذن لك أعطيتك منه ما تحب .. » فيتوعد قطزا ويتهدده وقطز لا يأبه له .

ولم تسلم جلنار من ايذائه ومضايقته ، اذ كان يغازلها ويتعرض لها بكل سبيل ويسمعها كلمات يندى لها جبينها ويمجها سمعها ، فلما كثر ذلك عليها شكته الى مولاتها ، فعنفته أمه على فعله ، قائلة انها زوجة قطز ولا سبيل له عليها وهددته بقطع نفقته وطرده من المنزل اذا عاد الى مضايقتها ، فزاده ذلك كراهية لقطز وغيرة منه . وكان قطز يعطف على هذا الشاب الفاسد ويرق لحاله ، ويحتمل كثيرا من أذاه ، ولا يشكوه الى أبيه لئلا يؤذيه ذلك ويزيد في مرضه . وكان كثيرا ما ينصحه بالاقلاع عما هو فيه من الشراب والفساد أو الاقلال منهما ، ويعده بالسعي عند والده ليرضى عنه ويزيد في راتبه ، فما يزيده هذا الا بغضا لقطز وتعاليا عليه وتماديا في غيه .

واشتدت العلة بالشيخ غانم ، فقلق عليه جميع من في القصر ، الا أبنه موسى ، فقد فرح بذلك وجهر بأن سيخلو الجو له بموت أبيه،فيتصرف في أمواله وأملاكه كما يشاء،وينتقم من قطز ، فيهينه ويضطهده وينتزع جلنار منه ويكرهها على الخضوع لما يريد . وتمادى في الغي حين أيقن بقرب وفاة أبيه ، فصار يشرب في القصر مع ندمائه ، ويقصف معهم ، حتى ضجت منه والدته ذات ليلة فأمرته بالخروج ، فعصاها وأسمعها كلاما قبيحا ،واشتدت عليه فهم بضربها ، لولا أن جاء قطز فدفعه عنها ، وأقفل الباب عليه وعلى أصحابه وهو سكران لا يعي ما يقول ، فطورا يسب أمه ، وطورا يلعن أباه ، وطورا يلعن قطزا ، وبقي كذلك طول ليله ، حتى صرعته وصرعت أصحابه الخمر .

ومات الشيخ غانم المقدسي بعد حياة سديدة قضاها في البر والتقوى والاحسان الى الفقراء والمساكين ، والانفاق على اليتامى والأرامل ، فبكاه الناس وأسفوا لفقده وترحموا عليه ، واذا ذكروا أبنه موسى عز عليهم أن لا يخلف هذا الرجل الصالح الا ذلك الولد الطالح .

وأما قطز وجلنار فقد برح بهما الحزن لوفاته ، ورحل عنهما منه والد كريم عزيز عليه ما عنتنا ، رءوف بهما رحيم ، فبكياه أحر البكاء وواسيا زوجته العجوز بكل ما فى وسعهما ، وقاما على خدمتها ، وصبرا فى سبيلها على ما يصيبهما من لسان موسى ويده ، اذ تنمر لهما بعد وفاة أبيه ، وجعل يضطهدهما ، ويعتدى على قطز بالسب والضرب ، فما يجيبانه بغير الصبر والسكوت اكراما لمولاهما الراحل ورعاية لمولاتهما المحزونة ، ريثما تنتهى أيام العزاء فيبرحان القصر الى حيث يتزوجان ويعيشان آمنين هانئين كما دبر لهما ذلك مولاهما الفقيد .

وما علما أن موسى قد جد فى الكيد لهما واتصل بجماعة من فقهاء السوء فأبطلوا له وصية أبيه بصدد عتقهما والأملاك التى أوصى بها لهما . فما راعهما الا موسى قد جاء يخبرهما ببطلان الوصية وبقائهما على رقهما ، فعز عليهما أن ينهار بين غمضة عين وانتباهتها ما بنياه من الآمال وأن يعودا لا الى كنف مولاهما الشيخ الصالح ، اذن لهان عليهما الأمر ، ولكن الى رق أبنه الفاسق الظالم ليعذبهما ويهينهما ما شاء له حقده وانتقامه ، فما اعظم مصابهما به ويا ويلهما منه . ولما علمت مولاتهما العجوز بما فعل ابنها غضبت من عمله ، وصبت لعناتها على رأسه ، وطفقت تواسيهما وتقول لهما انهما سيكونان تحت رعايتها وحمايتها ولن يمسهما موسى بسوء . ووعدتهما بأنها ستجتهد حين تقسم التركة أن تجعلهما من نصيبها فتعتقهما وتزوجهما وتجعل لهما رزقا يعيشان منه .

وعلم موسى بما عزمت عليه أمه ، فأجل قسمة الميراث طمعا فى أن يحول دون ما تريد . وفى خلال ذلك أخذ يراود جلنار عن نفسها ويقول لها : « أصبحت اليوم ملك يمينى ، ولا سبيل لك الى الامتناع منى » فتهرب من وجهه ، وتلوذ بسيدتها فتحميها منه .. وأحيانا يأتيها ويقول لها متلطفا « سأتخذك زوجة لى ، وستكونين سيدة هذا القصر ، لك فيه الأمر والنهى ، ويكون قطز عبدا لك » فما تجيبه الا بالسكوت والاعراض .

ولما طال ذلك عليه ويئس من رضاها ، ثار به الغضب ،

وأقسم ليفرقن بينها وبين قطز لينتقم منها ومنه ، فذهب الى وصى أبيه وادعى أن جلنار كانت سبب الفرقة والخصام بينه وبين والدته ، وأنه سيعود الى بر والدته وطاعتها اذا بيعت هذه الجارية النمامة ، وجعل يلح عليه فى بيعها ، وكان قد أحضر سمسارا معه ليجىء بمبتاع للجارية ، وجعل له على ذلك جعلا ، فما كان من الوصى الا أن باع الجارية للسمسار ، وباعها السمسار لرجل من مصر .

فوجئت أم موسى بما كان من بيع جلنار على غير علمها ، فبعثت الى الوصى تعاتبه على ما صنع ، وتلح عليه أن يستقيل البيعة ، ولكنه اعتذر اليها بأن ذلك لم يبق فى امكانه الا أن يرضى الرجل المصرى به ، فأمرته أن يعرض عليه زيادة فى ثمنها ويستعيدها منه،ولكن موسى كان قد أوعز للرجل المصرى،فأبى أن يقيل الصفقة وأصر على طلب الجارية ، فما وسع الوصى الا تسليمها اليه . ولما علمت جلنار بأنها ستحمل وشيكا الى مولاها الجديدبكت بكاء شديدا وتشبثت بثياب مولاتها مستغيثة بها ألا ترضى بتسليمها ، قائلة : « اقتلينى يا سيدتى ولا تسلمينى الى هؤلاء ! » فضمتها العجوز اليها ، وأجابتها والدموع تنهمر من عينيها : « تعلمين يا جلنار أن ليس لى من الأمر شىء ، وانك والله لأعز من ابنتى ، وقد اجتهدت أن أحتفظ بك ، ولكن ماذا أصنع وقد باعوك بغير علمى ؟ لعن الله أبنى فشد ما عذبنى وآذانى . ياليتنى عقرت فلم أحمل به ، أو ليتنى اذ حملت به أسقطته ! لن يكف عنى هذا الولد العاق حتى يلحقنى بأبيه ، حسبى الله منك يا موسى حسبى الله منك ! » .

وكان قطز واقفا ينظر اليهما ويبكى ، حتى اذا رأى موسى قد أقبل ومعه السمسار وجماعته ، كفكف دمعه وكتم جزعه ، وأظهر التجلد مكانه ، ووقف كأنه تمثال من الصخر الأصم ، ولما رأتهم جلنار وعلمت أن لا مناص لها من المسير معهم ، أرسلت ثياب مولاتها الوالهة الحسرى ، واندفعت الى حبيبها قطز ففتح لها ذراعيه وتعانقا عناقا طويلا ، تبادلا فيه قبلات الوداع ، وأودعا فيها أحر ما تكنه جوانحهما من لواعج الحب



وبرحاء الأسى . وقد اختلطت أنفاسهما وامتزجت دموعهما ، ونسيا ما حولهما وغرقا فى غيبوبة من النشـــوة والحنين ، ولم يوقظهما منها الا صوت موسى يصيح بهما فى شدة وقســوة : افترقا ياخائنان ! أرسلها أيها العبد اللئيم !

فنظر اليه قطز نظرة انخلع لها قلبه ، ولكنه تماســك فى غيظ واستمر يقول : « ماذا ينفعك أن تعانقها الآن ؟ انك لن تراها بعد اليوم » . فأخذ قطز بيدى حبيبته وحلهما عن عنقه ، وقد تقلص دمعه وهو يقول لها : « أستودعك الله يا حبيبتى ، أستودعك الله يا جلنار ، سيجمع الله شملنا بحوله وقـــوته » . فتراجعت عنه جلنار وهى تقول : « أستودعك الله يا محمود ، أستودعك الله يا حبيبى » . ومالت الى مولاتها فاهوت على رأسها تقبله حتى بللته بدموعها ، والعجوز تلثم أطرافها وتبكى ، الى أن تقدم قطز فجذبها منها وهو يقول : « حسبك يا جلنار ، توكلى على الله ولا تحبسى أصحابك ، وثقى بأن الله موجود ، وهو عــلى جمعنا اذا يشاء قدير » .

فأشار موسى للسمسار قائلا . « امض بها يا هذا ولا تدع وقتنا يمضى فى هذا العبث » . فأخذ السمسار بيدها ، فمضت معه وعينها تتلفت مرة الى سيدتها ومرة الى حبيبها حتى توارت ، وبقى قطـــز واقفا مكانه كأنه جمـاد ينظر الى سيدته الباكية الحزينة ، وتنظر اليه حتى اذا ما اختفى موسى فى أثر السمسار وجماعته ، غلبت قطزا الرقة ، فدنا منها باكيـا ، وجعل يقبل رأسها ويديها قائلا : « أشكرك يا سيدتى الكريمة ، لقد بذلت كل جهدك ، ولا لوم عليك فيما حدث » .

فقالت له : « أحسن الله اليك يا بنى ، ستكون عندى بمثابة ابنى ، وان شئت أعتقتك فمضيت حرا الى حيث تريد ؟ » .

قال لها : « يا مولاتى لا أريد بخدمتك بدلا ، بيد أنى أخاف أن يسىء الى موسى ـ وقد نفد صبرى ـ فأسىء اليه فيغضبك ذلك منى » .

فقالت : «معاذ الله أن أغضب لموسى منك ، ولو قتلته لأرحتنى منه » .

فأجابها : « ما يكون لى أن أعتدى على ابن مولاى الذى أكرم مثواى وأحسن الى » .

واستأذن قطز مولاته ، فمضى الى صديقه الحميم الحاج علـى الفراش ، وكان شيخا صالحا يخدم سريا آخر من سراة دمشـــق وأعيانها ، يقال له ابن الزعيم ، كان يسكن فى قصر قريب من قصر الشيخ غانم المقدسى ، لا يقل عنه سعة وفخـامة . وكان قطز كثير الاختلاف اليه ، يجلس معه على مصـطبة كبيرة مظللة بفروع الشجر تقع عند مدخل بستان ابن الزعيم ، فيشكو قطز همومه اليه ويبثه آلامه ويستشيره فى شـئونه ، ويتجاذبان أطراف الحديث فى شئون مختلفة ، وكان الحاج على شديد العطف على قطز والحب له ، وقد أحس فى ضميره ، بما أعطى من قوة الفراسة وصدق الحدس ، أن لا بد لهذا المملوك فى صباحة وجهه ونبل خلاله من سر يكتمه الناس جميعا ، فاجتهد زمنا أن يكتشف هذا السر من صديقه الشاب فلم يوفق ، الا أن ظنه لم يزدد على الأيام الا قوة عنده بما كان يؤيده من فلتات لسان صاحبه فى ثنايا حديثه ، فجعل يضم بعضها الى بعض ، ويستخرج منهـــا صورة غامضة لأصل هذا الغلام .

فلما أقبل عليه حياه ، وفرش له على المصطبة كعادته ، وأخذ يعزيه فى وفاة مولاه ويعدد مناقبه ومكارمه ، فمضى قطز يشكو اليه ما أصابه من اضطهاد موسى بعد وفاة أبيه ، وما منى به من فراق حبيبته جلنار وكيف أنه سئم الحياة بعدها . فجعل الحاج يلاطفه ويسليه ، وبينما هما كذلك . اذ أقبل موسى فدخل الباب وبيده سوط ، فلما دنا منهما نظر الى قطز نظرة المغضب ، وقال له : « ماذا تصنع هنا يا هذا ؟ أما تذهب لعملك فى القصر ؟ » فلم يجبه قطز وأشاح عنه بوجهه فاستشاط موسى غضبا وأراد أن يضربه بالسوط فتلقاه قطز بيده وأمسك بطرف الســوط فلم يقدر موسى على انتزاعه ، وقال له قطز عند ذاك : « لو شئت لأوجعتك بسوطك هذا ضربا ، فمثلك أيها السكير لا يقـدر على مثلى . وما يمنعنى من البطش بك الا احترامى لذكرى أبيك » .

فلطمه موسى على جبينه فاحمر وجه قطز ، ونظر اليه بعينين

متقـــدتين كأنهما جذوتان من النار ملأتا قلب مـــوسى رعبا ، فانصرف عنه وهو يسبه ويلعن أباه وجده ، وقطـــز جامد فى مقعده على المصطبة ، لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة ، وسوط موسى فى يده ، وعيناه عالقتان بالباب حتى اختفى موسى ، فبقى هنيهة واجما على حاله تلك ، ثم ارتمى على المصطبة ، ساترا وجهه بيديه ، وجعل يبكى بكاء شديدا ، حتى رق له صاحبه ، فطفق يمسح على ظهره ، ويقول له : « خفض عليك يا قطز ، فالامر أهون من أن يثير دمعك ، أتبكى من لطمـــة خفيفة من يد جبان ضعيف ؟ » .

فرفع قطز اليه رأسه قائلا وقد تقلص دمعه : « سامحك الله أتظن بكائى من تلك اللطمة ؟ ان بكائى من لعن أبى وجدى ، وهما خير من أبيه وجده » .

« لا يدفعنك الغضب أن تقول ما ليس لك بحق يا قطز ، أنت والله خير منه ألف مرة ، أما أبوك وجدك فليسا بخير من أبيـــه وجده المسلمين ، اذ شرف الاسلام فوق كل شرف » .

« أتظن أبى وجدى كافرين ؟ لا والله انهما لمسلمان من آباء مسلمين » .

فاظهر الحاج على الفراش استغرابه كمن يشك فى صـــدق ما يسمع ، فعز على قطز ان يظن به صديقه الكذب فاندفع يقول : « الم تسمع يا حاج بجلال الدين بن خوارزم شاه ، الـــذى جاهد التتار ؟ » .

« بلى ، ليس فى الدنيا أحد لم يسمع بالسلطان جلال الدين »

« فانا ابن جهان خاتون أخت جلال الدين ، ووالدى الأمير ممدود ابن عمه ، واسمى محمود ، وانما سمانى قطزا اللصوص الذين اختطفونى ، فباعونى ، عاملهم الله بما يستحقون » .

فتهلل وجه الحاج على وقال : « الآن تحققت فراستى وصدق ظنى فيك . والله الذى لا اله الا هو لقد حدثنى قلبى أول يوم عرفتك فيه أنك لست مملوكا جلب من مجاهل ما وراء النهر ، وأنك ترجع الى أصل كريم ، فلما بلوتك واختلطت معك عرفت أن لك سرا تكتمه عن الناس جميعا ، فحدست أنك ابن ملك أو

أمير نكبه الزمان فالقاه فى أيدى باعة الرقيق . فمـــا زلت من يومئذ أجتهد فى معرفة سرك ، وقد سألتك مرارا عن أصلك ، فكنت تقول لى انك لاتعرف عنه شيئا ، ولكنى رجحت آخر الأمر أنك من أولاد جلال الدين بن خوارزم شاه »

فنظر اليه قطز مستغربا ، وسأله :

ـ هل عرفت ذلك قبل أن أخبرك الآن ؟ »

ـ اى والله قبل ان تخبرنى بزمان طويل .

ـ شىء لعمر الله عجيب ، كيف عرفت ذلك يا حاج على ؟

ـ لما رجح عندى أنك من أولاد الملوك أو الأمراء جعلت أقص عليك من أنبائهم ، واختبر أثر حديثى فى وجهك كلماذكرت ملكا من الملوك أو أميرا من الأمراء ، فكنت اذا ذكرت جلال الـــدين عندك ووقائعه مع التتار ألمح تغيرا فى وجهك واختـــلاجا فى شفتيك ، وقد كررت هذه التجربة فأيقنت أن لك صلة بجلال الدين ورجحت أنك من أولاده .

فتبسم قطز وعجب من ذكاء صاحبه الحاج وفطنته ، وقال له :

« الآن عرفت لماذا كنت مغرى بأخبار الملوك والســـلاطين ، تعيدها على مرة بعد مرة . وسكت قطز قليلا ، ثم ما لبث أن عاودته شجونه فقال بصوت يخالطـــه البـــكاء : « بالله يا صـــديقى الحاج الا ما أشرت على ماذا اصـــنع فى مصابى هذا ، فانك ما علمت لذو رأى ، انهـــم أبطلوا وصـــية مولاى المرحوم بعتقى وعتق حبيبتى جلنار ، ولم يكتفوا بذلك حتى فرقوا بينى وبينها ، فباعوها لرجل من مصر ، اى والله، لقـــد فرقوا بينى وبين جلنار أبنة خالى جلال الدين ، التى أحبهـــا وتحبنى ، ونشأت معها منذ الصغر ولم أفترق عنها الا اليوم . قل لى كيف آوى الى هذا القصر ، وقد فارقه مولاى الشيخ الذى أكرم مثواى وتبنانى ، وبرحته جلنار التى كانت سلواى فى هذه الحياة ، وعـــزائى فى كل ما أصابنى من نكبات الأيام ؟ كيف أصبر على خدمة ذلك الوغد اللئيم الذى سلبنى حريتى وسعادتى وأمعن فى اضطهادى واهانتى ؟ ان هذا القصر أصبح عنـــدى

كالجحيم ، لا أطيق رؤيتـــه ، فما بال الاقامة فيه · ما لهـــؤلاء يستعبدونني وقد ولدتني أمي حرا ؟ أليس في الارض من عدل ينصفني من هذا الظلم ؟ مالي أراك صامتا يا حاج علي ؟ تكلم ، قل لي ما اصنع في أمري ؟ » : وهنا غلبه البكاء فعاقه عن المضي في الكلام ·

سكت الحاج علي برهة كانه يفكر في طريقة لخلاص صديقه ، أو في جواب يقنعه ويرضـــيه ، ثم قال له : « ولكن في القصر سيدتك العجوز ، وهي تحبك وتعزك ولن ترضى أن يمسك من موسى أي سوء » ·

فقال له قطز : « نعم انها تحبني وتعزني وتعتبرني كولدها ، وقد وعدتني أن تجعلني حين تقسم التركة من نصيبها فتعتقني ، ولكنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة ، وقد غلبها ابنها على كل شيء ، ولا تقدر على صده أو منعه مما يريد · انى أخشى أن أقع في ملك يمين موسى فينتقم مني ، ويبالغ في اهانتي وتعذيبي ، خلصني يا حاج علي خلصني ! »

« الله يخلصك يا بني ·· هون عليك يا قطز فسيجعل الله لك من ضيقك مخرجا » ·

« دعني من كلمات المواساة والتهوين والتعليل ،فانها لا تنفعني شيئا ، وفكر لي في طريقة للخلاص مما انا فيه من العذاب » ·

« لقد فكرت لك في طريقة للخلاص مما أنت فيه من العذاب ، ولكن عليك أن تصبر يومين أو ثلاثة أيام ريثما أدبر هـــذه الطريقة »

« ساصبر لك أكثر من ذلك ، فقل لي بالله ما هي ؟ » ·

« ساقص على سيدي ابن الزعيم خبرك : فسيشتاق لرؤيتك حين يعرف أنك من أولاد السلطان جلال الدين ، فقد كان مـــع شيخه ابن عبد السلام كثير الاهتمام بنجدة جـــلال الـــدين في جهاده للتتار ، فاذا قابلته فاذكر له طرفا من حال موسى ابن الشيخ غانم معك واضطهاده لك · وساعزز قولك عنده ، فاقص عليه ما وقع منه اليوم في حقك على مرأى مني ومســـمع ، وما أشك في أنه سيرثي لحالك ويعطف عليه ، فأشير عليه عنـــدئذ

بشرائك منهم ، وما أحسبه يتأخر عن ذلك · واعلم انك ستسعد في خدمة سيدي ابن الزعيم ، وسيكون لك مثل المرحوم الشيخ غانم أو خيرا منه »

« حسبي أن أعيش بجوارك يا صديقي الحاج ، ولكني أخشى أن لا يرضى موسى ببيعي لسيدك اذا علم أني سأسعد عنده » ·

« لن ندع موسى يعلم بشيء من هذا وسيطلبك سيدي بنفسه من الوصي ، ولن يتردد الوصي في اجابة طلبه فاطمئن ولا تخف شيئا ، فسأدبر لك كل شيء تدبيرا متقنا »

« بارك الله فيك ياحاج علي ،لقد فرجت كربي ،فرج الله كربك يوم القيامة » ·

وقام قطـــز عن مقعـــده من المصطبة قائلا . « دعني أنصرف فأرجع الى عملي في القصر ، لعل مولاتي تحتاجني فقـــد أبطأت عليها في الرجوع ، وغدا أراك ان شاء الله »

فقام له الحاج علي وشيعه الى الباب ·



الفصل الثامن



لم تمض ثلاثة أيام على ما سبق ، حتى أتم الحاج على الفراش الخطة التى دبرها لخلاص صديقه ، فنجحت على خير وجه ، وانتقل قطز الى ملك السيد ابن الزعيم، فسلا ما كان فيه من البلاء بموسى ومضايقاته ، وانطوت صفحة من حياته ، شيعها بدموعه وحسراته ، فقد كانت على علاتها من أجمل أيام عمره وأسعدها ، اذ أشرق فيها الحب على قلبه ، فملأه نورا ، وأتى على ما فى زواياه من ظلمات الهم والحزن واليأس ، فبدده وأبدله به مسرة وجذلا ، وغبطة وأملا ، كان يعيش فيها مع جلنار فى دعة وسلام مشمولين برعاية مولاهما الرحيم وزوجته البارةوقد ذاقا فيها من لذة الأمن وطمأنينة الاستقرار ما لم يذوقاه منذ أيام طفولتهما فقد عاشا ما عاشا قبل ذلك فى جو مضطرب ، يسوده القلق والفزع ، وتهدده الحروب والغارات ، وتراوحه وتغاديه الفجائع والنكبات ، حتى استقر بهما المقام فى كنف الشيخ غانم ، فلقيا من عطفه وبره ما أنساهما مرارة اليتم ، وذل الرق ، وألم التغرب والتشرد، ونعما بعيشة راضيةآمنة مطمئنة ، وكان اكبر نعمة تمت عليهما عنده نعمة الحب ·

وما ينس قطز من الاشياء ، فليس بناس يوما عاد فيه مع مولاه من سفر الى نابلس ، فلما دخل القصر ، وسلم على مولاته لم ير جلنار عندها ، وكان بالأشواق اليها ، فالتمسها فى غرفتها فوجدها فى لبسة المتفضل قد خرجت قريبا من الحمام ، وهى تمشط شعرها الذهبى اللامع المسترسل على كتفيها ، وأمامها

المرآة تنظر فيها ، فما ان رأت خياله فى المرآة ، حتى ابتسمت ابتسامة خفيفة كأنها الوهم ، ولكنها لم تلتفت اليه وظلت متشاغلة بتمشيط شعرها ، وكان حين ولج باب الغرفة يدب على أطراف قدميه ليفاجئهامن خلفهابقدومه فيعانقها كعادته معها من قبل ، فلما رأى خياله فى المرآة وأدرك انها رأته ايضا ،فلم تنهض من مقعدها له ، ولم تلتفت اليه ، ولم يبد منها الا تلك الابتسامة الخفيفة كأنها الوهم ، عجب من امرها ووقف هنيهة صامتا كأنه يحاول معرفة السر فى هذا التبدل العجيب ، ثم ناداها بصوت ليس كعادته من الطلاقة والمرح ، قائلا : « جلنار هأنذا قد قدمت من نابلس » · وما كان اشد دهشه اذ رآها تلتفت اليه فى مقعدها بكل وقار وهدوء ، وسمعها تقول بصوت كأنه ينبعث من مصدر علوى آخر ، غير شفتيها الساكنتين الحالمتين ، « الحمد لله على السلامة » ، ونظر الى عينيها الناعستين ، فرأى معانى غريبة لم يقرأها فيهما قط من قبل ، كأنها تدعوه اليها وتدفعه عنها ، وتأنس به وتستوحش منه ، وتثق به وترتاب فيه ، وتخضع له وتتعالى عليه ، ثم ما لبثت أن أدارت وجهها الى المرآة ، واستأنفت ما كانت فيه من اصلاح شعرها كأن شيئا لم يكن ، فوقف خلفها متحيرا لا يدرى ما يقول وما يفعل ، وما يأخذ وما يدع ، وأحس بما يحس به الداخل بلا استئذان فى بيت لا حق له فيه · ولم يكن هذا شأنه معها قبلا فقد كان يعد غرفتها كغرفته ، كما كانت تعد غرفته بمثابة غرفتها ، لا حرج بينهما فى ذلك ، فما هذا الطارىء الغريب الذى اقام بينهما حائلا لا تراه العين ، ولكنه بعد أشد فى الحجز بينهما من سميك الجدران ؟ وشعر حينئذ بمزيج من الخجل والرهبة والخوف من أن يراه أحد فى ذلك الموقف وهو على هذه الحال · وتوقع فى كل لحظة أن يدخل عليهما داخل من أهل القصر فيلومه على موقفه المريب · ونظر الى الجالسة امامه فلم ير جلنار الصغيرة ابنة خاله جلال الدين التى نشأ واياها طفلين يلعبان فى ربوع لاهور ، ويتنقلان فى مختلف الممالك راكبين على جواديهما

الصغيرين حتى اختطفهما اللصوص وكان من امرهما ما كان ، بل رأى مكانها امرأة تامة التكوين ، ناضجة الانوثة ، لا صلة بينه وبينها من قرابة او عشرة وتنقل طرفه منجيدها الطويل كأنه ابريق من الفضة الى كتفيها المدمجتين وظهرها الرخص المسحوب من جوانبه كلمـــا نزل ، حتى ينتهى الى خصرها الضامر ، ولمح بياض ساقيها ولطف قدميها ، فامتلأ قلبه رهبة لم يطق معها الوقوف ، فانسحب الى جهة الباب وخرج منه فى رفق كما دخل · ذلك يوم الفصل فى حياة هذين الامـــيرين المملوكين ، ينتهى به عهد ويبتدىء به عهد ولم يزل قطـــز يذكر ذلك اليوم غضا جديدا واضح القسمات بعد كرور الايام عليه ، كانه أمس القريب ·

لم يكد قطز يسكن الى كنف مولاه الجديد ، ويستريح قلبه من عنت موسى واضطهاده حتى تذكر فراق جلنار ، فذهبت نفســـه حسرات فى أثر حبيبته الذاهبة ، وشـــفه الوجـــد بها والحنين اليهـــا حتى اصـــفر وجهـــه ونحل جسمه وتقرحت مقلتاه من طول السهر والبكاء · كانما كان مشغولا عن ألم فراقها بما كان ينقض ظهره من المحنـــة بموسى ، فلما سلا هذه المحنة وتنفس الصعداء فى قصر سيده الجديد ، فرغ لمحنته الكبرى بفراق حبيبته جلنار · وكذلك قد تنزل بالمرء مصيبتان فيضيق بصغراهما وتشغله عن كبراهما حتى يظن انه قد سلاها ، فما هى الا ان تنقشع الصغرى فاذا الكبرى تعود من جديد فتنيخ بكلكلها على قلبه ·

رق السيد ابن الزعيم لحال مملوكه الامير الخوارزمى ، فبالغ فى تكرمته والبر به ، واجتهد ان يصرفه عن لوعته وحزنه ، فكان يدنيه منه ويقول له : « كفاك يابنى حزنا على حبيبتك الحسناء جلنار ، فان شئت زوجتك جارية مثلها او اجمل منها · »

فيجيبه قطز فى أدب جم « لا يا مولاى ، لا رغبـــة لى فى الزواج من غيرها ، وان تكن اجمل منها · انها ابنة خالى ، نشأنا معا ولم نفترق منذ ولدنا » · فيقول له سيده « انك لعلى حق يا قطز ، اذ ليس فى وسعنا ان نزوجك اميرة مثل ابنـــة جلال الدين ، ولكنى أنصحك ان تجتهد فى سلوانها اشفاقا على نفسك

وابقاء على صحتك وشبابك ، واصبر لعل الله يجمع شملكما من حيث لا تحتسبان » ·

وأوصى ابن الزعيم خادمه الحاج على الفراش ، بأن لا يألو جهدا فى العناية بقطز وتسلية همه · ولم يكن الحاج على بحاجة الى وصية سيده بصديقه الحميم ، فلم يدع وسيلة من الوسائل لتسليته وتعزيته الا استعملها · وكان الحاج على لبق الحديث حسن التصرف ، خبيرا بأدواء القلوب · طبيبا بعلاجها ، فمازال بصديقه الحزين ، يقبضه ويبسطه ، ويسليه ويعلله ، ويضرب له الامثال فى ذلك ، ويتنزه به فى ضواحى المدينـــة ورياض الغوطة ، ويرود به زحمة الاسواق ، ويغشى به مجالس العلم فى المسجد حتى استطاع ان يكسر سورة الحزن فى قلبه ، ووكل الباقى الى الايام لتقضى عليه ·

وأخذت المملوك الشاب عقب ذلك جذبة الهية ، فتعلق قلبه بالعبادة والتقوى ، فكان يصلى الفروض لاوقاتها ، ويحافظ على النوافل ، وأكثر من تلاوة القرآن ، وتردد على مجالس العـــلم فى جامع المدينة ، ولا سيما دروس الشيخ ابن عبد السلام ، فقد أغرم بها فكان لا يفوته درس · ولم يتصد للقراءة عليه ، أو على غيره من العلماء ، بل كان يكتفى بالحضور والاستماع ، وكان سيده ابن الزعيم يشجعه على ذلك ، ويثنى عليه ، وما كلفه قط عملا يحول بينه وبين حضور هذه المجالس ·

كان السيد ابن الزعيم من كبار انصار الشيخ ابن عبـــد السلام ، ومن خواص اصحابه ، وكان قوى الاعتقاد فيه ، يحسن اليه ، ويقضى حوائجه ويناصره فى دعوته بنفسه وماله · وكثيرا ما تعرض فى سبيله لغضب اولى الامر ، وجور اصحاب النفوذ · وكان الشيخ يحبه لاستقامته ، واخلاصه وغيرته على الدين ، وحبه للاصلاح ، ويقبل عطاياه على عفته الشديدة ، وزهده فيما بأيدى الناس ، ولا يقبل عطايا غيره من الاغنياء · وكان ابن الزعيم يتعصب له ، ويجمع حوله الانصار ، ويستميل اليـــه القلوب ، وينفق على ذلك من حر ماله · والفضل فى كثير من النفوذ الذى يتمتع به الشيخ ابن عبد السلام يرجع الى همة

ابن الزعيم وسعيه .

والسيد ابن الزعيم مثل صالح للغنى الشاكر نعمة الله عليه لم ينس حق الله فى ماله ، فكان ينفق منه على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة من الارامل واليتامى ، وكان يرى أن لدينه ووطنه حقوقا عليه ، لا تبرأ ذمته حتى يؤديها ، فلم يكن من حدث يحدث فى الدين الا غضب له وسعى لانكاره وازالته وما المت بوطنه نكبة الا سعى فى تخفيفها ، ولا عدده خطر الا انتدب لدفعه عنه . وكم من غنى فى دمشق لا هم لهم الا ملء بطونهم واشباع شهواتهم . وقد وجد فى الشيخ ابن عبد السلام مثلا صالحا للعالم العامل بعلمه ، الناصح لدينه ووطنه ، الذى يرى حقا ان العلماء ورثة الانبياء فى هداية الناس الى الخير ، ودفعهم عن سبل الشر ، الآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، لا يتجر بدينه ولا يريد الدنيا بعلمه ، ولا يساوم فى مصالح امته ووطنه ، ولا يشترى بآيات الله ثمنا قليلا من حطام الدنيا ومتاع العاجلة ، فأحبه ابن الزعيم واخلص له ونصره بجاهه ، وايده بماله ، وتعاون معه على البر والتقوى ، وكم من عالم فى عصره لا هم لهم الا جمع الحطام ، وتضليل العوام ، ومداهنة الحكام ، ومسالمة الايام

وجاء الشيخ يوما الى دار ابن الزعيم يزوره ، فأكرمه واحتفل به ، فلما استقر بهما المجلس دخل قطز عليهما بشراب الورد ليقدمه للشيخ فلما رآه الشيخ التفت الى مضيفه وقال له : « من هذا الشاب ؟ أحسبنى رأيته غير مرة فى حلقة الدرس » فأجابه ابن الزعيم « هذا مملوك كان لجارى الشيخ غانم رحمه الله اشتريته قريبا ، وهو يحبك يا سيدى ويحضر دروسك ويستمع اليك » .

قال الشيخ وهو يتفرس فى وجه قطز « انه ما علمت لشاب صالح » .

فقال ابن الزعيم « اجل انه صالح ومن أصل كريم » .

وكان الشيخ قد فرغ من شرابه عند ذاك ، فرد الكأس الى ساقيه ، فانصرف وقد خجل من ثناء الشيخ عليه . ومضى ابن

الزعيم يحدث ضيفه الكريم بخبر مملوكه ، وانه من بيت السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، وان اللصوص اختطفوه وابنة السلطان وعما صغيران فباعوهما فى سوق حلب ، وان الشيخ غانم المقدسى اشتراهما فرباهما الى اخر قصتهما .

فعجب الشيخ من هذا الحديث ، وتلا قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » وسكت هنيهة ثم قال : « مسكين جلال الدين ، خذله ملوك المسلمين وكان يجاهد التتار دونهم حتى قضوا عليه . غفر الله له ما أساء الى المسلمين فى بلاد خلاط ، لو لم يرتكب هذه الزلة لكان من المجاهدين الابرار » .

فقال ابن الزعيم : « انى ما اشتريته الا لاعتقه ، ولولا حبى له وخشيتى ان يفارقنى فتضيق به سبل الحياة لاعتقته من قبل » .

فقال الشيخ : « شكر الله لك يابن الزعيم جميل صنعك فيه ان جلال الدين لحرى ان تحفظه فى ولده . الا تدعوه فأراه قبل ان انصرف » .

فقام ابن الزعيم وعاد بقطز معه ، وقدمه للشيخ فتلقاه بالبشر ، وطيب خاطره ، وأقعده قريبا منه ، وقال له : « ان جلال الدين كان حبيبا الى نفوسنا ، اذ كان يجاهد التتار ، ويدافعهم عن بلاد الاسلام ، وأنت ابن اخته ولك عندنا منزلة وحرمة ، وقد أحسن الله اليك اذ أفضى بك الى كنف هذ السيد ، وهو من الصالحين المجاهدين . لا غضاضة على مسلم فى خدمة مثله وسيعتقك ويحسن اليك ... » .

فقبل يد الشيخ ، وقال بصوت يخالطه البكاء لما تأثر به من كلامه : « انا مملوك سيدى ابن الزعيم وعبد احسانه ، لا احب ان يعتقنى ، ولااريد ان يحرمنى شرف خدمته » .

فقال ابن الزعيم : « بل انت ولدى ياقطز ، ونحن جميعا خدام الدين وخدام الشيخ ابن عبد السلام » .

كذلك عرف الشيخ ابن عبد السلام قطزا ، فصار يدنيه من

مجلسه اذا حضر لاستماع الدرس ، ويلتفت اليه ، ويساله عن
سيده ابن الزعيم ويحمله تحيته ، واحيانا يبعثه برسالة اليه :
وسرعان ماوثق به سيده والشيخ ، لما رايا فيه من رجاحة العقل
وحصافة الرأى ، وكمال الرجولة ، والاضطلاع بمهام الامور
فائتمناه على اسرارهما ، فكان احدهمايقول له مايشاء من الكلام
ليبلغه للاخرفيمالا يأتمنان احداغيره عليه ،من أمور تتصل بحركتهما
السياسية والاصلاحية لافى دمشق وحدها بل فى سائر بلاد
الشام وغيرها من البلاد الاسلامية . فعرف قطز فى هذه المدة
القصيرة التى قضاها فى خدمة ابن الزعيم كثيرا من احوال العالم
الاسلامى اذ ذاك ، واحوال ملوكه وامرائه والحزازات التى بينهم
والمنافسات على الملك ، وموقف كل منهم من معاداة الصليبيين
او موالاتهم وادرك السياسة التى كان الشيخ وانصاره ينتهجونها
والمرمى الذى يرمون اليه من توحيد بلاد الاسلام وتكوين جبهة
قوية من ملوكه وامرائه لطرد الصليبيين من البلاد التى يحتلونها
فى الشام ، ولصد غارات التتار التى تهددهم من الشرق

وقد اقتضت هذه السياسة أن تخص بالمناصرة والتاييداقوى
ملوك المسلمين واصلحهم للاضطلاع بهذه المهمة الكبرى ممن
لايميلون الى موالاة الصليبيين او مصانعتهم ، وان تسعى للقضاء
على من يواليهم او يخضع لنفوذهم من الملوك والامراء ، فكان
الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر على رأس الفريق
الاول ، وكان على راس الفريق الثانى عمه الملك الصالح عماد
الدين اسماعيل صاحب دمشق ، وكان العداء بين هذين
مستحكما ، والتنافس بينهما شديدا ، فلا غرو ان يوالوا ملك
مصر ويدعوا له ، ويعادوا ملك دمشق ويعتبروه خائنا للاسلام

وكان الشيخ ابن عبد السلام يراسل الملك الصالح ايوب
ويحرضه على تطهير بلاد الشام من الصليبيين أسوة بجده
المجاهد العظيم السلطان صلاح الدين ، ويعده بمناصرة عامة
اهل الشام ، فيتلقى ردودا منه يعده فيها بالقيام بذلك عندما
تسنح الفرصة وتتم الاهبة . وقد علم الصالح اسماعيل بحركة
ابن عبد السلام ، فأراد القبض عليه ، ولكنه خشى انصاره أن

يثوروا له فيؤلبوا العامة عليه فاجل ذلك الى حين

وقوى عزم الصالح ايوب على المسير الى الشام فاشتد
خوف الصالح اسماعيل ، وعزم على غزو مصر قبل ان يغزو
ملكها بلاده ، فبعث الى اميرى حمص وحلب يطلب منهما
النجدات ، وكاتب الفرنج واتفق معهم على مساعدته والمسير
معه لمحاربة سلطان مصر ، واعطاهم فى سبيل ذلك قلعتى صفد
والشقيف وبلادهما ، وصيدا وطبرية واعمالها ، وسائر بلاد
الساحل . وما اكتفى بذلك حتى اذن لهؤلاء الاعداء فى دخول
دمشق ، وشراء الاسلحة وآلات الحرب من اهلها .

وادرك الشيخ ابن عبد السلام الخطر الذى يتهدد بلاد الاسلام
من هذا الخطب الفادح ، فكتب رسالة قوية الى الصالح ايوب
يحثه فيها على التعجيل بالجهاد ، ويتوعده فيها بغضب الله
ونقمته وعذابه اذا تهاون فى المسير حتى يتم ما أراده أعداء
الاسلام به ، مؤكدا له ان تبعة ذلك ستكون على رقبته اذاقصر
فيما اوجبه الله عليه وانذره بضياع ملكه وخسارة دنياه وآخرته
واخذ الشيخ يكثر الاجتماع بانصاره ومريديه يحمسهم
ويامرهم بالاستعداد للقيام بواجبهم من الجهاد فى سبيل الدين
وكان يفعل كل هذا فى السر ، حتى اذا كان يوم الجمعة وامتلأ
الجامع الكبير بالناس ، دخل الشيخ ابن عبد السلام من الباب
الخاص بالخطيب فرقى المنبر فتطلعت اليه العيون واشرأبت اليه
الاعناق ، وساد الحاضرين صمت عميق كانما على رؤوسهم
الطير ، فحمد الله واثنى عليه ، وصلى على نبيه عليه الصلاة
والسلام . ثم ذكر الجهاد وفضائله وكيف كان النبى واصحابه
يجاهدون المشركين حتى علت كلمة الله وبلغت دعوة الاسلام
الى المشرق والمغرب واورث الله المسلمين البلاد ، وجعلهم خلفاء
الارض ما قاموا بالدين واستقاموا على طريقته ، فلما غيروا
ما بانفسهم غير الله مابهم فسلط الاعداء على بلادهم ينتقصون
اطرافها ، ويستأثرون بخيراتها ويسومون اهلها الخسف والهوان
ويذيقونهم الوان العذاب ابتلاء من الله لهم ليهلك من هلك عن
بينه ويحيا من حيى عن بينة وان آخر هذه الامة لايصلح الابما

صلح به اولها ، ولم يصلح اولها الا بالجهاد فى سبيل الله .

ثم تلا قوله تعالى :« واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شى فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لاتظلمون » . وبين مافرض الله على المسلمين من اعداد الاسلحة وآلات القتال ورباط الخيل . واتخاذ الاساطيل فى البحر وسائر وسائل القوة ، ليكونوا شهداء على الناس ويحققوا مصداق قوله تعالى :« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ثم خلص من هذا فذكر تحريم بيع السلاح للعدو تحريما باتا لارخصة فيه ولا استثناء .

وندد بعلماء السوء الذين يفتون الناس بالباطل . ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، ويجبنون عن الصدع بكلمة الحق . ويخافون الملوك ولا يخافون ملك الملوك . وقال : أيما مسلم باع العدو سلاحا أو أعان على بيعه لهم فقد خان الله ورسوله وخان المسلمين . وتلا قوله تعالى: « ومن يتولهم منكم فانه منهم » رددها ثلاثا ثم قعد .

ولما اخذ فى الخطبة الثانية جعل يدعو الله ان يعز الاسلام واهله ، وان ينصر من فى بقائه صلاح المسلمين . وكان يدعو فى آخر خطبته للصالح اسماعيل ، فقطع الدعاء له فى هذه الخطبة واكتفى بالدعاء لمن يعلى كلمة الاسلام وينصر دين الله

وفرغ الشيخ من خطبته ، واقيمت الصلاة ، والناس لايصدقون انهم سمعوا ماسمعوه من الشيخ فى خطبته لشدة ماحمل على الصالح اسماعيل ، وندد بفعلته فى كلمات واضحة لاغموض فيها ولا ابهام . ولولا سماعهم صوت الشيخ فى الصلاة وهو يقرأ الفاتحة بصوت ثابت ، لااثر فيه من اختلاف او اضطراب ، كانه لم يقل شيئا جللا على المنبر ، لظنوا ان راسه قد طار عن جسده . والله يعلم وحده ما كان يجول فى نفوس اولئك المصلحين . ويضطرب فى قلوبهم من الخواطر بعد ان سمعوا تلك الخطبة العظيمة الهائلة ، تدوى كالرعد القاصف فى ارجاء المسجد الكبير .

وانصرف الناس من الجامع . ولا حديث لهم الا خطبة الشيخ ابن عبد السلام يفخر من سمعها على من لم يسمعها ، ويود من لم يسمعها لو انه خسر شطرا من عمره وسمعها ، واتفق السامعون على الاعجاب بها ، واختلفوا فى وجه الاعجاب فمن معجب ببلاغة الشيخ ، ومن معجب بقوة حجته ، ومن معجب باطراد بيانه وتسلسله ، ومن معجب بشجاعته ورباطة جأشه

واتفق الناس فى الاشفاق على مصيره ، ولكنهم اختلفوا فى تقدير مايناله من عقوبة الصالح اسماعيل ، فمن قاطع انه سيقتله ، ومن ذاهب الى انه سيحبسه ، ومن مرجح انه سينفيه ويصادر املاكه ، وآخر يرى انه سيعزله عن الخطابة ، ويشتت شمل انصاره ، على انهم جميعا آسفون لانهم لن يسمعوه يخطب على منبر جامعهم بعد ذلك اليوم

وكان الصالح اسماعيل غائبا عن دمشق يومذاك ، فكتب اليه بما كان من الشيخ ، فورد كتابه بعزله من الخطابة والقبض عليه وحبسه حتى يرجع الى دمشق فيرى فيه رايه . وكان انصار الشيخ قد اشاروا عليه بان يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد الصالح اسماعيل ، واعدوا له وسائل الهرب ، ولكنه ابى ذلك . والحوا عليه فاصر على الاباء . فعرضوا عليه ان يختبىء فى مكان امين لايهتدى اليه الصالح ورجاله ، فرفض هذا الاقتراح ايضا وقال : « والله لااهرب ولا اختبىء ، وانما نحن فى بدايه الجهاد ، ولم نعمل شيئا بعد ، وقد وطنت نفسى على احتمال ما القى فى هذا السبيل والله لايضيع عمل الصابرين »

وقبض على الشيخ ابن عبد السلام ، وسجن . فشق ذلك على الناس ، وثار انصاره فطالبوا بالافراج عنه ، واذ لم يجابوا الى طلبهم عمدوا الى ما اوصاهم به شيخهم حين قال لهم: «غيروا بايديكم مالم اقدر على تغييره بلسانى » فكان لايمر يوم دون ان يقتل بضعة رجال من الفرنج الذين يدخلون دمشق لابتياع الاسلحة بايدى جماعة من انصار ابن عبد السلام حتى سرى ذلك فى العامة فاجترأوا على اغتيال الفرنج جهرة فى وضح النهار . فضج الفرنج من ذلك فكتبوا الى الصالح اسماعيل

بشكون اليه امرهم ، ويتهمونه بالكيد لاحلافه وفرضوا عليه ديات المقتولين فى بلاده . فكان لايقتل منهم احد الا لزم الصالح بديته ، فكثر ذلك عليه ، وخشى من حلفائه ان ينقضوا ميثاقهم معه ، ويخلوا بينه وبين عدوه ملك مصر . وقد حاول قمع الثورة فلم يفلح ، فما وسعه الا ان يأمر بالافراج عن الشيخ ابن عبد السلام

ولكن الصالح اسماعيل الزم ابن عبد السلام بملازمة داره وبان لايفتى ولا يجتمع باحد البته . فشق على انصاره ان يحال بينهم وبينه للاسترشاد بآرائه فيما يجب عليهم عمله وفكروا فى حيلة للاتصال به ، فاذا السيد ابن الزعيم قد امر مملوكه قطزا ان يتعلم الحلاقة ، واذا قطز قد حذقها وتشبه بالحلاقين فى زيه وحركته ، ففرحوا بهذا الحل الطريف . وبعثوا قطزا فذهب الى الشيخ فى داره ، فلم يشك احد من مراقبيه فى انه حلاق قد جاء ليزين الشيخ ، فلما دخل عليه لم يعرف الشيخ انه قطز الا من صوته فسر به . فبلغه قطز اخبار سيده ابن الزعيم وغيره من انصاره وما اصاب بعضهم من عقوبة الملك الصالح اسماعيل ، وانهم كفوا عن اغتيال الفرنج بعد الافراج عنه حتى ياتيهم امره فقال له « مرهم بالمضى فى ذلك ولايمنعنهم الخوف على من القيام بما فرض الله عليهم من دفع الباطل »

وكذلك تردد الحلاق قطز على الشيخ فوصل بينه وبين انصاره ، يطلعه على خططهم واعمالهم وسائر ما يهمه من اخبار البلاد ، ويبلغهم اوامره وارشاداته فيقومون بتنفيذها ولايبالون مايصيبهم فى ذلك من قتل او حبس او تعذيب وكانا ربما انتهيا من حديثهما فى السياسة فتبسط الشيخ الى حلاقه وتشقق بينهما الحديث فى شئون شتى من هزل الحياة وجدها وقد يستطرد الحديث الى ذكر السلطان جلال الدين وما يعلم الشيخ من اخباره واخبار ابيه خوارزم شاه وقد يستمع الشيخ الى قطز وهو يحدثه عن بلاد الهند وخراسان وسائر البلاد التى رآها ، وماشهد من وقائع خاله مع التتار . وقد قص فيما قص عليه حديث المنجم الذى تنبأ بانه سيصير ملكا

عظيما . ويملك بلادا عظيمة . ويهزم التتار هزيمة فاصلة . وسأل الشيخ عن رايه فى اقوال المنجمين ، فقال له : « انها تخرصات تخطىء وتصيب ، وقد نهى الشرع عن التنجيم لانه تسور على الغيب ولا يعلم الغيب الا الله » فلحظ الشيخ تغيرا فى وجه قطز كمن خاب امله فى شىء عظيم ، فاستدرك قائلا « هذا قضاء الشرع يابنى ، وانه لايتم ايمان المرء حتى يسلم كل التسليم بما قضى الشرع ، ولا يجد فى نفسه حرجا منه ومااريد ان اقطع املك ياقطز ، وقد قلت لك انها تخرصات تخطىء وتصيب ... وما يدريك لعلها تصيب فيك، فطب نفسا يابنى »

فقال له : قطز : « انما هى يامولاى الشيخ علالة كانت فى النفس ، وقد آمنت بالشرع وسلمت بما قضى » فباركه الشيخ ودعا له بالكرامة والخير .

وجاءه قطز يوما آخر متهلل الوجه ، طيب النفس ، عليه اثر الاغتسال ، والطيب ينفح من راسه وثيابه ، فسأله الشيخ ملاطفا : « ما هذا يا قطز هل اعرست البارحة ؟ »

فتبسم الشاب وقال : « لايامولاى الشيخ ، لقد اقسمت لا اعرس الا بابنة خالى جلنار ، ولكنى رايت النبى صلى الله عليه وسلم البارحة فى المنام ، فاخبرت سيدى فأمرنى بالاغتسال والتطيب فجئت كما ترى »

فقال الشيخ « خيرا صنعت وبخير اشار عليك سيدك ، فحدثنى عن رؤياك ؟ »

فخفق قلب الشاب وسرت فى جسمه رعدة كانه يتهيب ان يقص رؤياه على الشيخ العظيم ، ولكنه راى طلاقة وجه الشيخ واقباله عليه لاستماع حديثه فشجعه ذلك على الحديث فقال « أرقت البارحة ونابنى ضيق شديد ، فقمت فتوضأت وصليت النفل واوترت ودعوت الله ، ثم عدت الى فراشى فغلبتنى عيناى ورايت كانى ضللت طريقى فى برية قفراء ، فجلست على صخرة ابكى وبينا انا كذلك اذا بكوكبة من الفرسان قد اقبلت ، يتقدمها رجل ابيض جميل الوجه ، على راسه جمة تضرب فى اذنيه ، فلما رآنى اشار لاصحابه ، فوقفوا وترجل عن فرسه

ودنا منى فانهضنى بقوة ،وضرب على صدرى ، وقال لى :
« قم يامحمود فخذ هذا الطريق الى مصر فستملكها وتهزم التتار »
فعجبت من معرفته اسمى ، واردت ان اساله من هو فما امهلنى ان ركب جواده فانطلق به فصحت باعلى صوتى « من انت ! »

فالتفت احد اصحابه وهم منطلقون فى اثره « ويلك هـذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وانتبهت من نومى وانا احس برد انامله فى صدرى فما ملكت نفسى من الفرح ان انطلقت الى سيدى فوجدته يتوضأ ، فلم اصبر حتى يفرغ من وضوئه ، فخرجت الى الحاج على الفراش فوجدته على فراشه فايقظته وقلت له : « رايت رؤيا عظيمة · رأيت النبى صلى الله عليه وسلم » ، فهب من فراشه واقبل على فرحا يريد ان اقصها عليه ، فقلت له : لا اقصها الاعلى سيدى اولا ، فقال لى اتبعك اليه فاسمعهامعه ، فانطلق معى فوجدناالسيدحين خرج من المغتسل ، فلما رآنا تعجب من اقبالنا معا ، فقال له الحاج على « انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ياسيدى ،ويريدان يقص عليك رؤياه فابتسم سيدى واقبل على فحدثته بما رأيت فى منامى ففرح وبشرنى وامرنى بالاغتسال فاغتسلت وطيبنى بيده من طيبه وقال لى : « اذا ذهبت الى مولانا الشيخ فاقصص رؤياك عليه وانظر ماذا يقول لك فى تعبيرها »

فسكت الشيخ هنيهة متعجبا من الرؤيا ، ثم قال «مازلت تفكر فى الملك وهزم التتار ياقطز حتى اتاك النبى صلى الله عليه وسلم فبشرك بهما · انها لرؤيا عظيمة كما ذكرت فان تكن صدقا فستملك مصر حقا وتهزم التتار ، فان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من رآنى فقد رآنى حقا فان الشيطـان لايتمثل بى »

فجعل الشاب يقبل رأس الشيخ ويلثم يده ظهرا لبطن ،وهو يقول : « بشرك الله ياسيدى » فقالله الشيخ ممازحـا : « مابشارتى اذا تحققت رؤياك وصرت ملكا على مصر ؟»فسكت قطز قليلا وهو يبتسم كانه يزور فى نفسه جوابا للشيخ ، ثم

قال وقد لمعت عيناه «لوكنت ياسيدى الشيخ تحب الدنيا لسقت اليك بدر الذهب والفضة ولكنى سارجع الى رايك فى كـل شئون ملكى ، فاقيم الشرع وانشر العدل واحيى ماامات الناس من سنة الجهاد ، فهذه بشارتك عندى »

ففرح الشيخ من حسن جوابه ، واستنار وجهه كانه القمر وقال :

«انك لصادق القول وصالح العمل ياقطز ، وانك لجديـر بان تكون ملك المسلمين » ، ثم رفع يديه الى السماء ، وقال :

« اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبـدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام ·· »

ولم يكد الشيخ يؤمن على دعائه حتى راى البكاء فى عينى قطز ، فظنه اول الامر يبكى من الفرح ، ولـكنه لم يلبث ان استخرط فى البكاء ورآه يزفر بشدة تكاد تشق صـدره وتقصم اضلاعه ، فدنا الشيخ منه وساله عما يبكيه ، فاجابه الشاب بصوت يخالطه النشيج « لقد علمت يقينا يامولاى الشيخ ان الله سيستجيب دعاءك لى فذكرت حبيبتى جلنار ، وعز على انى لن اراها ابدا ، فوددت لو دعوت الله لى ايضـا ان القاها فاتزوجها

فرق له الشيخ ، وسنحت على ثغره بسمة خفيفة ، ولم يقل له شيئا · بل عاد فرفع يديه الى السماء وقال : « اللهمان فى صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو الى الفها فى غير معصية لك ، فاتمم عليه نعمتك ، واجمع شمله بامتك التى يحبها على سنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم »

وما اتم الشيخ دعوته حتى جف دمع الشاب وسكن لاعج قلبه وطفق يتمتم « الحمد لله سالقاها ، سأتزوجها » ·

فقال الشيخ : « ان شاء الله » ·



الفصل التاسع



كان انصار الشيخ ابن عبد السلام قد صدعوا بامره من المضى فيما فرضه الله عليهم من دفع الباطل . فدأبوا على اغتيال من يقدرون عليه من الفرنج كلما دخل وفد منهم دمشق لشراء الاسلحة ، حتى ضاق صدر الصالح اسماعيل بهم . فكلما قبض على جماعة منهم ظهرت جماعة اخرى ، فلما اعياه امرهم بعث الى الشيخ من يهددونه بالقتل اذا لم يكف اذى جماعته . فاعرض الشيخ عمن جاؤوه ولم يزد فى جوابه لهم على ان قال « قونوا لمن بعثكم أتقتلون رجلاان يقول ربى الله ؟ »

وخشى الصالح اسماعيل من عاقبة قتله فرأى ان يطرده من بلاده ليكفى شره فنفاه ، وقبض على ابن الزعيم ففرض عليه غرامة كبيرة وصادر بعض املاكه ثم اطلقه لقوة شيعته وقبض على سواه ممن صح لديه انتماؤهم الى الشيخ ابن عبد السلام فسجن بعضهم ونفى بعضا وصادر اموال بعض .

وكان يوم خروج الشيخ باهله من دمشق يوما مشهودا . شيعه اهلها فيه بالبكاء والنحيب ، فسار يقصد مصر فعرج على

الكرك ، فاقام بها اياما عند صاحبها الملك الناصر داود ، استطاع فى خلالها ان يقنع الناصر بتأييده فى الخطة العظيمة التى يسعى لتحقيقها .

ولما قدم الى مصر اكرمه الملك الصالح ايوب وولاه خطابة جامع عمرو ، وقلده قضاء مصر والوجه القبلى ، فوجد الشيخ مجالا كبيرا للعمل . واخذ يحث الصالح ايوب عن كثب على التعجيل بقتال الصالح اسماعيل واحلافه الصليبيين

وبلغ الصالح اسماعيل اتفاق الناصر داود مع صاحب مصر بسعى ابن عبد السلام ، فندم على ان نفاه من بلاده ولم يكن قتله او ابقاه فى سجنه . وكان قد طابت نفسه واستراح باله بعد رحيل الشيخ ابن عبد السلام وتبدد شمل انصاره ، فاستقرت له الاحوال بدمشق ، وظن ان الثورة التى اشعلها الشيخ فى قلوب المؤمنين من اهلها قد انطفأت ولم يبق الا رمادها وما علم ان جذوتها باقية تحت الرماد تنتظر ريحا تكشف عنها فاذا هى حمراء ملتهبة . على ان اطمئنانه لم يدم طويلا اذ سرعان ما عصف به ما بلغه من اتفاق صاحب الكرك مع عدوه صاحب مصر .

اما السيد ابن الزعيم فكان قد حزن لرحيل صديقه وشيخه ابن عبد السلام عن دمشق . ولولا اشتباك مصالحه بها وارتباطه برجال عشيرته العديدين فيها للحق به فى مصر ، على انه تعزى بما اصابه الشيخ فى طريقه الى مصر من النجاح فى التوفيق بين صاحبها وبين الناصر داود ، وبما لقيه من الحفاوة والتكرمة عند الصالح ايوب ، وخفف من المه ايضا ان فى بقائه بدمشق ما يمكنه من القيام بعمل من الاعمال يعود بالخير على الفكرة التى تعاون مع الشيخ على الجهاد فى سبيلها .

ولم يكن قطز باقل حزنا من سيده لفراق الشيخ . وكان اشد اسفه على تلك الايام السعيدة التى تردد فيها على الشيخ فى معتقله حين كان يقوم بالوساطة بينه وبين انصاره متنكرا فى زى الحلاق ، فقد نعم فيها بخلوات جميلة معه افاض عليه فيها من روحه فيها ومن واسع علمه ما ملأه حكمة ويقينا ، وبصيرة

ى الدين ، ومعرفة بالحياة وغراما بالجهاد فى سبيل الله .

ولو لم ينل فيها من الشيخ الا الدعوتين العظيمتين اللتين دعا بهما له: «اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وآبائه السلام » ، والثانية الاحب الى نفسه « اللهم ان فى صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو الى الفها فى غير معصية لك ، فاتمم عليه نعمتك ، واجمع شمله بامتك التى يحبها على سنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » لكفتاه وكان قطز يحفظهما عن ظهر قلب ويعتز بهما ، وكثيرا ماكان يدعو بهما فى اثناء صلاته او بعدها الا انه كان يحذف من الدعوة الثانية كلمة (الصالح) . وكان لايخالجه شك فى ان الله استجابهما من الشيخ . وكلما تذكر منظره حين دعا بهما . وتوجهه الى ربه واخلاصه الدعاء ازداد يقينا بقبولهما وايمانا ، فقد شعر عندما انطلقتا من فم الشيخ كانهما اخترقتا حجب السماوات السبع وتردد صداهما فى جنبات العرش .

فلا غرو ان تبدل حال قطز منذ دعا له الشيخ ، فاضحى شديد الثقة بنفسه مبتهج الخاطر فى يومه ، قوى الرجاء فيما يدخره له الله فى غده من شرف الملك وسعادة الحب . واى شرف فى الدنيا اعظم من ملك مصر ، وأى سؤدد اكبر عند الله وأحب الى نفسه من هزم التتار ؟ ثم أى سعادة فى الحياة احلى فى قلبه من لقاء حبيبته جلنار ؟

وقد تعلم من الشيخ ان النعمة لاتدوم الا بالشكر ، فاذا كان هذا حال النعمة الراهنة التى فى قبضة اليد ، فما ظنك بالنعمة المنتظرة التى هى بعد فى ضمير الغد فليشكر نعمة الله التى يتقلب فيها ليزيده النعمة التى ينتظرها ويرجوها ، واساس الشكر التقوى ، وملاك التقوى الجهاد فى سبيل الله : جهاد النفس بكفها عن الاثام وردعها عن الشهوات وجهاد العدو بدفعه عن بلاد الاسلام .

وها ان ميدان الجهاد قد انبسط امامه . فهذا ملك دمشق قد خان الله ورسوله اذ اشترى حلف الكفار ليقاتل بهم المسلمين ، ونقدهم ثمنه من بلاد المسلمين ، وكلاهما اثم عند

الله كبير . وقد اخذ يجمع الجموع ، ويكتب الكتائب من الكفرة والفجرة ، ليغير بهم على بلاد مطهرة ، فما قعوده عن الجهاد . وما عذره يوم التناد ، يوم يقوم الاشهاد ؟

دخل قطز على سيده يريد ان ياخذ رايه فيما عزم عليه ، فقال له : « ياسيدى ياعز الناس على ، انك فى غنى عن خدمتى وما اشتريتنى ولا استبقيتنى الا لمنفعتى ، وقد رايتك لايعرض لك امران فى احدهما مصلحتك ، وفى الاخر مصلحة المسلمين الا آثرت ما فيه مصلحة المسلمين على مافيه مصلحتك فلو اذنت لى فخرجت اقاتل فى سبيل الله مع جيش مصر لرجوت ان ابلى بلاء حسنا ، فانى اجيد الطعان والضراب واحسن الركوب والرماية ، وقد نشانى خالى — رحمه الله — على الفروسية منذ صباى »

فقال ابن الزعيم وقد اهتز طربا لما رأى فى حماسة مملوكه للجهاد : « مرحى ياقطز ، مرحى ياسليل خوارزم شاه ! هذا والله دم الجهاد يثور فى عروقك . وما يكون لى ان اخمده ولكنى أرى ان تقوم بما هو انفع للمؤمنين وانكى على العدو من لحاقك بمصر لتزيد عدد جيشها رجلا واحدا . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحرب خدعة ، فاذا صح عزمك على بيع نفسك لله ابتغاء لمثوبته وخدمة لدينه ، فاصغ لما اقوله واتبع ما ارشدك للقيام به : اخرج فى غمار جيوش الصالح اسماعيل كانك واحد منهم ، حتى اذا تصاف الفريقان ، فصح باعلى صوتك فى الفريق الذى انت فيه بان جيش الصالح ايوب انما يقاتل الصليبيين الكفار ، وان جيش الصالح اسماعيل انما خرج مع الكفار لقتال المسلمين ، ثم اهب بالمسلمين من جيش الصالح اسماعيل ان ينحازوا لاخوانهم ليقاتلوا معا اعداءهم الكفار . وتقدم فانحز انت وجماعتك الذين سابعثهم معك من اخواننا المخلصين ، فسينحاز الباقون معكم ، وتدور الدائرة على هذا الملك الخائن واحلافه الفرنج ان شاء الله »

فقال قطز وقد اقتنع بسداد راى مولاه « رأيك الرأى يامولاى ، انا عبدك ساصدع بامرك »



قال له سيده « انما انت ابني وسافخر بك ماحييت • ولكن حذار يابني ان يتسرب منك هذا السر الى احد ، فان للصالح اسماعيل عيونا وجواسيس فى كل مكان»

فقال قطز « اطمئن ياسيدى فلن اخبر به احدا » واراد ابن الزعيم ان يضرب لمملوكه مثلا فى كتم السر فسأله « مارايك فى صديقك الحاج على الفراش ، اكتوم هو للسر امين عليه ؟ »

فاجابه غير مدرك مارمى اليه السيد بسؤاله « اجل يامولاى انه لكتوم امين »

فبدره السيد قائلا : « فاكتم هذا السر عنه ايضا ، واعلم ان عدوك لايفشى سرك وانما يفشيه الصديق ، افهمت مرادى ياقطز ؟ »

فقال قطز « نعم ياسيدى فهمت • ولك على عهد الله ان يقطع لسانى ولا ابوح بهذا السر لاحد ولا للحاج على الفراش »

وتكاملت جيوش الملك الصالح اسماعيل ، ووردت اليه عساكر حمص وحلب وجاءته كتب حلفائه الفرنج بانهم على اهبة للمسير لنجدته ، فخرج بعساكره من دمشق وسار حتى نزل بنهر العوجاء ، فبلغه ان الناصر داود قد سبقه الى البلقاء ليقطع عليه الطريق حتى ياتيه الجيش المصرى الذى كان فى طريقه الى الشام ، فسار اليه الصالح اسماعيل و حمل عليه بعساكره ، فلم يثبت لهم جيش الناصر لقلة عددهم وانهزم الناصر الى الكرك ، واستولى الصالح على اثقاله واسر جماعة من اصحابه وعاد الى العوجاء وقد قوى ساعده واشتدت شوكته •
وكان قطز وجماعته مندسين فى غمار الجيش لايعلم بامرهم احد ولم يصنعوا شيئا ، ينتظرون قدوم الجيش المصرى وخروج الفرنج للقائه •

وسار الصالح اسماعيل حتى وصل الى (تل العجول) حيث توافدت عليه جيوش حلفائه الفرنج من مختلف بلاد الساحل فانضموا اليه • واقاموا جميعا متربصين قدوم الجيش المصرى ليناجزوه القتال •

واقبلت طلائع الجيش المصرى ، فندب الصالح جيوشه للقتال ووضع جيش الصليبيين على ميمنته وعساكر حمص وحلب على ميسرته ، وجيش دمشق فى القلب وكان هو عليه • ولما تواجه الجمعان لم يشك الصالح اسماعيل وحلفاؤه الفرنج ان النصر سيكون لهم لما رأوا من قلة الجيش المصرى • ورأى رجال الجيش المصرى انهم قد اضاعوا الفرصة اذ جاءوا بعد انهزام الناصر داود فضعف رجاؤهم فى النصر واضطروا الى الثبات ليشاغلوا عدوهم ريثما تاتيهم الامداد من بلادهم والتحم القتال ، وكاد المصريون ان ينهزموا ، واذا بصوت يرتفع من صفوف الشاميين بين القلب والميسرة « يااهل الشام حى على النصر ، حى على الشرف ! »

فما شك عساكر الشام انه يحرضهم على قتال المصريين فتحمسوا له ، واذا بالصوت يرتفع ثانيا « يا اهل الشام : اتقوا الله فى نفوسكم لا تعرضوها لغضب الله • ان اهل مصر انما جاءوا ليقاتلوا الصليبيين الكفار ، وانتم تقاتلون اخوانكم المسلمين ، يأهل الشام توبوا الى الله انحازوا الى اخوانكم المسلمين فقاتلوا جميعا اعداء الله واعداء الشام ومصر ، قاتلوا الصليبيين ! »

ولم يكد قطز يتم كلمته حتى مرق من صفوف الشاميين وتبعته جماعته الى صفوف المصريين ، فما لبث الشاميون ان تسللوا من صفوفهم فى القلب والميسرة وانحازوا الى المصريين حتى لم يبق مع الصالح اسماعيل الا شرذام قليلة من حثالة جيشه •

وقد ظن المصريون اول الامر انها خدعة يراد بها تطويقهم فتقهقروا قليلا ريثما يتبينون حقيقة الامر • ولكن قطزا أدرك ماساور المصريين من الشك فتدارك الموقف اذ دفع جواده الى ميسرتهم تلقاء الصليبيين ، واشار للشاميين فتبعوه فاخذ يقاتل بهم الفرنج ، فعندئذ تحقق المصريون ان الامر ليس بخدعة • فجمعوا صفوفهم وتقدموا الى القتال جنبا الى جنب مع اخوانهم الشاميين ، فاوقعوا بالفرنج وقتلوا عددا كبيرا منهم

وانهزم جيش لاصالح اسماعيل ، وأما من بقى حيا من رجاله فلحقوا بدمشق ٠

وعاد المصريون الى بلادهم منتصرين وساقوا اسرى الفرنج معهم وتفرق اخوانهم الشاميون فمنهم من سار معهم الى مصر ومنهم من لحق بغزة التابعة لمصر ، ومنهم من لحق بالكرك عند الناصر داود

اما قطز فقد التمسه المصريون عقب انتهاء المعركة ليحتفلوا به ويعرفوا له ما صنع ، كما فعلوا بغيره من اخوانهم الشاميين ٠ ولكنهم لم يجدوه ٠ فظنوا انه قتل فى المعركة فبحثوا عنه فى القتلى فلم يقفوا له على اثر ٠ وقد سالوا الشاميين عنه ، فلم يعرفه منهم احد حتى النفر الذين انحازوا معه فى البداية قالوا لانعرفه ٠ وقد صدقوا فى هذا لان السيد ابن الزعيم لما ندبهم للخروج قال لهم انكم ستسمعون رجلا من انصارنا المخلصين يصرخ داعيا للانحياز فاذا انحاز فاتبعوه ولم يسم لهم ذلك الرجل ٠٠

فاختلفت آراء القوم فيه ٠ وتردد القول بينهم بانه روح من ارواح المجاهدين الاولين قد ظهر للناس ليوحد كلمة المسلمين ورجح بعضهم انه روح صلاح الدين الايوبى ٠ ولم يجزم بانه رجل من الاحياء ـ وان كانوا يجهلون اسمه ـ لاروح من الارواح الا اولئك النفر الذين بعثهم ابن الزعيم لينحازوا معه ٠ ولكنهم كتموا اتفاقهم مع ابن الزعيم عن الناس جميعا لئلا يصل خبره الى الصالح اسماعيل فيبطش بصاحبهم فتركوا القوم يهيمون ما شاءوا فى اودية الظنون ٠

ولم يعلم حتى هؤلاء النفر اين ذهب قائدهم المجهول اذ انسل من بينهم خفية حينما رأى انهزام الصليبيين وفرار الناصر ورجاله ، فعطف جواده ودفعه مشرقا فانطلق به كالسهم لايلوى على شيء الى ان ابتعد عن الميدان فمضى يطوى الارض طيا حتى وصل الى الكرك ٠ فقصد قصر الملك الناصر داود فبشره بانهزام الصالح اسماعيل واحلافه الفرنج ٠ فاكرمه الناصر وخلع عليه وهو لايعلم عنه شيئا الا انه احد الشاميين الذين انحازوا الى المصريين قد بعثوه بشيرا بالنصر

ولما انصرف من عند الناصر وخرج على جواده من باب المدينة تردد حينا اى صوب يتوجه ، فقد اشتد به الشوق الى مصر ٠ وعظم حبها فى قلبه واحس انها وطنه المختار دون سائر بلاد الارض ، فقوى ميله الى التعجيل بالسفر اليها ٠ لولا ان تذكر سيده ابن الزعيم بدمشق فعز عليه ان يتوجه الى مصر بغير اذنه ٠ وشعر انه ان فعل ذلك كان كالعبد الآبق من سيده ٠ وهو وان كان يعلم حب سيده له ، وايثاره مصلحته على مصلحة نفسه ، الا انه لا يرى من الصواب ان يبت فى مثل هذا الامر الخطير قبل ان يستاذنه ، ويحصل على موافقته

وما لبث ان لوى عنان جواده متوجها تلقاء دمشق

فرح السيد ابن الزعيم برجوع مملوكه سالما اليه ،واثنى على كفايته فى تادية المهمة التى كلفه القيام بها ، فشكره قطز قائلا ان الفضل فى ذلك راجع الى سيده لما احسن من تربيته ،وغرس فيه من حب العمل الصالح ٠ ثم عرض عليه ميله الى الرحيل الى مصر ، ليلتحق فيها بخدمة الملك الصالح ايوب ، لعله يستطيع ان يقوم فيها بعمل يرضى الله ويخدم به الاسلام تحت ارشاد شيخه ابن عبد السلام ٠ فقال له سيده انه لايسعه الا ان ياذن له بذلك وان كان فراقه عزيزا عليه ٠ وعرض عليه ان يكتب له بعتقه ، فرجاه قطز ان لايفعل ، وتوسل اليه ان يبعث معه من يبيعه لسلطان مصر ، فينتظم بذلك فى سلك مماليكه ٠ فلم يصعب على ابن الزعيم فهم مراده ، اذ كان يعلم ما يجول فى خاطر مملوكه الشاب ، وما يحلم به من الصعود الى المناصب العالية فى مصر٠ وهو يذكر رؤياه العظيمة ٠وما اوحت اليه من الطموح الى الملك ليحقق به امله فى الحكم الصالح ٠ولا ينسى دعوة الشيخ ابن عبد السلام له بان يحقق الله امله هذا العظيم ، وامنيته فى لقاء حبيبته المالكة عليه لبه ٠ ولا يستبعد ابن الزعيم نفسه ان يبلغ هذا الشاب القوى الامين ، ما يطمح اليه لما عرف فيه من الخلال التى تؤهله لما يريد ٠

وما هى الا ايام حتى تجهز قطز للمسير فودعه سيده بدموعه الحارة ، وتعانقا عناقا طويلا ، بث كلاهما فيه مايكنه للاخر



واشتجرت فيه عواطف الحب والحنو بعواطف الولاء وعرفان الجميل

وسير معه ابن الزعيم خادمه الامين الحاج على الفراش ليرافقه فى الطريق وليبيعه في مصر للملك الصالح ايوب ولا يبيعه لاحد غيره ، واوصاه ان يقدم ثمنه لصديقه الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، يتصرف فيه كما يشاء ٠

وقبل ان يغادر الرفيقان درب القصاعين بدمشق، التفت قطز فالقى نظرة على قصر سيده ابن الزعيم ٠ ثم القى نظرة اخرى على قصر مناوح له قد خيم عليه السكون ، وسادت فيه الوحشة وكانت له فى كل شرفة من شرفاته ذكرى مع حبيبته جلنار ولما خرجا من باب المدينة ، وجازا رياض الغوطة الغناء ، جعل قطز يقول : « ما اقصاك عنا يادمشق ، وما ادناك منا يا مصر »

الفصل العاشر



كان قطز قد بيع للملك الصالح أيوب كما أراد ، بيد أنه لم يلبث عنده الاقليلا حتى وهبه الملك الصالح لعز الدين أيبك الصالحي احد أمراء مماليكه الاثراء عنده ، فاغتم قطز اول الامر وحسب ذلك من سوء طالعه أن يوهب لمملوك مثله ، ولكنه ما لبث أن لقى من ثقة هذا الامير المملوك واعتماده عليه واصطفائه له ــ فوق ما رأى من نفوذه العظيم عند مولاه الملك ــ ما أعاد الاطمئنان اليه فأحبه وأخلص له ٠

ولم يصطفه عز الدين أيبك الا بعد أن بلا من شجاعته وأمانته وصدقه ما جعله جديرا بثقته واصطفائه ٠ فقد كان الامير أيبك ــ كغيره من أمراء مماليك الصالح ــ معنيا باصطناع الرجال الأمناء واصطفاء الأتباع المخلصين وشراء ودهم وولائهم ليتقوى بهم على منافسيه فى السلطة ومنازعيه الحظوة عند مولاهم ٠ وكانوا فى ذلك يحذون حذو استاذهم الملك الصالح ايوب ،فكما استكثر من المماليك ، واربى فى ذلك على كل من سلف من ملوك اهله ، حتى بنى لهم القصور فى جزيرة الروضة ، وأغدق عليهم النعم وآثرهم على من سواهم بالمناصب والرتب ، ليتقوى بعصبيتهم له على من ينازعه الملك

من اخوانه وأبناء عمومته من الامراء الايوبيين ، كذلك فعل أمراء مماليكه نسجا على منواله ، فأخذ أحدهم يستكثر من المماليك ويصطنع الأتباع والأشياع ليشتد بهم ساعده ويكونوا له قوة على من سواه من الأمراء . وقد اصطلحوا على تسمية المماليك التابعين لمالك واحد ـ أو أستاذ واحد على اصطلاح ذلك العصر ـ خشداشية ، كل منهم خشداش أخيه أى زميله أو قرينه . وتقوم هذه الصلة بينهم مقام القرابة ولحمة النسب ، اذ لا قرابة بينهم ولا نسب فقد جلبوا من امم شتى وأصقاع مختلفة .

وكان قطز من أول ما وطىء أرض مصر موكل القلب بالبحث عن حبيبته جلنار . وقد فكر كثيرا فى الطريقة التى يتمكن بها من الاهتداء اليها ، فظل زمنا يتصفح وجوه الناس لعله يجد بينهم شخصا من معارف سيده القديم الشيخ غانم المقدسى ممن قد رآه عنده فيسأله هل رأى جلنار أو سمع بها فى مصر ، ولكنه لم يلق أحدا منهم . ثم خطر بباله أن يغشى سوق الرقيق بالقاهرة لعله يجد احدا من النخاسين يعرف عنها خبرا ،فجعل يتسلل من مولاه ويتردد على سوق الرقيق ويسأل كل قادم من تجاره عن جارية تدعى جلنار فلا يعرفها له أحد .

وبينما هو واقف فى السوق ذات يوم اذ مر به شيخ قد اشتعل رأسه شيبا غير أنه لم يزل به فضل من القوة والنشاط ومعه عدد من الغلمان والعبيد يريد بيعهم ، فراعه أن الشيخ وقف عن مشيه لما رآه ، وأخذ ينظر اليه ، ويتفرس فى وجهه ، ثم اقترب منه فدعاه باسمه فعجب قطز وبقى حائرا ينظر اليه فقال له الشيخ « أنسيتنى يا قطز ؟ » فقال له قطز : « لا أذكر أنى عرفتك فمن أنت ؟ » فتأوه الشيخ قائلا « أجل انك ما عدت تعرفنى لأن الايام قد غيرت معالم وجهى ، أما تذكر جبل الاكراد وسوق الرقيق بحلب ؟ » وما اتم الشيخ كلمته حتى تذكر قطز النخاس الذى اشتراه من اللصوص فى جبل الاكراد وباعه فى حلب ، فتبين له أنه هو عينه ، فصافحه

قطز بحرارة وشوق وجعلا يتحدثان عما فعلت الايام بهما منذ افترقا فى حلب ، وسأله النخاس فيما سأله اين هو الان وفى خدمة من من الامراء أو الملوك . فأجابه قطز بأنه فى خدمة الامير عز الدين أيبك الصالحى جاشنكير الملك . فسأله عن حاله عند أستاذه ، فأخبره بأنه سعيد عنده ومقرب اليه ، ففرح النخاس وقال فى لهجة المفتخر « ان يدى مباركة على مماليكى فما بعت منهم أحدا الا صار له بعد ذلك شأن عظيم » وجعل يعدد طائفة من الامراء والمماليك ويقول انهم كانوا تحت يده فأصبحوا اليوم من أركان الدولة . ثم قال له « أتذكر رفيقك القبجاقى الأشقر بيبرس ، ذلك الغلام الشقى الأباق ؟ » .

فخفق قلب قطز لما تذكر ذلك الغلام الازرق العينين الذى بيع معه فى سوق النخاسة بحلب فقال لسائله « بيبرس .. بيبرس .. نعم أذكره . أين هو الآن ؟ » .

فابتسم التاجر وقال : « ألم تلقه ؟ ألم تعرفه ؟ انه اليوم خشداش لاستاذك تحت امرته خمسون فارسا » .

فسكت قطز كأنه يتعرف خشداش أستاذه هذا ، فظن التاجر أنه غار من رفيقه فمضى يقول : « انه سبقك يا قطز ألبس كذلك ؟ ولكن لا تبتئس فستكون مثله وخيرا منه » فقال له قطز : « كلا ، ليس بى ما ذكرت ، ولكنى لم أر هذا الشخص فى خشداشية أستاذى » .

« لعلك رأيته فما عرفته ، لقد أصبح اليوم شابا كبيرا طويل القامة ، ولكن سل أستاذك عنه ، سله عن ركن الدين بيبرس البندقدارى يدلك عليه » ثم حياه مودعا معتذرا بشغله وقال له : « اذا شئت أن ترانى فسل عنى موسى بن شاكر العطار فى سوق العطارين » ، وأراد الانصراف فاستوقفه قطز قائلا : « معذرة ، انك حدثتنى عن رفيقى بيبرس ولم تحدثنى عن رفيقتى جلنار ، أما تعرف أين هى ؟ » .

فقال له التاجر : « من أين لى أن أعرفها ؟ انى قد أعرف الغلمان الذين بعتهم ، أما الجوارى فتحجبهن عنى القصور !



ألم تكن معك عند الوجيه الدمشقى ؟ » .

« بلى ؟ ولكنهم باعوها بعد وفاته لرجل من مصر » .

« ان مصر كبيرة يا بنى وليس من اليسير عليك أن تهتدى اليها » فلم يشأ قطز أن يستوقف الرجل أطول مما فعل ، فودعه وانصرف .

ولما رجع الى دار أستاذه سأله عن ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فقال له أستاذه : « دعك منه فانه من جماعة فارس الدين أقطاى الجمدار » وكان قطز يعلم ما بين عز الدين أيبك وفارس الدين أقطاى من عداوة وتنافس ، فلم يشأ ان يخفى على مولاه السؤال عن بيبرس ، وصرف الحديث عنه .

ثم ظل بعد ذلك يبحث عن بيبرس البندقدارى حتى دل عليه ، فوجده يوما جالسا مع جماعة من كبار المماليك الصالحية المتشيعين لأقطاى الجمدار ، فانتظره حتى قام من عندهم ، فلقيه قطز مبتسما مادا اليه يده ليصافحه ، فانكره بيبرس وقال له بلهجة خشنة : « من أنت يا هذا ؟ أنا لا أعرفك » .

فقال له قطز : « أنا رفيقك يا بيبرس ، أنا قطز » .

« ما أعرف لى رفيقا اسمه قطز ، اذهب يا هذا لعله شبه عليك » .

« انسيت ذلك الغلام الذى كان معك فى دار النخاس بحلب والذى كان يطعمك من حلواه ، ويشركك فى ادامه ؟ » .

فصاح بيبرس : « قطز ! انت قطز ! » ومال على رفيقه فاعتنقا ثم قال له بيبرس : « وأين أختك تلك الصغيرة التى كانت معنا ؟ » .

« جلنار ! ؟ »

« أجل جلنار .. أين هى ؟ »

فتنهد قطز وقال « انها لست باختى ولكنها قريبتى ، وقد كانت معى بدمشق ثم بيعت لرجل من مصر » وهنا لم يملك قطز دمعه ان استعبر .

فعجب بيبرس من أمره وقال له : « ماذا يا قطز .. أتحبها ،

فأجابه قطز : « نعم .. انى احبها ... انى احب جلنار ، اما رأيتها هنا أو سمعت بها قط يا بيبرس ؟ » .

فرق له بيبرس وقال له : « انى لم اسمع باسم جلنار هنا ، ولو رأيتها لما عرفتها ، فلا بد أنها قد أصبحت شابة كبيرة » ، وسكت هنيهة ثم نظر الى رفيقه ضاحكا ، وجعل يضرب على منكبه ويقول له : « هون عليك يا قطز ، فسترى أن الجوارى الجميلات هنا لا يحصيهن عدد » .

قال له قطز : « انى لا أحب غير جلنار ، ولا أريد أن أعرف أحدا سواها » .

فأجابه بيبرس وهو على حاله تلك من الضحك والاستهتار « دعك من هذا ، طيب خاطرك يا صديقى ، فسأعرفك بعشرات من الجوارى الحسان تختار منهن من تحب . فقل لى أين أنت فانى أحب أن أراك وأجلس معك فأقول لك أشياء كثيرة وأسمع منك أشياء كثيرة » .

فقال له قطز « انى فى خدمة أستاذى الامير عز الدين أيبك » .

فنضبت البشاشة التى كانت على وجه بيبرس وأدرك قطز سبب ذلك وأراد أن يقول لصاحبه شيئا ولكن بيبرس سبقه قائلا : « ما يضرنا أن يكون أستاذك عدوا لصديقى فارس الدين أقطاى ، فانا صديقان قبل أن نعرفهما . ولولا انى أطمع فى رتبة أنالها من وراء هذا الاحمق المتكبر لتركته . والله يا قطز انى لست دونه فى شىء ولكنه سبقنى فى الخدمة بسنوات » .

وهكذا توطدت الصداقة بين هذين المملوكين الشابين على ما بينهما من تفاوت فى الرتبة وتباين فى المزاج والأخلاق . فكانا يخرجان للصيد معا ويسمران فى كثير من الليالى ، ولا يفترقان الا على موعد .

وأصبح عز الدين أيبك لثقته بتابعه قطز يبعثه برسائله ووصاياه الخاصة الى السلطان ، فصار قطز يتردد على قلعة الجبل يذهب برسالة ويعود برسالة ، حتى أصبح معروفا عند

رجال القصر السلطاني وحرسه ، موثوقا به مأمونا جانبه ، فكان ينطلق كما يشاء في دهاليز القصر وممراته دون أن يصحبه حارس أو رقيب وذات يوم بينما كان عائدا من القصر مارا بالدهليز الذي تطل عليه مقصورة الملكة شجر الدر · حظية السلطان وزوجته · اذ بوردة تسقط قدامه في الدهليز: فوقف هنيهة ينظر اليها ، وهم بالتقاطها ، ولكنه خشي من ذلك فتركها ومضى في سبيله · وعاد يوما آخر فلما بلغ ذلك الموضع عند منصرفه من القصر سقطت أمامه وردة ثانية كأختها الاولى فعجب من أمرها وتحقق أنه مقصود بها وأنها لم تقع أمامه اتفاقا ، فنازعته نفسه أن يرفع طرفه الى المقصورة ليرى الشخص الذي القاها · ولكنه تهيب ذلك لما سمع عن الملك الصالح أيوب من شدة الغيرة على نسائه وجواريه · وما يدريه أن لا تكون هذه تجربة أريد بها ابتلاء أمانته واستقامته ، وأن لا يكون الشخص الذي القاها هو السلطان نفسه واقفا مع زوجته شجر الدر ، فسرت في مفاصله رعدة شديدة عندما خطر له هذا الخاطر فطرد من نفسه حتى الهم بالتقاطها ، وخشي حتى النظر اليها فمضى منطلقا في طريقه ·

وبقي قطز اياما وليالي يفكر في أمر الوردة ويذهب في تفسيرها كل مذهب · وود أن يخبر أحد أصدقائه أو خشداشيته بما شهد من هذا الامر العجيب ، ولكنه خاف أن يكون في ذلك افشاء لسر من أسرار القصور ، فعدل عنه وعزم على الاحتفاظ بهذا السر حتى ينكشف له من تلقاء نفسه · وظل ينتظر اليوم الذي يبعث فيه الى القصر بفارغ الصبر · حتى جاء اليوم المنتظر فذهب بقلب خافق يتنازعه الخوف والقلق والتطلع وتلعب به الهواجس المختلفة فتضطرب به بين الاقدام والاحجام ، فلما وقعت الوردة أمامه في هذه المرة الثالثة اشتد خفوق قلبه ، واضطرب جسمه اضطرابا عظيما ، وعراه ذهول أفقده التماسك ولم يستطع اتقاءه الا بابعاد ذلك الشيء الذي سبب له ما هو فيه · فخلص من ذلك الدهليز مندفعا في طريقه ، غير شاعر بأنه قد التقط الوردة ورماها في جيب

قميصه ليخفيها عن عينيه الزائغتين ، وهبط من درج القلعة الكبير ملتاث الخطى ، يريد أن يقع على وجهه لولا حافظ من الاندفاع السريع عادل بين حركاته وستر ما بينها من التفاوت والاختلاف · والعرق يتفصد من جبينه ويسيل بين ثيابه فلو رآه أحد لانكره ·

ولما خلا بنفسه في غرفته ، وأدار قميصه ليمسح عن صدره العرق وجد الوردة في جيبه ، فعجب كيف لم يتذكر أنه التقطها · ونظر فيها مليا ، كأنه يستنطقها سرها ، واذ خطر له أنها ربما ألقتها جارية عابثة من جواري القصر تريد أن تغازله وتفتنه ، رماها من يده كأنه شيء يشمئز منه ، وانه لكذلك اذ سنح بخاطره ان الفاعل ربما يكون حبيبته جلنار ، قد ساقتها الاقدار فجعلتها من جواري القصر ، فهب من ضجعته واستوى جالسا على جانب سريره ، وجعل يحدق في الزهرة الملقاة على الارض ، فخيل اليه أنها تبتسم له ابتسامة حزينة ، تشبه تلك الابتسامة الخالدة في قلبه ـ ابتسامة جلنار يوم قدم اليها من نابلس ، وعجب من نفسه كيف لم يخطر بباله هذا الظن من قبل ، على طول تفكيره فيها ، وملازمة خيالها له ، وعلى كثرة ما هام في شوارع القاهرة ودروبها ، وجاس خلال قصورها ودورها ، راميا بصره نحو شرفاتها ، منقلا طرفه بين شبابيكها وكواها ، طمعا في أن يلمحها ويعثر على مقرها من تلك المدينة العظيمة ، حتى كلت قدماه ، وتعبت عيناه ، ووجعت أخادعه ·

وقام الى الزهرة فالتقطها ، وجعل يقبلها ويدنيها من صدره فعل المحب أنكر من حبيبته شيئا فهجره ، فلم يطق تجنبه ، وجاشت به الذكرى وغلبه الحنين ، فعاد الى الحبيب يستعتبه ثم التفت ذهنه الى قلعة الجبل فأخذ يسائل نفسه : أيمكن أن تطوى تلك القلعة الشامخة بين جدرانها الهائلة أمليه العظيمين اللذين يحلم بهما طول حياته : ملك مصر وجلنار ؟ ثم كر راجعا على نفسه يلومها في أخذها بالوهم العابر ، وسكونها اليه ، كأنما حسبه أن يتوهم الشيء فيكون ، وأن يفترض أنها حبيبته

جلنار فيستحيل في الدنيا أن ترمي الوردة جارية عابثة من جواري القصر . أليس الاجدر به أن يصبر على الحقيقة حتى تسفر عن نقابها ، وعلى الوردة الصامتة حتى تشي بصاحبتها ؟ فليتريث ، وليختبر الامر على مهل حتى يتبين وجهه ، ولكن احترس يا قطز فانك في مأوى الاسد !

ولم يطل بقطز الانتظار في هذه المرة ، اذ بعث الى قلعة الجبل من غد ذلك اليوم ، فذهب وقد نوى أن يسترق النظر الى المقصورة اذا وقعت – وهو يرجو ان تقع ايضا – وردة أمامه ليرى من يلقيها . وقد شجع من قلبه وسكن من جاشه رجاؤه أن تكون صاحبة الوردة هي حبيبته جلنار .

ووقعت الوردة الرابعة ، فرفع بصره ، فرآها وعرفها ، وابتسمت له ، فابتسم لها ، ثم اختفت ، فانطلق لسبيله ومضى !

وصار قطز بعد ذلك يراها كلما صعد الى القلعة ، فيعود منها فرحا ، كأنما ملك الدنيا . واستيقظت في قلبه ذكريات الحب القديم ، واستبد به الشوق ، وغلبته نشوة الظفر ، فلم يطق أن يبقى منطويا على كل ما يضطرب في صدره من لواعج الحب ، ونوازع الحنين ، ونوازي الفرح ، واشتاق الى صديق يبثه ذات صدره ، فيشاطره فرحه ، ويحمل عنه بعض همه ، فذهب الى صديقه بيبرس فأخبره بأنه عثر على حبيبته جلنار وأنه رآها في قصر السلطان من مقصورة الملكة شجر الدر ، وقص عليه كيف تم ذلك ، فلم يجد عند بيبرس طربا لهذا الخبر كأن لسان حاله يقول : « أي شيء في هذا ؟ وماذا يغنيك أن ترى جارية ترمي لك بوردة من شرفة عالية في قصر السلطان لا سبيل الى الوصول اليها ؟ » .

وأخذ بيبرس يصرفه عن ذلك ، ويخوفه من التعرض لجواري القصر ، ويذكر له ما عرف عن السلطان من شدة الغيرة على نسائه وجواريه ، ويقول له : ان في غيرهن مندوحة عنهن ، وجعل يسفه رأيه في شدة التعلق بجارية واحدة مثلها في النساء كثير ، فرأى قطز أن لا فائدة في الكلام مع من لا

يعطف على شعوره ، ولا يستطيع أن يعرف أن في الدنيا شيئا اسمه الحب ، تختلف به النساء الحسان في عين صاحبه عن حبيبته المصطفاة .

وكان قد انقطع زمنا عن زيارة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، نزولا على أمر استاذه عز الدين أيبك ، منذ تغير ما بين الشيخ وبين السلطان فاستقال من منصبه في القضاء واعتزل الناس فما يرى الا يوم الجمعة يخطب على منبر جامع عمرو ، وذلك ان الصاحب معين الدين وزير السلطان بنى غرفة له على سطح مسجد يجاور بيته ليتخذها مقعدا له يقابل فيه أصدقاءه ، فأنكر ذلك عليه الشيخ ابن عبد السلام وامره بهدم ما بنى ، فلم يفعل ، فشكا أمره الى السلطان فتغاضى عنه ، فما كان من الشيخ الا أن غضب لدينه وقال كلاما شديدا في السلطان ومضى بنفسه وأولاده يحملون المساحي والفؤوس حتى هدم البناء ونقل ما على السطح ، ثم أشهد على نفسه أنه قد أسقط شهادة الوزير فلا تقبل له شهادة ، وأنه قد عزل نفسه عن القضاء ، وجهر بأنه لا يتولى القضاء لسلطان لا يعدل في القضية ولا يحكم بالسوية ، وهكذا أرسلها العالم العظيم كلمة خالصة لله قوية مجلجلة ! ولم يثنه عن قولها ما كان بينه وبين السلطان من سابق الود ، فما جهر بكلمة الحق في وجه القوة بدمشق ليسكت عنها بمصر ، ولو ارتضى لنفسه مصانعة الملوك على حساب دينه كما يصنع غيره ممن لاخلاق لهم من العلماء لما نفته دمشق ولكان له فيها ما يريد من الثراء الواسع والجاه العريض .

ولكنه آثر الله والدار الآخرة ، وما عند الله خير وأبقى ، وقد سعى جماعة من حساده – ومثله لا يخلو من الحساد – عند الملك الصالح أيوب ، وجعلوا يوغرون صدره عليه ، ويقولون انه لا يثني عليه في الخطبة كما يفعل غيره من خطباء الجوامع وانما يدعو له دعاء قصيرا ، فردهم السلطان بغيظهم وقال لهم : « دعوه فاني الى دعائه القصير لاحوج مني الى الثناء الطويل من غيره ، وما عزلته عن القضاء وانما عزل نفسه »

ولو قبل أن يعود اليه لأعدته ، وما يملأ عينى من العلماء غيره فاياكم أن تعودوا للسعاية عندى بابن عبد السلام ! » .

فاشتاق قطز أن يرى شيخه ليبثه ما فى قلبه ، ويسترشد بنصيحته ، فزاره سرا ففرح به الشيخ ولكنه نصحه أن لا يعود اليه لئلا يتغير عليه أستاذه اذا بلغه أنه يخالف أمره . ووعده بأنه سيدعو الله له فى سره ، وأوصاه بالصبر على ما ابتلى به حتى يجعل الله له مخرجا فيجمع شمله بحبيبته على ما يحبه الله ويرضاه ، ورجع قطز من عند الشيخ بقلب راض ونفس مطمئنة ، ولبث دهرا يكتفى من حبيبته بالنظرة العجلى وبالاسبوع تنقضي أوائله وأواخره لا يراها الا مرة أو مرتين حين يصعد القلعة فى حاجة لسيده .

ولكن الواشى درى بأمر الحبيبين فما قرت بلابله ، فقد علمت بعض وصائف شجر الدر بما كان يدور فى السر بين الوصيفة جلنار وبين مملوك الامير عز الدين أيبك فوشين بها الى سيدتها .

فتربصت الملكة حتى رأت بعينها صدق الوشاية ، فعاتبت جاريتها على ما صنعت وتوعدتها بأن ترفع امرها الى السلطان اذا هى عادت لما نهيت عنه ، فلم تجب المظلومة بغير دموعها وسكتت على مضضها ولم تستطع أن تدلى بحجتها فى حب ابن عمتها وأليف صباها ، ومن ذا كان يصدقها لو فعلت ؟ ومتى سمع الناس فى الدنيا حجة قط لعاشقة ؟

وبعثت الملكة الى عز الدين أيبك بما كان من مملوكه ، وأوصته أن يتخذ رسولا غيره الى القلعة حفظا لحرمة السلطان الغيور واتقاء لغضبه . فصدع عز الدين بأمرها وتلطف بمملوكه العزيز ، فعاتبه عتابا جميلا على ما كان منه ، وأوصاه أن يتقى ذلك الحرم وهو فى حل بعد ذلك ان يلهو كما يلهو الشباب .

فبكى المملوك المظلوم ولم يستطع أن يدلى بحجته فى حب ابنة خاله وأليفة صباه ، ومن ذا كان يصدقه لو فعل ؟ ومتى سمع الناس فى الدنيا حجة قط لعاشق ؟

وهكذ حيل بين الحبيبين ، وبين ما كانا يتمتعان به من

النظرات البريئة ، والبسمات الطاهرة ، وضرب بينهما بالاسداد ، فبكيا ما شاء الله أن يبكيا ، ولكن الامل قد انتعش فى قلبيهما ، فعزاهما بعض العزاء ، ولبثا عائشين على هذا الامل ينتظران فرجا من الله يرجوان أن يكون قريبا ، وظل قطز فى خدمة سيده كما كان ، ولم يفقد من حظوته عنده وثقته به شيئا ، غير أنه لم يعد يحمل رسائله الى القصر .

ومرت السنون تباعا وتوالت الاحداث وطفق الملك الصالح أيوب يجرد الحملة تلو الحملة ، ويبعث القائد بعد القائد من أمراء مماليكه ، ليطهر بلاد الشام ويضمها الى سلطانه ، فاستولى على غزة والسواحل والقدس ، ثم سلمت له دمشق ، وهرب عدوه الصالح اسماعيل ، فلحق بحلب حيث استجار بحليفة الملك الناصر صلاح الدين فأجاره .

كان الملك الصالح أيوب شعلة من النشاط ، لا يهدأ ولا يفتر ولا يستريح من العمل الدائب فى توسيع رقعة ملكه ، وتنظيم بلاده وتجميلها ، فقد عمر فيها من الابنية والقصور والقلاع والجوامع والمدارس ما لم يعمر أحد من سلفه مثله ، حتى وهنت قوته ، وساءت صحته ، فقرر الانتقال الى دمشق ليستشفى بهوائها عملا بنصيحة أطبائه حتى يبرأ من علته .

وانتقلت معه الملكة شجر الدر ، وانتقلت مع الملكة حاشيتها ووصائفها وفيهن جلنار الحبيبة ، ترى ماذا كان شعور قطز حين فصل الركب السلطانى من مصر يؤم بحبيبته البلد الذى ارتضعا به أفاويق السعادة معا فى قصر يناوح قصر سيده ابن الزعيم ؟ ترى هل يمر الركب بذلك القصر ؟ وهل تذكره جلنار فتتطلع اليه من سجف هودجها بعينين دامعتين .. ؟ وهل تقع عيناها على قصر آخر قريب منه لا تعلم انه حنا على حبيبها يوم اضطهده موسى فى قصر أبيه ؟



الفصل الحادى عشر



شعر الصليبيون بالخطر الذى يتهدد اماراتهم بالشام من جراء حملات الملك الصالح نجم الدين أيوب وانتصاراته ، فأرادوا أن ينتهزوا فرصة اقامته بدمشق بعيدا عن عاصمة ملكه ليغيروا على مصر بسفنهم من البحر ، وكاتبوا لويس التاسع ملك فرنسا فى ذلك واتفقوا معه على أن يبحر الى الشرق ويقود بنفسه حملة صليبية كبيرة بأساطيل عظيمة وجيوش عديدة يهجم بها على مصر .

فلما سمع المسلمون بذلك خافوا واشفقوا على الاسلام أن تقهر قوته فى هذا المعقل الحصين من معاقله ، وبرز الشيخ ابن عبد السلام من عزلته فتزعم حركة الدعوة الى الجهاد فى سبيل الله ، وحض الامراء على الاستعداد لملاقاة المغيرين ودفعهم عن بلادهم ، ونسى ما بينه وبين السلطان من الخصومة فكتب اليه أن يسرع بالرجوع الى مصر لئلا تفتح بلاد المسلمين وسلطانهم لاه باستشفائه ، وكان مما قال له فى كتابه « ان الاسلام فى خطر وصحة السلطان فى خطر ، والاسلام باق والسلطان فان فى الفانين . فلينظر السلطان أيهما يؤثر » .

فلما قرأ السلطان كتابه بكى وعجل بالرحيل فعاد الى مصر محمولا على محفة لشدة مرضه ، ولم يقصد القاهرة بل نزل توا باشمون طناح « أشمون الرمان » فى قصر له هناك ليكون على قرب من خط الدفاع ، ولم يسترح من عناء السفر بل أسرع

فشحن دمياط بالاسلحة والاقوات استعدادا للدفاع . وبعث الى نائبه بالقاهرة أن يجهز الشوانى من صناعة مصر ، فشرع فى تجهيزها وسيرها فى النيل شيئا بعد شىء ، ثم سير السلطان العساكر الى دمياط وجعل عليها قائده الامير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ .

وأقبلت أساطيل الفرنج تحمل جموعهم العظيمة بقيادة ملك فرنسا ، وانضمت اليهم سفن فرنج ساحل الشام كله ، فأرست فى البحر بازاء المسلمين ، وسير ملك الفرنج الى السلطان كتابا كله وعيد وتهديد

فلما قرىء هذا الكتاب على السلطان اغرورقت عيناه بالدموع ، لا جزعا من غارة الفرنج وتهديدهم ، بل أسفا وحسرة ان يحول مرضه المدنف دون ما تشتهى نفسه من كمال الاضطلاع بدفع هذا الخطب العظيم .

وما لبث الفرنج أن أنزلوا جيوشهم فى البر ، وضربت لملكهم خيمة حمراء فجرت مناوشات بينهم وبين المسلمين وقعت على أثرها زلة من قائدهم الامير فخر الدين اذ سحب العساكر ليلا من دمياط فارتاع أهلها فتركوا ديارهم وخرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل فارين الى أشمون بمن معهم من الاطفال والنساء حتى لم يبق بالمدينة أحد ، فدخلها الفرنج فى الصباح واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والاسلحة والعدد والاقوات والذخائر والاموال والامتعة غنيمة باردة ، وبلغ السلطان ذلك فغضب غضبا شديدا ، وقال للامير فخر الدين « ويلكم أما قدرتم أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج ؟ » وأمر توا بالرحيل الى المنصورة ، وحمل فى حراقة سارت به على البحر الصغير حتى أنزل بقصر المنصورة على النيل ، وأمر عساكره فشرعوا فى تجديد الابنية للسكنى بالمنصورة وأقيمت بها الاسواق وأصلح السور الذى على بحر النيل وستر بالستائر ، وأقبلت الشوانى المصرية بالرجال المقاتلة والعدد الكاملة ، وانثال الغزاة المجاهدون والرجال المتطوعون من عوام الناس الذين لبوا دعوة الجهاد فى سبيل الله والوطن ، فأقبلوا

من كل حدب ينسلون ، وجاءت جموع من العربان فأخـــذوا
يشنون الغارات على الفرنج ويناوشونهم .
ولكن العلة قد اشتدت على السلطان ، وأحس بدنو الاجل ،
فما أذهله ذلك عن التفكير فى مصلحة الدين والوطن ، فأوصى
زوجته شجر الدر ومن يثق بهم من رجاله ان يكتموا موته اذا
مات لئلا تضطرب قـلوب المسلمين وتذهب ريحهم ، وأمضى
بيـــده عشرة آلاف امضاء على ورق خال ليستعان بها فى
المكاتبات على كتمان موته حتى يقدم ابنه وولى عهـــده توران
شاه من حصن كيفا .

وأسلم الملك الصالح روحه الى الله وهو يذكره ويساله أن
ينصر عباده المسلمين ويحمى بيضة دينه ، وما عنده الا زوجته
وطبيبه ، وحزنت شجر الدر على زوجها العظـيم وحبيبهـا
المخلص ، ولكنها حبست دمعها ولم تدع الحزن يطغى عليهـا
فينسيها وصية زوجها فى الاحتياط لمصلحة الـدولة وحفظ
شمل المسلمين مجتمعا وهيبتهم فى صدور أعدائهم وافرة ،
فتركت جثة السلطان للطبيب يتـولى غسلها وتحنيطهـا ،
وأحضرت الامير فخر الدين والطواشى جمال الدين فنعت اليهما
السلطان ووصتهما بكتمان موته خوفا من الفرنج ، ورسمت
لهما الخطة التى يجب عليهما انتهاجها ثم استقدمت الامـراء
الذين بالمعسكر وقالت لهم ان السلطان قد رسم بأن تحلفوا له
ولابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون
سلطانا بعـده ، وللامير فخر الدين بالتقدمة على العساكر
والقيام بالاتابكية وتدبير المملكة ، فقالوا جميعا سمعا وطاعة .
واقسموا يمين الولاء قاطبة .

وأخذت شجر الدر تدبر الامور وتصدر الاوامر حتى لم يتغير
شىء ، اذ بقى الدهليز السلطانى على حاله ، والسماط فى كل
يوم يمد ، والامراء يحضرون للخدمة ، وهى تقول دائمـا :
« السلطان مريض ما يريد أن يزعجه أحد » غير أن مثل هذا
الخبر العظيم لا يمكن أن يبقى طويلا مكتوما عن الناس ، فما
لبثوا أن شعروا بأن السلطان قد مات ، ولكن أحدا لا يجسر

أن يتفوه به .

وما لبث الخبر أن تسرب الى الفـرنج فقويت نفوسـهم ،
فتقدموا من دمياط فارسهم وراجلهم ، ونزلوا على فارسكور
وسفنهم على بحر النيل تحاذيهم ، حتى نزلوا تجاه المنصـورة
يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم « البحر الصـغير » ،
فاستقروا بمنزلتهم هذه ، وحفروا دونهم خندقا عظيما ، وبنوا
حولهم سورا وستروه بالستائر ، ونصبوا عليه المجـانيق
يرمون بها على معسكر المسلمين . ووقفت شوانيهم بازائهم فى
بحر النيل ، ووقفت شوانى المسلمين بازاء المنصورة ، وكان
معظم عسكر المسلمين فى المنصورة بالبر الشرقى ، ورابط جمع
منهم فى البر الغربى (حيث طلخا اليوم) وأخذ القتال يدور
بين الفريقين برا وبحرا ، فما من يوم يمر الا ويقتل من الفرنج
ويؤسر . وقد دأب عامة المسـلمين على النكاية بهم ، فجعلوا
يغتالون ويتخطفون كثيرا منهم ، ويطرقون معسـكرهم فاذا
شعروا بهم القوا أنفسهم فى الماء وسبحوا الى بر المسلمين ،
وكانت لهم فى خطفهم حيل لطيفـة يفتنـون فى ابتكارها ،
ويتنافسون فى اختراعها ، ومن ألطفها أن مسلما أخذ بطيخة
فقورها وأدخل فيها رأسه وغطس فى الماء الى أن قرب من بر
الفرنج ، فظنوه بطيخة عائمة فما هو الا أن نزل أحدهم فى
الماء ليتناولها اذ اجتذبه المسلم فعام به حتى قدم به أسيرا الى
المسلمين .

واستمر الحال كذلك قرابة شهرين اذا ببعض المنافقين من
المسلمين قد دلوا الاعداء على مخائض فى البحر الصغير ، فما
راع الناس الا فصائل من الفرنج قد تجمعوا فى بر المسلمين
يقودهم بطل من أبطالهم هو الكند دارتوا أحد أخوة ملك فرنسا
الثلاثة ، الذين قدموا معه فى هذه الحملة ، وكان بطلا مغامرا
فلم يكد يعبر المخـاضة حتى اندفع بفـرقته نحو المعسكر
الاسلامى ، لينفرد بظفر ذلك اليوم ، وكان الامير فخر الدين
القائد العام فى الحمام حين جاء الصريخ فخرج مدهوشا ،
وركب فرسه لينظر الخبر ، ويأمر الناس بالركوب ، وليس



معه سوى بعض مماليكه فلقيه الكند وفرقته ، فحملوا عليـه ، ففر من كان معه من المماليك وثبت وحده يقاتلهم ويدفعهم عن نفسـه ، فصرع جماعـة منهم حتى اجتمعوا عليه واعتـورته السيوف من كل جانب .

وما ان علم الفرنج بمقتل الامير فخر الدين حتى انتعشت نفوسهم ، وأسكرتهم خمرة الظفر ، فانتشرت جنـود الكند دارتوا فى أزقة المنصورة ، حيث أمطرهم السـكان وابلا من الحجارة والطوب والسهام ، واقتحم هو بفـرقته المعسـكر فتفرق الناس وانهزموا يمينا وشمالا حتى وصل الى السـدة الخارجية للقصر السلطانى يفصل بينها وبين القصر فنـاء واسع ، فشرع رجال الحرس السلطانى يدافعون المهـاجمين الذين يريدون اقتحام السدة ، ولكنهم أدركوا أنهم لا قبل لهم بهذا العدد الهائل من الفرسان المتحمسين وقد جاءوا على غـرة فبغتوهم ، فأخذوا يستغيثون بأمراء المماليك الصالحية الذين كانوا يقيمون قريبا من القصر وحوله ، ليكونوا ردءا للسلطان وزردا دونه .

وكان هؤلاء لم يبرحوا بيوتهم بعد ، ولم يخطر ببـالهم قط مثل هذه المباغتة الجريئة فى تباشير الصباح ، فما راعهم الا الصريخ ، فقاموا على أسلحتهم وركبوا خيـولهم فزعين الى مصدر الصوت ، فاذا هو آت من جهة القصر ، واذا نساء القصر قد رفعن أصواتهن بالصياح والعويل ، واذا فرسان الفرنج قد دخلوا السدة ، وانتشروا فى الفناء ، واذا عز الدين أيبك قد سبقهم الى الصريخ ودخل من الباب الخلفى ، فجعل يقـاتلهم دون باب القصر وحوله جماعة من مماليكه وبقية من الحـرس السلطانى يقاتلون معه وفيهم مملوكه قطز ، فحاول هـؤلاء الامراء دخول السدة فدفعهم عنها جماعة من الفرنج وقفـوا دونها ، فصرخ فيهم بيبرس صرخت أدخلت فى قلوبهم الرعب وحمل هو وجماعته عليهم حملة صادقة فرقتهم أباديد ثم أخذ يحاول اقتحام السدة .

وكان قطز قد جعل همه أن يشاغل الكند دارتوا ويضاربه

بالسيف ، فيهيج الكند ويحمل عليه ليضربه الضربة القاضية فيحيص عنه الشاب حتى يكاد الكند يقع عن فرسه فيعود قطز لمناوشته مبتعدا به عن باب القصر شيئا فشيئا ، فاستطاع بذلك أن يشغل الكند الهائج عن الاتصال بجماعته ، ولم يكن أحد منهم ليجسر أن يساعده على مبارزة الشاب ، لئلا يعد ذلك اهانة للكند وتعييرا له بالعجز عن القضاء على قرن واحـد ، فتركوهما لشأنهما فلم يزالا يتواثبان وهما يبتعدان عن باب القصر ويقتربان شيئا فشيئا من السدة ، حتى كانا منها على قاب قوسين أو أدنى ، وفى هذه اللحظة كان بيبرس قد شتت جماعة الفرنج الواقفين دون السدة وأراد اقتحامهـا ، فلحظ الكند ذلك ، وخشى دخول فرسان المسلمين ، وقد سئم منازلة قرنه الشاب المراوغ ، فتخلى عنه وانطلق جهة السدة فوجد بيبرس قد لز بين مصراعيها ، بين الفرنج الدافعين لهـا من داخل الفناء ، وبين المسلمين الدافعين لها من خارجه ، فاهوى الكند عليه بضربة قوية كادت تفلق رأسه ، لو لم يتقها بيبرس بسيفه ، فانكسر سيف بيبرس ، ورفع الكند يمينه بالسيف ليضربه ضربة ثانيـة ، فعاجله قطـز بضربة أطنت يمينـه من ساعدها فهوت على الارض وسيفها فى قبضتها ! ثم طعنـه بالحربة فى مفرج المغفر من عنقه ، فاندلع لسان الحربة من حلقه ، وهوى الكند صريعا ، فكبر قطز وكبر بيبرس وكبر المسلمون اثرهما ، ودفعت السدة ففتحت على مصراعيهـا ، ودخل الامراء المماليك وخلفهم الجنود ، فتدفقوا فى الفناء ، وكان الفرنج قد ذهلوا لمصرع قائدهم ، واستولى عليهم الرعب فتفـرقوا عن باب القصر يمينـا وشـمالا ، وقصدوا السدة ليخرجوا منها فرارا بأنفسهم ، فأمر بيبرس باغلاقها ، وقال لمن ثم يدخلها بعد من المسلمين : ابقوا مكانكم نحن نكفيهم » فحال بذلك بين الفرنج وبين الفرار ، ووضع المسلمون فيهم السيف حتى أتوا على آخرهم وامتـلأ الفناء الرحب بجثث القتلى .

وكانت نساء القصر قد كففن عن الصياح ، لما أقبل الامراء



المماليك وجنودهم للنجدة ، فحبسن أنفاسهن ينظرن من
شرفات القصر الى المعركة الدائرة فى الفناء ، والصراع القائم
دون أسدة ، وقد وضعن أيديهن فوق ترائبهن ، مشفقات أن
تقع الدائرة على حماتهن ، فيقتحم أولئك العلوج الابواب عليهن
وكانت الملكة شجر الدر واقفة بينهن ، رابطة الجأش ، تنظر
الى قراع الابطال ، وتصاول الفرسان ، كأنها تنظر الى خيل
السباق فى الميدان ، حتى سرت الطمأنينة منها الى من حولها
من وصائفها وجواريها فنسين أنهن فى خطر داهم ، وأن
مصيرهن بين كفتى القدر ، وفيهن وصيفة حسناء ، قد وقفت
كالتمثال بجوار الملكة ، لا يتردد طرفها يمنة ويسرة مثلهن ،
وانما علقت عيناها بذلك المملوك الشاب ، يواثب ذلك الاسد
الهائج ويراوغه ، وينتحى به بعيدا عن القصر ، فكلما أهوى
الكند بسيفه عليه ، كظمت نفسها ، ووضعت يمينها على
رأسها ، فاذا ما حاص الشاب عنها أرسلت يدها وتنفست
الصعداء !

ولما تكرر هذا العمل من جلنار ، لحظت الملكة ذلك منها ،
فاستغربته ،، وودت لو تسألها عن سره ، لو لم يشغلها
اهتمامها بمصير المملكة عن مثل هذا السؤال ، ولولا استبعادها
ان يكون هذا الشاب المواثب الجرىء ، هو ذلك المملوك الذى
كان عز الدين أيبك يبعثه الى القصر ، فما عفت عينه عن
مغازلة جلنار ، لما احتاجت فى معرفة السر الى سؤال ، وأنكرت
سائر الوصائف أيضا ما تصنع جلنار ، وأخذن يتغامزن
عليها بينهن ، وكانت قلوبهن أميل من قلب الملكة الى الاعتقاد
بأن هذا الشاب المواثب ، ما هو الا ذلك الرسول المغازل ،
ولعل غيرتهن من هذه التى تبرعهن جمالا ، وتفوقهن لدى
سيدتهن حظوة ، أثرا فى ذلك ، فقد نفسن عليها هذا التعلق
ببطل توهمن أنه حبيبها ، وكان محض توهمهن هذا كافيا
عندهن ليبرر تجنيهن عليها ، وعلام يحسدنها فى ذلك الموقف؟
أعلى حبيب – ان صح أنه حبيبها – يضمه الموت بين ذراعيه ،
ويضمها معه ؟ أعلى أمل – ان صح أنه أملها – معلق فى الفضاء

بخيط من نسج العنكبوت ، تتلاعب به الريح فى يوم عاصف؟
ولكنها غيرة النساء ، تتواصى بالعدوان والاثم وتأخذ بالحسبان
والوهم .

واذا غادرنا ساحة القصر بما عليها من جثث القتلى وتركنا
شجر الدر ووصائفها يحمدن الله جميعا على ما من به على
المسلمين من تباشير النصر ، ويممنا ميدان القتال فى شمال
المنصورة وبين أزقتها ، وجدنا ملك فرنسا قد وصل الى الميدان
بعد أن نام أخوه نومته الابدية بساعة ، وبعد أن اتقد
المسلمون حماسة لما أحرزوه من النصر فى ساحة القصر ،
فحاول الاستيلاء على تل جديلة الذى نصب المسلمون عليه
مجانيقهم وأبراجهم وجمعوا فيه قواتهم وعددهم ، وأراد أن
يستكمل بناء القنطرة من الناحية الجنوبية للبحر الصغير حتى
تعبر الرجال اليه ، وقد نجح فى ذلك كله وفاز بما أراد ،
ولكن المسلمين قد استيقظوا من سباتهم ، وانتبهوا من غفلتهم
وغلت الحمية حمية الاسلام فى قلوبهم ، ووطنوا أنفسهم على
بذل أرواحهم فداء لله ولمصر ، فجمعوا صفوفهم كأنها بنيان
مرصوص ، وحملوا حملة واحدة مزقت صفوف الاعداء وشتتتهم
بددا ، وأذهبت ما صنعوه من التدبير سدى ، وانهزموا الى تل
جديلة فلاذوا به ، وما كان التل ليعصمهم من أيدى المسلمين
لو لم يحجز الليل بين الفريقين .

وقدم السلطان الجديد بعد أن طوى السهول وجاب القفار
ليخلف أباه الملك الصالح ، ففرح الناس ، وقويت شوكة
المسلمين ، وكانت الميرة ترد للفرنج من معسكرهم بدمياط
فى بحر النيل ، فصمم المسلمون على أن يقطعوها عنهم فيقضوا
بذلك عليهم ، فصنعوا سفنا جديدة وحملوها مفصلة على الجمال
الى بحر المحلة فألقوها فيه وشحنوها بالمقاتلة فسارت بهم
حتى وقفت عند مجمع البحرين فكمنت هناك ، فلما جاءت
مراكب الفرنج خرجت لها من مكمنها ، فنازلتها وأخذتها
أخذا وبيلا ، فغنم المسلمون أثنتين وخمسين سفينة مشحونة
بالارزاق والاقوات ، وقتلوا ألفا من العدو أو يزيدون .



وما أن انقطع المدد من دمياط عن العـــدو حتى أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ويخشـــون الذهاب ، فضاقت بهم أنفسهم وبلغت قلوبهم الحناجر ، فأحرقوا مراكبهم بمثل ما يتقد فى نفوســـهم من نار الغيظ ، ثم خـــربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى المـــؤمنين ، وقوضوا معســـكرهم ورحلوا جميعا يريدون دمياط ، وولى أسطولهم فرارا معهم فركب المسلمون أقفيتهم ، واتبعهم الابطال الذين أنجبتهم أرض مصر ، حتى اذا بلغوا فارسكور لقيهم الموت من أمامهم ، وطلبهم الموت من خلفهم ، وأحاط بهم المسلمون فأعملوا فيهم سيوفهم وأوسعوهم قتلا وأسرا ، فبلغت عدة قتلاهم عشرين ألفا وناهز عدد أسراهم مائة الف .

والتجأ الملك الخاسر الى تل المنية ، منية عبـــد الله ، وقال « سآوى الى جبل يعصمنى من الموت » .

قال المسلمون : « لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم »

وتم بينه وبينهم الامان فكان من المعتقلين .

وقيل يا أرض القتال ابلعى أشلاءك ، ويا ســماء المـــوت اقلعى ، وغيض الدم ، وقضى الامر ، واستوت سفينة الاسلام على جودى النصر ، وقيل بعدا للقوم الظالمين !

الفصل الثانى عشر



وصلت البشائر الى القاهرة ، فاقيمت فيها الزينات ،ودقت الطبول ، واعلنت الافراح ، وسر المصريون بهذا النصر العظيم

ولكن السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه لم يشكر نعمة الله عليه ، ولم يعرف حق أولئك الابطال الذين حمـوا بيضة الدين ، وشفوا صدور المؤمنين ، ورفعوا مجـــد مصر عاليا على العالمين . فأخذ فى ابعاد رجال الدولة ، واطراح الامراء والاكابر من اهل الحل والعقد ، واعرض عن ممـاليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته ، وقرب جماعته الذين قدموا معه فخصهم بالمناصب والرتب ، واحتجب عن الناس ،وانهمك فى الشراب واللهو ، وبعث الى زوجة ابيه شجر الدر - التى مهدت له الدولة ، وضبطت الامور فى مغيبه ، حتى ســلمته مقاليد الحكم - يطالبها بما عندها وما ليس عندها من الاموال والجواهر ، ويتهددها ويتوعدها بالقتل ، فأنف لها صنائع زوجها ومماليك ابيه ، فعزموا على قتله ، وشجعهم على ذلك تنكر الناس له ، وبغضهم لحكمه .

وما هى الا ايام حتى قتل بايدى موالى ابيه ، فى سماطه الممدود بفارسكور بين سمع الناس وبصرهم ، فما اجاره منهم مجير .

جلست شجر الدر على اريكة السلطنة باجماع امراء المماليك

الصالحية واتفاق اعيان الدولة واهل المشورة • ونقش اسمها على سكة النقود ، ورددت منابر القاهرة ومصر : « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ام خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح ... آمين » •

وكان لويس التاسع قد حمل الى المنصورة مقيدا بقيد من حديد ، فاعتقل فى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى ، كما اعتقل اخـواه شارلس والفونس فابقيا مع غيرهما من كبار الاسرى •

فلما استقرت الامور للملكة شجر الدر ، جرت المفاوضات بين المندوب المصرى الحر ، وبين العاهل الفرنسى المعتقل ،الى ان تم الاتفاق بينهما على ان تسلم دمياط الى المسلمين ،ويخلى عن الملك ليذهب الى بلاده ، بعد ما يؤدى نصف ما عليه من الفدية •

وخفق العلم المصرى على أسوار دمياط ، وعادت كلمـة التوحيد ترن على مآذنها ، وشهادة الحق تجلجل فى فضائها• وأفرج عن الملك الاسير بعد ما فدى نفسه باربعمائة الف دينار، فنطلق الى زوجته الوالهة بدمياط يندب لها سوء الحظ ونكد الطالع ، وتلومه مر غريت على القائه بيده الى التهلكة ،فيقول لها : « اسكتى ولا تجمعى لى بين عذاب القوم ومرارة اللوم، ودعينا ننج بأنفسنا وبمن بقى منا الى بلادنا » •

وشهدت دمياط بين الدمع والابتسام اقلاع اخر سفينة من سفن لويس التاسع وقومه ، تحملهم عن البـلاد التى ارقدوا فى ثراها عشرات الالوف من ابطالهم وجنودهم بايدى ابنائها المسلمين ، وصاح شاعر مصر فى اذن الملك الخائب :

أتيت مصرا تبتغى ملـكها   تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فأين أصحابك ؟ أودعتهم   بحسن تدبيرك بطن الضريح!
ألهمك الله الى مثلهـا   لعل عيسى منكم يستريح !
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح!

وكان عز الدين ايبك قد قوى نفوذه فى الدولة وعظم قدره

عند الملكة شجر الدر منذ ابلى ذلك البلاء الحسن فى الدفاع عن القصر السلطانى يوم المنصورة • فلم يكن بدعا أن ترتضيه شجر الدر وينتخبه الامراء المماليك ليتولى الاتابكية للسلطانة ، ويتقلد منصب التقدمة على العساكر • وقد كان له ايضامن علو سنه وحنكته وشهامته ما جعلهم يدينون له بالطـاعة ويعترفون له بالسبق • على أن هذا الاجماع منهم عليه لم يكن تاما ، فقد كان له فيهم منافسو نيرون انفسهم اجدرمنه بالرئاسة ، وعلى رأس هؤلاء المنافسين الامير اقطاى الجمدار ومن شيعته الامير بيبرس البندقدارى • ولكنهم لم يجرؤا فى أول الامر على اظهار الخلاف والانتقاض على ما اجتمع عليه الاكثرون ، ورأوا تأجيل ذلك الى أن تحين الفرصة الملائمة ويساعدهم الوقت •

قامت الملكة العظيمة شجر الدر بتدبير مملكتها احسن قيام يعاونها فى ذلك اتابكها عز الدين ايبك وغيره من مماليك زوجها ووزرائه المحنكين وقواده العظام ، ولكن ان استتبت لها الامور فى الديار المصرية حيث تهيمن عليها روحها فمـا استتب لها كذلك فيما وراءها من بلاد الشام التابعـة لمصر • فلم يكد يصل خبر قتل الملك المعظم توران شاه وحلول شجر الدر محله الى الشام حتى طمع امراؤه وملوكه من البيت الايوبى فى الوثوب على دمشق وغيرها من البلاد التابعـة لسلطان مصر • وكان اعظم هؤلاء شأنا الملك الناصر صاحب حلب ، الذى جاء الى دمشق فملكهـا ، ولم يكتف بذلك بل اعلن انه سينتقم من شجر الدر ويثأر لنسيبه توران شاه من قتلته من الامراء المماليك •

ووردت انباء ذلك الى القاهرة ، فساد الاضطراب فيهـا وتشيع بعض الامراء من غير المماليك الصالحية للناصر واعتبروه الوارث الشرعى لدولة آل ايوب • وحرج مركز شجر الدر ، وزاد الطين بلة ان الخليفة العباسى ببغداد لما بلغه خبر تولية شجر الدر بعث كتابا الى مصر ينكر فيه على الامراء ويقـول لهم : « ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير



اليكم رجلا » فما وسع الملكة الا ان تخلع نفسها وتنزل عن
عرشها لأتابكها ومقدم عسكرها الامير عز الدين أيبك ،
فوافقها الامراء المماليك على اختياره ، وحلفوا له ولقبوه
بالملك المعز ، واركبوه الى قلعة الجبل يتناوبون حمل الغاشية
بين يديه حتى اجلسوه على دست الملك وجلسوا معه على
السماط .

كان هذا الاستتباب السريع لعز الدين أيبك واتفاق
الامراء المماليك على توليته الحكم دون تباطؤ او معارضة
راجعا الى نفوذ شجر الدر ثم الى خشية الامراء المماليك ان
تضيع السلطة من ايديهم اذا قوى دعاة الملك الناصر واشياعه
بمصر ونجحوا فى ضمها تحت سلطانه ، فحينئذ ينتقم الناصر
منهم ولا يبقى عليهم بحال . فوحد الخطر كلمتهم وضم
صفوفهم وأعرضوا عما بين بعضهم وبعض من المنافسات
والمشاحنات واسرعوا بموافقة الملكة على اختيار عز الدين .

ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من دعاة الناصر واشياعه فى
مصر بتشتيت شملهم والقضاء عليهم ، ويشعرون بزوال الخطر
عنهم ، ورجوع امرهم كما كان ، حتى دبت عقارب البغضاء
بينهم ، وعاد التنافس القديم بينهم من جديد ، وتولى كبيرهم
فارس الدين أقطاى كبر الحملة على عز الدين ايبك . واذ كان
لا يجرؤ على طلب الامر لنفسه رأى ان يكتفى بافساد الامر
على قرينه . فدعا الناس الى تولية امير من البيت الايوبى ليجتمع
الكل عليه ويطيعه الملوك من اهله ، وتبطل حجة الناصر فى
أحقيته بملك مصر ووراثة دولة آل ايوب . فما سمع
الناس والامراء المماليك بهذا الرأى حتى مالوا اليه لسداده
وقوة برهانه ، فأيدوه وجهروا باستحسانه . واخذ العامة
فى الشوارع يقولون « ما نبغى مملوكا يتولى علينا بل نريد
سلطانا من آل أيوب »

ثم عقد الامراء المماليك مجلسا قرروا فيه ان يقيموا صبيا
من بنى أيوب يكون له اسم الملك ويكونون هم الذين يديرون
الملك ويأكلون الدنيا باسمه ، فاختاروا الملك الاشرف موسى

ابن الملك مسعود وله من العمر ست سنين فأقاموه سلطانا
شريكا للملك عز الدين ايبك على أن يقوم عز الدين أيبك
بتدبير الدولة . وقرروا أن يبرز اسمهما على التوقيعات والمراسيم
وينقش على النقود وان يخطب لهما على المنابر .

وركب الملكان الاشرف والمعز تتقدمهما الاعلام السلطانية ،
وشقا القاهرة بين الجماهير المحتشدة لرؤيتهما ، والمعز يحجب
الاشرف راكبا امامه بعصا فى يده ، والامراء تتناوب فى حمل
الغاشية واحدا بعد واحد .

أما فارس الدين أقطاى فقد رأى أنه لم يصنع شيئا اذ بقى
عز الدين ايبك فى سلطانه وقوته . ولم يفقد من نفوذه شيئا.
وكانت الامور كلها فى يده وليس للملك الاشرف الا الاسم .
على أن نفسه قد طابت قليلا لان عز الدين لم يعد له الحق فى
الاستبداد والاستئثار دون سائر الامراء المماليك كما لو كان
هو السلطان ، فبقى بذلك لاقطاى ولغيره من الامراء حق
الاعتراض على سياسته والتداخل فى شئون ملكه ، على أن
يؤجل ما وراء ذلك من مطامعه فى الغلب عليه الى حين اخر .

ولم يخف على المعز ايبك مايضمره اقطاى له وما ينويه من
التغلب عليه ، فأراد ان يشغله عن ذلك ويصرفه عن التدبير
له ، فجعل اليه قيادة المماليك البحرية ، وسيره لقتال
الملك الناصر صاحب دمشق الذى كان قد جمع الجموع لغزو
مصر ، فسار اقطاى الى غزة بالفى فارس وقاتل جنود الناصر
وهزمهم وعاد الى مصر ظافرا ، ولسان حاله يقول لعز الدين:
« هأنذا عدت اليك اقوى مما كنت » .

ولكن عز الدين باستناده الى ركن قوى من شجر الدر كان
مطمئن النفس الى انه لا يغلب على أمره ، وان احدا من الامراء
المماليك مهما بلغ من قوة ناصره وكثرة اتباعه لا يقدر ان
يزحزحه عن مكانه ، فقد كانت شجر الدر - وان اعتزلت
الملك - لا تزال هى القوة المصرفة من وراء الستر ، وكان نفوذها
ماضيا على كل الامراء ، ترفع من تشاء منهم وتضع من تشاء.
وكانوا جميعا يعرفون ميلها الى عز الدين ايبك وثقتها به ،

فلم يكونوا ليعارضوها فى تقريبه واصطفائه خوفا من غضبها ·
وكانوا يعرفون ايضا ان شجر الدر تحب السلطة وتعشق
النفوذ والسيطرة · ولم تعتزل الملك الا مغلوبا على امرها ·
وكانت ترى فى نفسها الجدارة للحكم ، والكفاية لتصريف
الامور ، وانها ما قعد بها عن الاستمرار فى الجلوس على اريكة
السلطنة الا كونها انثى · فرأت ان تتغلب على قصورها
هذا الطبيعى بأن تجعل على عرش المملكة رجلا من صنائعها ،
تثق باخلاصه لها ، وتطمئن الى انه لا ينتقض عليها فيستأثر
بالامر دونها · فاختارت عز الدين لانه كان اطوع الامراء لها،
وأخلصهم كان لزوجها ، وليس له من كثرة الاتباع والمماليك
ما قد يطمعه فى الخروج على طاعتها والتخلص من سيطرتها ·

على أنها لم تشأ ان تطمئن اليه كل الاطمئنان ، وتذهب فى
الثقة به الى ابعد مما تقتضيه حاجتها للاستتار به · فلم تقصر
كل عطفها عليه بل جعلت للاخرين نصيبا من برها وعنايتها
تضمن به ودهم لها ، ودفاعهم عن حقها اذا بطر عز الدين
أيبك نعمتها ، وحاول استلاب النفوذ من يدها · فكانت تطيب
نفوسهم ، وتشعرهم انها لم تختر عز الدين لكونه افضل فى
عينها او ادنى الى قلبها منهم ، وانما ارادت بذلك ان تحفظ
سلطتهم ، وتصون مقامهم ، لانه ليس له من القوة والشراسة
وحب الاستبداد ما يخشى عليهم منه ·

وكان عز الدين يعلم هذا منها ، فكان يتقى اغضابها
ويبالغ فى استرضائها ،ولا يقطع امرا دونها ·ولم يكن عزوفا
عن الاستبداد بالامر والاستقلال بالسلطة – وان كان يتظاهر
بذلك عندها وعند الناس – ولكنه احبها ومال اليها قلبه ،
فلم يجد حرجا فى احتمال سيادتها عليه ، وتحكمها فيه ،
ولم يشعر بغضاضة فى خضوعه لها ، وذله بين يديها ، بل
كان يجد لذة فى كل ذلك · وكان عفيفا حييا لا يكاد يرفع
اليها طرفه ، واذا حدثها حدثها بوقار واحتشام ، كما كان
يفعل لو ان زوجها السلطان كان حيا بعد ، وقد برح به حبها
وما منعه من التصريح لها بما فى نفسه الا انه كان يهابها

أن يقول لها شيئا كان يراه مستحيلا فى حياة سيده ·

ولم يصعب على شجر الدر ان تتبين حبه الخفى لها، فقد
شعرت به فاضمرت له مثله ، ولكنها كانت تغالب هذا
الحب وتدافعه ، خشية ان تستسلم له ، فيحملها هذا
الاستسلام على التضحية بما جبلت عليه من شهوة الحكم ،
وحب السلطان ، فارادت ان تحتفظ بارادتها حرة ، لا يحد منها
حب ولا تجور عليها نزوة من نزوات القلب ·

نعم انها كانت تعلم ان لابد لها من التزوج باحد الامراء
يوما ما ، لانها لم تبلغ من الكبر بحيث ينقطع املها فى
الزواج ، وتخلد نفسها الى التأيم · ولكن من ذا يضمن
لها اذا هى اصطفت عز الدين بعلا يصون لها ما تحب من
السيطرة ولا ينازعها حقها فى السيادة – من ذا يضمن لها
حينئذ ان يبقى لعز الدين ملكه وان لا ينتزعه من يده احد
منافسيه الاقوياء فتخسر بسقوطه كل شىء ؟ ولم يزل التنافس
بين الامراء قائما على قدم وساق ، فلتتريث حتى ترى لمن
تكون الغلبة القاهرة ، فتمد اليه يدها اذا ما مد اليها يده
– وهى موقنة انه سيفعل – فأى منهم لا يتمنى ان يحظى بها
ويسعد بحبها ؟

وكان سيف الدين قطز شديد الاخلاص لاستاذه عزالدين
ايبك – لثقة استاذه به ، واعتماده عليه فى المهمات ، ولان
استاذه كان مثله دينا عفيفا ، فأحبه لدينه وعفته ، فكان
لا يألو جهدا فى توطيد مركز عز الدين بما يجمع حوله من
الاتباع ، وبما يستميل اليه القلوب ، وقد عرف ان لاستاذه
منافسين اقوياء ، وان عيونهم لا تنام عنه ، وانهم يتربصون
به الدوائر ليثبوا عليه ، ويحكموا مكانه · وهذا الفارس
اقطاى يفوق استاذه فى كثرة الخشداشية والاشياع وهو
مغامر بطل ،ومن حوله مغامرون ابطال ، ولو لم يكن فيهم الا
بيبرس لكفى · وقد رأى قطز ان استاذه يستمد نفوذه من
نفوذ شجر الدر ،وأن شجر الدر لايمكن الثقة بها، ولاالركون
اليها ، وهؤلاء الامراء يتقربون اليها ، ولا يبعد ان ينجح احدهم

في استمالة قلبها اليه ، فتميل عن استاذه عز الدين فيتم بذلك سقوطه ٠

وقد هداه التفكير الى ان الضمان الوحيد لبقاء استاذه في الحكم هو ان يتزوج عز الدين شجر الدر ٠ وكان قد عرف ميله اليها ، وغرامه بها ، وان لم يخبره استاذه بذلك ، لانه – هو العاشق المستهام – لا يعز عليه ان يكتشف سر عاشق مثله ٠ فاراد ان يشير على استاذه بطلب يدها ، فدخل عليه يوما وقال له : « ان سيدى كثير الاختلاف الى السلطانة، وان الناس يقولون انه سيتزوجها ، ومملوكه الوفى يعتب عليه ان يجهل ما يعلمه الناس عن سيده » ٠ فنظر اليه عز الدين باهتمام كأنما لذ له ان يسمع مثل هذا الحديث ،وقال له : « لا تصدق ما يقول الناس فليس ذلك بصحيح » ٠

قال قطز : « فسيقولون ما هو اعظم من هذا ، مما لايطيق المملوك سماعه في حق استاذه العفيف »٠ ففهم عز الدين ما اراد وقال له : « ما شأننا بهم ، دعهم يقولوا ما يشاؤون » ٠ فقال قطز : « صدقت يا سيدى ، لندعهم يقولوا ما يشاؤون ليس لنا بهم شأن ، ولكن دعنا ايضا نفعل ما نشاء ليس لهم بنا شأن ٠ ان سيدى يرغب فيها ، فلماذا لا يطلب يدها ؟ » ٠

قال عز الدين : « من قال لك انني ارغب فيها ؟ » ٠

فاجابه قطز : « اذا لم يشعر المملوك بهموم سيده لم يكن اهلا لثقته » ٠

فرأى عز الدين ان لا فائدة من اخفاء الحقيقة عن مملوكه، وشعر بالارتياح ، اذ رأى أن ما كان يجول في سره كحلم من الاحلام ، قد اصبح حقيقة يتحدث عنها بين يديه فقال له: « ومن يضمن لى انها ترضانى ؟ » ٠ فقال له قطز : « وهل تجد بين يديها من هو افضل منك ؟ » ٠

– انى مملوك زوجها يا قطز ٠

– وهل كانت الا جارية مملوكة ؟ ومن من ملوك بني ايوب يرضى الامراء المماليك ان يتزوجها ؟ اللهم الا ان يكون الملك الاشرف ، فهل تتزوج هذا الصبى ؟ »

فضحك عز الدين عند سماع هذا ، ومضى قطز يقول :

« انه لا يتزوجها الا انت او أقطاى ، وقد سمعت انه قد خاطبها فى ذلك » ٠

فاختفى من وجه عز الدين الضحك وظهر مكانه التقطيب والاهتمام ، وسأل مملوكه : « ممن سمعت هذا ؟ » ٠

– سمعته من بيبرس ، وقال لى اشياء اخرى عن نفسه تأبى الصداقة التى بينى وبينه ان أفشيها ٠

فسكت عز الدين طويلا ، ثم قال : « ولكننى لا اجرؤ على مخاطبة السلطانة فى ذلك ، وقد حاولت ذلك غير مرة فيعقد الحياء لسانى فى كل مرة » ٠

– اذا شاء سيدى اعارنى قلبه وأعرته لسانى ٠

– تريد أن أبعثك اليها ؟

– نعم فأبوح لها بذات صدرك ٠

– ماذا انت قائل لها ؟

– دع هذا للموقف يمل على ما يقتضيه ، وأيقن ان لسانى لن يعثر فى شىء لا يرضيك ٠

فنظر اليه عز الدين ضاحكا ، وقال مداعبا : « قد عرفتك يا قطز ، انما تريد ان ترى وصيفتها جلنار ! » ٠

فابتسم قطز وقال : « ليس هذا بسر عليك ، وما اريد ان أكذبك فأنكر انى اطمع منها فى نظرة ، لا احسب سيدى يستكثرها على جزاء لى على الخدمة ٠ آه انى لم ألقها الا مرة واحدة يوم دعتنى الملكة ثالث يوم لارتقائها اريكة السلطنة ، فأثنت على صنيعى يوم قتلت الكنددارتوا ، ثم قالت لى : اتحب هذه الوصيفة ؟ فنظرت فاذا جلنار واقفة دونى فأذهلنى ذلك عن جوابها ، فما راعنى الا صوت الملكة تقول : وتريد ان أزوجكها ؟ قلت : لا ارفض نعمة السلطانة ٠ قالت : متى تريد ذلك ؟ فقلت : خير البر عاجله ٠ فابتسمت السلطانة ،وقالت: لا ، حتى ينقضى الحزن على السلطان ٠ آه يا سيدى لا ادرى متى ينقضى هذا الحزن على السلطان ! »

فسكت عز الدين هنيهة يتعجب من حماسة مملوكه الشاب

وطلاقة لسانه فى الحديث ، ثم قال له وهو يبتسم : « ينقضى هذا الحزن على السلطان حينما تتزوج السلطانة » .

فقال قطز : « أجل يا سيدى فتزوجها من أجلى انا ان لم يكن من أجلك وخلصنى من هذا الحزن الطويل » .

فاغرب عز الدين فى الضحك ، وقال له « اذا فانا الذى استحق الجزاء منك » .

ولم يكن ما سمعه قطز من صديقه بيبرس حديثا مختلقا، فقد ذهب الفارس اقطاى حقا الى شجر الدر وخاطبها فى الزواج ، وكان جريئا فما عقد الحياء لسانه ، وما عاقته هيبة الملكة عن الافضاء اليها برغبته فى يدها ، وقد فوجئت شجر الدر بهذا الطلب الصريح الجرىء ، ولكنها ملكت اعصابها ، وقالت له بهدوء : انها لا ترد طلبه ، ولكنها لا تريد ان تفكر فى الزواج حتى ينتهى امر الملك الناصر وتأمن على مصر وعلى نفسها من غزوه وتهديده ، فاقتنع منها اقطاى بهذا الجواب ، وحسب ذلك وعدا منها بالقبول فاطمان قلبه ، وجعل همه القضاء على الناصر وجنوده .

ولما ذهب قطز رسولا من استاذه الى شجر الدر ، لم يشأ أن يصرح لها برغبة سيده فى زواجها ، ولكنه عرض لها بذلك تعريضا لطيفا ، فكان مما قاله لها : « مولاتى السلطانة، ان استاذى بعثنى اليك فى أمرين احدهما ان تنجزى وعدك لمملوكه بالزواج من وصيفتك ، والاخر انه اذ يعلم انك لاتحبين فراق وصيفتك ، وهو لا يقدر على فراقى ، فانه يتوسل اليك ان تسمحي لنا انا وهى بأن نعيش فى خدمتكما معا » .

فسكتت الملكة هنيهة تفكر فيما قال ، ثم سألته فى صوت هادىء رزين « أى هذين الامرين أحب الى استاذك ان اقضيه له ؟ » .

فطرب قطز اذ أدرك أن الملكة فهمت تلميحه وأرادت ان تستوضحه فحوى كلامه لتستوثق من صواب ما فهمت ، فبدرها قائلا : « الامر الثانى يا مولاتى السلطانة » .

فقالت له الملكة : « كيف عرفت ذلك ؟ » .

فأجابها قائلا : « لان الامر الثانى يتضمن الامرين معا » .

فتورد وجه الملكة خجلا ، وصفقت بيدها فاتى لها بماء فى كوب من الذهب فشربت منه ، ثم التفتت الى قطز وقد سكن ما بها ، وعادت الى هيئتها الاولى ، وقالت له : « ارجع الى استاذك فقل له انى لا استطيع ان أقيم عرسا وجنود الناصر على أبواب مصر » .

فقال لها قطز : « يامولاتى السلطانة ، احسب ان فى هذا ظلما لى واخلافا لوعدى » .

فاستغربت شجر الدر ما قال ، وقالت له : « كيف ذاك ؟ »

قال : « هل لى ان أقول لاستاذى ان السلطانة لا تستطيع أن تقيم عرسين فى القصر وجيوش الناصر على أبواب مصر ؟ »

فأجابته الملكة بين التقطيب والابتسام : « قل له ما بدا لك أيها المملوك الماكر وانصرف من هنا » .

فتهيأ قطز للانصراف قائلا : « أبقى الله لمصر سلطانة تهتم بشئون بلادها ، قبل ان تعنى بشؤون نفسها ! » واستأذنها وانصرف .

فشيعته الملكة ببصرها ، وهمست تقول : لا خوف على عز الدين ايبك وعنده مثل هذا المملوك !

وفهم عز الدين مما بلغه قطز ان شجر الدر تعده بقبول الطلب بشرط ان يهزم الناصر وجنوده ، ولم يكتف مملوكه بأن ينقل لاستاذه كلام الملكة ، بل اخذ يشرح له ما استنبطه من سرها ، وما قرأه على اسارير وجهها وفهمه من حركاتها وفسر ذلك كله بأنها تحب استاذه ، لا شك فى ذلك عنده .

وأخذ عز الدين يشككه فى ذلك ، فيقول له قطز : « الم أتبين حبك لها قبل ان تخبرنى به ؟ » فيقول له عز الدين : « بلى » فيقول قطز لاستاذه : « فقد تبينت حبها من حيث تبينت حبك » .

فعزم الملك المعز أيبك ان يسير بنفسه لملاقاة الناصر وجنوده وألا يكتفى فى ذلك بتسيير قواده لئلا ينفرد دونه فارس الدين اقطاى بظفر هذا اليوم العظيم .

وكان الملك الناصر قد حشد الجنود لاخذ مصر من ايدى المماليك ، وانضم تحت لوائه عصبة من ملوك بنى ايوب بالشام اشهرهم الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق السابق ، فسار اليه عز الدين ايبك بعساكره ، واستصحب معه كبار قواده ، ولقى جموع الناصر بالرمل بين الخشبى والعباسية ، فدارت بين الفريقين معركة هائلة ، كانت الدائرة فيها فى بادىء الامر على الجنود المصريين ، فانهزموا حتى وصل بعضهم الى القاهرة فى غد يوم الوقعة وكان يوم الجمعة فما شك الناس فى أن الامر تم للملك الناصر ،وخطب له فى جوامع البلاد كلها ، الا جامع القاهرة حيث كان يؤم الناس فيه الشيخ ابن عبد السلام ، فما انقضت صلاة الجمعة حتى وردت البشائر بهزيمة الناصر وفراره الى دمشق، وانتصار الملك المعز ، فزينت البلاد لمقدمه ظافرا ومعه الاسرى من الملوك ، وفيهم الملك الصالح اسماعيل ، فلما مر الموكب بتربة الملك الصالح ايوب ، احدق المماليك البحرية بالصالح اسماعيل ، وجعلوا يصيحون : « يا مولانا ، اين عينك ترى عدوك اسماعيل ؟ » .

ولما دخل المعز الى القلعة تلقاه السلطان الصغير الملك الاشرف موسى وهنأه بالظفر ، فصاح فارس الدين اقطاى قائلا للملك الاشرف : « كل ما حصل انما حصل بسعادتك، وما سعينا الا فى تقرير ملكك » . ولسان حاله يقول للملك المعز « اياك أعنى واسمعى يا جارة » !

واهتم قطز بأمر الملك الصالح اسماعيل السجين بالقلعة، وتذكر خيانته لله ولرسوله ـ أيام كان ملكا على دمشق ـ وبيعه بلاد المسلمين لاعداء الله الصليبيين ، وما كان من اضطهاده لشيخه ابن عبد السلام وانصاره المجاهدين ، فأشار على استاذه الملك المعز بقتله ، فلما رأى تردده فى ذلك استخرج له فتوى من الشيخ ابن عبد السلام باستحقاق هذا الملك الخائن للقتل ، فأمر به المعز فقتل خنقا ، ولقى جزاء خيانته لدينه ووطنه .

وأخذ فارس الدين أقطاى يستنجز شجر الدر وعدها ، فكان يبعث اليها ركن الدين بيبرس رسولا من قبله ،فتتلقاه الملكة بالترحيب ، وتحسن الاصغاء الى حديثه وهو يعدد لها مناقب صاحبه وشجاعته وفروسيته وقوة ناصره وكثرة أتباعه ، ويصف لها وقائعه وبلاءه فى المعارك التى شهدها ، وأثره فى احراز النصر لمصر فى كل غارة تشن عليها ،فينطلق لسان بيبرس فى وصف ذلك انطلاقا عجيبا ، ويصوره تصويرا قويا يأخذ بمجامع قلب الملكة ، ويستولى على مشاعرها حتى يخيل اليها انها تسمع صليل السيوف وقعقعة الرماح وحفيف السهام وصهيل الخيل وصيحات الابطال ، وتشهد الصفوف تزحف ، والصفوف تنهار ، والفرسان تكر ، والاعداء تنهزم وتفر ، وترى الفارس اقطاى كالاسد الهائج يقدم ولا يحجم ، والجواد يتوثب به فيعلو به حينا وينزل به حينا، والسيف فى يمينه ، والابطال تخر صرعى عن يمينه وشماله.

ولكن بيبرس قلما يصف لها حب صاحبه وغرامه بها ،واذا تعرض لذلك ففى جمل بكيئة لا تخرج من القلب فلا تصل الى القلب ، وانى لبيبرس ان يصف شيئا لا يعرفه ولا يحس به ؟ وعلام يعنى نفسه فى صوغ كلمات لا تطرب لها شجر الدر كما تطرب لحديثه المتدفق الممتع عن بطولة صاحبه وشجاعته فى ميادين القتال ؟

أما قطز فانه لا يعدد لشجر الدر ما تعلم من مناقب استاذه وخلاله ، بل يجتزىء فى ذلك بالاشارة الى دينه وعفته ،وصدقه وأمانته ، واخلاصه ووفائه ، ثم يفيض فى شرح حبه وغرامه ويصور لها خطرات نفسه وخلجات ضميره ، ويسمعها وجيب قلبه وحنين فؤاده ، واصفا فى خلال ذلك الفينة بعد الفينة صورتها فى عينه جميلة رائعة ، نقية طاهرة ، جامعة بين محاسن الخلق ومكارم الخلق . وكان قطز اذا ما اخذ فى هذا الحديث نسى انه ينوب عن استاذه ويقول على لسانه واستحضر حبيبته جلنار كانها جالسة امامه حيث تجلس شجر الدر من اريكتها ، وكأنه يبثها ما فى قلبه من لواعج الحب [illegible]

الشكوى ورقة الحنين • فكانت كلماته تقع من الملكة مـــواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فما تملك الملكة نفسها ان تتنهد مسارقة من حين الى حين • ولولاانفتها ان يظهر عليها الضعف امام المملوك الرسول ، وقدرتها على امتلاك عواطفها والاحتفاظ بهدوئها ، لارسلت دموعها وعلا صوتها بالنحيب •

وما لبثت وصائفها ان شعرن بما يدور بينها وبين هذين الرسولين المتنافسين ايهما يغلب الاخر فى اجتذاب قلبهـــا الى صاحبه • فاخذن يتربصن وصولهما ، فاذا جاء احدهمـا همس بعضهن لبعض فوقفن على أبواب المقصورة على أطراف ارجلهن يتطلعن من وراء الستائر ويتســـمعن الى الحديث حابسات انفاسهن حتى اذا انقضى الحديث عدن الى اماكنهن كأن لم يعلمن بشىء • وقد انقسمت الوصائف فريقين ،فريقا يتشيع لقطز وفريقا أقل منه عددا يتشيع لبيبرس ، وفىهذا الفريق حواسد جلنار اللائى لا يطقن ان يشهدن لحبيبهـــا بالسبق فيعمدن الى الحط منهومن استاذه والمبالغة فى رفع بيبرس وصاحبه •

أما جلنار فقد كانت تصمت بينهن ولا تقول فى حبيبهـــا ولا فى منافسه شيئا ، واذا تطلعت مثلهن وتسمعت للحديث وقفت وحدها بعيدا عنهن وفرائصها ترعد وشفتاها تختلجان خشية ان يتفوق بيبرس على حبيبها قطز • وخطر لها يوما وهى تنظر الى بيبرس من خلل الستور ــ وكانت قد عرفت من أمد طويل انه هو رفيقها القبجاقى الاشقر ذو العيون الزرق فى سوق الرقيق بحلب ــ ان سيدتها قد تزوجها منه اذا غلب حبيبها قطز وتزوجت شجر الدر اقطاى • فاصابها الدوار وكاد يغشى عليها فى موقفها ذلك لولا انها سحبت نفسها الى مخدعها فارتمت على سريرها ، فما تطلعت بعدها الى مشهد بيبرس • واكتفت بالتطلع الى مشهد حبيبها اذا جاء فتتسقط حديثه وكأنه يسوقه اليها ويعنيها به اذا اندفع فى مناجاته الغرامية فما تملك حبس دموعها تسيل على خديها •

وكان مما وعت من حديثه يوما ان قال « ايتها الســـلطانة

العظيمة ، يا اجمل غانية رويت من ماء النيل ! لا تعجبى اذا قصرت فى تصوير ذلك الحب العظيم الذى ضاقت به الدنيا ووسعه صـــدر من بعثنى اليك ، ولا تعجبى اذا أنا احسنت البيان فقد اعارنى استاذى قلبه النابض الكبير وأعرته لسانى العاجز الصغير ، وأيقنى ان لسانى مهما اجاد التصـــوير وافاض فى التعبير فانه لا ينال من مكنون ذلك الصـــدر الا مثل ما يعلق بمنقار الطائر من ماء البحر •

« مولاتى السلطانة ، يا اجمل غانية رويت من ماء النيل! لو كان استاذى مجوسيا لكنت ناره التى يعبدها ، ولوكان وثنيا لكنت صنمه الذى يتوجه اليه • ولكنه مسلم صادق الايمان فانت كعبته وصلاته ،وانت الزلفى التى يتقرب بها الى الله •

« مولاتى السلطانة ، يا اجمل غانية رويت من ماء النيل ! لقد ضرب الله فى كتابه للناس امثالا لعلهم يعقلون ، فضرب مثلالنوره كمشكاة فيها مصباح ،المصباح فى زجاجة ،الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار • وأين نور الله الذى أشرقت به السماوات والارض يامولاتى من هـــذه المشكاة ؟

« وضرب الحب مثلا أميرا وأميرة ، ابنى عم صغيرين ،نقلتهما الاقدار من نعيم الملك الى ايدى اللصوص ، فباعوهما فىسوق الرقيق ، فعاشا معا فى كنف مولى صالح وعـــدهما بالعتق وبالزواج لمكان حبهما ، فما تقبل ان ينجز وعده ، فتفرقا فى أيدى المالكين ، وباعدت بينهما البلاد ، فظل كلاهما دهرا يحن الى اليفه حنين اليأس ، الى أن جمعتهما الدار يوما فرآها بعد القنوط فثار به حبه القديم ، فو الله الذى فلق الحبـــة وبرأ النسمة للحب الذى أجتهد فى شرحه بين يديك اعظم من حب ذلك الامير لابنة عمه الاميرة ! » •

وكان جواب الملكة العظيمة لكلا الرسولين ان خطر الناصر على مصر لا يزال قائما ، وانها لن تفكر فى الزواج حتى يزول،



فجعل اقطاى يقود الحملة اثر الحملة لقتال الناصر واشياعه بالشام ابتغاء مرضاة شجر الدر . ويغار عز الدين من ان ينفرد خصمه بشرف الانتصار دونه فيسير احيانا بنفسه لقتال الناصر وينيب مملوكه الامين على البلاد . حتى تقرر الصلح بينه وبين الناصر على ان يكون للمصريين الى الاردن داخلا فى ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وللناصر ما وراء ذلك .

فلم يبق لدى شجر الدر ما تتعلل به من امر الناصر دون الزواج ، ولكنها لم تشأ ان تتعجل الفصل فى هذا الامر الخطير الذى يقوم عليه مستقبلها الغامض . فلم تعدم معاذير اخرى تستأجل بها البطلين المتنافسين ، وظلت توازن بينهما ايهما تمنحه رضاها وتأمنه على مصيرها . ونظرت فوجدت امامها رجلين احدهما يحبها ويخضع لها اكثر من صاحبه ، والاخر تعجب به لقوته وبطولته اكثر من اخيه ، فمال قلبها الى الاول . ولكنها لم تشأ ان تقطع بقبول عز الدين أيبك حتى ترى ما يكون من امره اذا نفد صبر اقطاى فعزم على مواثبته جهارا . فرأت ان تعمل على تأريث نار الخصام بينهما فتستعجل بذلك يوم الفصل . فقالت لرسول عز الدين لما جاءها : قل لاستاذك انى لا اقبل ان اتزوج نصف ملك فاذا صار ملكا تزوجته .

ففهم عز الدين انها تحرضه على عزل السلطان الصغير الملك الاشرف والاستقلال بالملك دونه ، وكان قد فكر زمنا فى ذلك ، اذ رأى ان اركان ملكه لا تثبت بدونه لان الامراء المماليك وخصمه اقطاى خاصة يتخذون حق السلطان الصغير سببا يعترضون به على سلطته ، ويتداخلون به فى شؤونه ، فلما وجد شجر الدر تقترح عليه ذلك صدع بأمرها وتوكل على الله .

وما هى الا ايام حتى انفرد الملك المعز بملك مصر ، وأزيل اسم الملك الاشرف من الخطبة ، وقبض عليه فسجن بالقلعة ، والملك الصغير لايدرى لماذا اجلسوه على العرش ، ثم لماذا اودعوه

السجن ، وهو لم يأت عملا استحق به العرش فى الاول ، ولم يقترف جرما استحق به السجن فى الاخر .

وكبر على فارس الدين أقطاى ما فعل الملك المعز ، وأيقن أن قد آن أوان الجد فى منازلة خصمه العتيد ، فجمع اليه اشياعه واتباعه واستعد للوثوب ، ولكنه لم يشأ ان يستعجل الامر ويثب فى وضح النهار ، لئلا يثير بذلك خوف شجرة الدر منه ، فتتقى شره بتحريض سائر الامراء المماليك عليه _ وكلمتها مسموعة عندهم ، ولا يجرؤ أحد منهم على مخالفتها _ فيبوء بالخيبة وينتصر خصمه عليه ، لا سيما وهو لم ييأس بعد من اكتساب رضاها اذ ذاك ، ولم تقطع امله فى الوفاء بما وعدته به ، فهذا رسوله بيبرس لا يزال يتودد اليها ، فتلقاه بما يسره من الوعود ، ويفهم من ذلك أن الملكة لا تمد يدها الا الى الغالب .

فقر عزم أقطاى على أن يكيد للملك المعز ، واذ رأى أن تبعة الحكم قد صارت على عاتق الملك المعز وحده بعد استقلاله بالملك ، فقد فكر فى افساد الامر عليه بنشر الاضطراب فى البلاد حتى يظهر بذلك عجز الملك المعز عن القبض على زمام الحكم ، وحينئذ تتلفت البلاد فلا تجد غير أقطاى .

فأوعز اقطاى الى خشداشيته من المماليك البحرية واتباعهم فعاثوا فى الارض فسادا واستطالوا على الناس . فجعلوا يأخذون اموال العامة ونساءهم واولادهم بأيديهم فلا يقدر أحد على منعهم ، حتى بلغ من بغيهم وفسادهم ان كانوا يدخلون الحمامات يأخذون النساء منها غصبا ، فاذا قيل لاقطاى فى ذلك قال : « لا قدرة لى عليهم ، فدعوا الملك المعز يكفهم عن البغى فى البلاد » .

أما الملك المعز فقد حاول فى أول الامر ان يسترضى أقطاى ، فاغدق عليه الاموال ، واقطعه ثغر الاسكندرية ، وكتب له منشورا بذلك طمعا فى ان يكف شره عنه وشر اتباعه ، ولكن أقطاى عد هذا ضعفا من جانب المعز ، فزاد طمعه فيه وقوى أمله فى الانتصار عليه .

ونظرت شجر الدر الى ما انتهت اليه الامور فى انصراع بين البطلين المتنافسين فيها وفى عرش البلاد ، فأدركت بحكمتها ودهائها ، أن السلاح الذى استعمله اقطاى سيرتد فى نحره يوما ما فيقضى عليه · لان الناس قد ضجوا من فساد اتباعه وأخذوا يجأرون بالشكوى منه ، وهى تعرف قوة العامة واثرهم فى تقرير مصائر الرؤساء والحكام ، فبتت فى أمرها ، واعلنت الملك المعز بعزمها على التزوج به ، ولم تشأ ان تتباطأ فى ذلك فعجلت به ·

وما راع الناس الا زفاف الملكة شجر الدر الى الملك المعز ، واقامة الزينات والافراح فى القلعة والقاهرة وسائر المملكة المصرية . فدقت الطبول ، ونشرت الاعلام ، وقدمت وفود الرجال والنساء من سائر البلاد يهنئون الملكين العروسين على زواجهما السعيد ·

وأسقط فى يد اقطاى ، اذ رأى امله ينهار أمامه ، وأدرك أن شجر الدر كانت تخادعه وتمنيه بالباطل ، فاضطرم قلبه حقدا عليها ، ونوى أن ينتقم منها ، ولو فقد فى سبيل ذلك الرأس الذى على عنقه · فجمع اصحابه واتباعه وهدد بهم غيرهم من المماليك البحرية لكى ينضموا اليه ، ويبسط عليهم نفوذه · وجهر بمعارضة أوامر الملك المعز ، واستبد بتدبير الامور دونه ، ووضع مقاليد السياسة فى ايدى اتباعه ، فلم يبق للملك المعز معهم امر ولا نهى ، ولا حل ولا عقد ، وعاد لا يسمع احد منهم له قولا ، فاذا رسم لاحد منهم بشىء ، اخذ اضعاف ما رسم له ، وان امر لاحد من غيرهم بشىء ، لم يمكن من اعطائه ما امر به · واجتمع الكل على باب اقطاى ، وصارت كتب الملك الناصر وغيره انما ترد اليه ، ولا يقدر احد أن يفتح كتابا او يرد عليه ، اويبرم امرا ، او يتكلم بشىء الا بحضوره.

وهذا عقابه للملك المعز فأين عقابه للملكة شجر الدر ، وأين انتقامه منها ؟ ان عقابها لا يتم الا بانزالها من قلعة الجبل ، لتحل محلها زوجة له من بنات الملوك · وقد احكم تدبيره لهذا الامر من قبل ، شما راع الناس الا النبأ العظيم

بان الامير فارس الدين اقطاى قد صاهر الملك المظفر ، صاحب حماة ، وأن ابنته قد حملت الى دمشق ، فى موكب عظيم ، لاحضارها الى مصر حيث تزف الى من بيده فيها الامر والنهى ·

وركب اقطاى فى عصبة من اصحابه الى الملك المعز بقلعة الجبل ، فأخبره باصهاره الى الملك المظفر صاحب حماة ، وطلب منه الاذن له بأن يسكن قلعة الجبل بعروسه من سلالة الملوك · فوجم الملك المعز هنيهة ، ثم قال انه سينظر فى طلبه فقال له أقطاى : « لا أرى موضعا للنظر فى هذا انطلب · وان كنت انما تريد استشارة شجر الدر ، فما احسبها تستنكف أن تنزل عن سكنها فى قلعة الجبل لابنة ملك من بيت مواليها وأولياء نعمتها » · فانقطع الملك المعز ولم يجب ·

ولما سمعت الملكة شجر الدر بالخبر أيقنت بالخطر وادركت ان الامر جد كله لا هزل فيه ، وان ابنة الملوك آتية لا ريب فيها فنازلة بقلعة الجبل كما شاء اقطاى ، اذا لم تعجل بالضرب على يده ، وقد عرفت انه قصد بذلك ارغام انفها ، وكسر نفسها ، انتقاما منها لانها آثرت عز الدين عليه · وكان قد أزعجها قبل ذلك تحدى اقطاى لسلطة الملك المعز ، وتعديه على حقوقه ، واستبداده بالامور دونه حتى كأنه هو الملك ، فأخذت تفكر فى التخلص منه ، ولكن هذه الطامة الاخيرة هى الطامة الكبرى · فلتظفر به قبل ان يظفر بها ·

فأشارت على زوجها الا يعارض اقطاى فى شىء ، وأن يظهر له الرضا بما طلب ، وأوعزت الى سيف الدين قطز ، مملوك زوجها ، أن يلقى فى اذن صديقه بيبرس ان الملكة قد عزمت على التحول من قصر القلعة وتركه للاميرة القادمة · ونفذت شجر الدر هذا التدبير بالفعل ، فجعلت تظل نهارها بقلعة الجبل ، حتى اذا امسى المساء ، انتقلت مع جواريها وحاشيتها الى قصر اخر · اسفل القلعة ، فأوقدت فيه المصابيح · فلم يشك اقطاى ان شجر الدر انما عجلت باخلاء قلعة الجبل لكيلا تأتى زوجته الاميرة الا وهى فى قصر اخر ، فتخفف على نفسها بذلك معرة الخنوع لارادته · فاطمأن اقطاى الى حله



واغتر بنفسه ، واعتقد ان الامور ستواتيه ، وان الملك سيتم له.
وبعثت شجرة الدل الى مملوك زوجها ، فقالت له : « انى اريد أن أفى لك بوعدى وأزوجك جلنار ، ولكنى لا احب أن يتم عرس وصيفتى الاثيرة عندى فى غير قلعة الجبل ، وقد رأيت اننا اخليناها لذلك الذى لا يقدر عليه احد فى مصر ، ليسكنها مع زوجته ! » .

فادرك قطز أن الملكة تحرضه على قتل فارس الدين أقطاى وتعده بانجاز ما وعدت اذا هو خلصها من شره . فداربخاطره أن الملكة ربما لم تماطله وعدها الى ذلك العهد الا لتندبه لمثل هذا العمل الخطير ، وتطلب منه ان يقدم لها رأس الفارس اقطاى مهرا لجلنار وانه لمهر كبير ولكن جلنار اثمن من ذلك وأعظم . وقد بدا من ظلم اقطاى وبغيه على الناس وفساد اصحابه فى البلاد ما يستحل به دمه ويتقرب الى الله بقتله . وكذلك قد رأى ان استاذه الملك المعز لن يستقر له أمر ولن يثبت له ملك حتى يزول اقطاى من الوجود .

فأعلن قطز الى الملكة والى استاذه الملك المعز انه زعيم لهما بقتل اقطاى ، فاتفق الثلاثة على ان يدعى فارس الدين اقطاى لمقابلة المعز فى القلعة ، حتى اذا بلغ الدهليز برز له قطز فقتله ، واشار المعز على قطز ان يختار جماعة ممن يثق بهم من مماليك المعز واشياعه ليساعدوه فى مهمته الخطيرة ، فقال قطز : « اننى أكفيكه وحدى » .

قال المعز : « انه شديد القوة كريه اللقاء يا قطز ، ونحن بعد بحاجة اليك ، ولئن افلت من يدك ليكونن فيه هلاكنا . وما زال بقطز حتى رضى بأن يعاونه اثنان اختارهما من مماليك المعز .

وكان قطز وبيبرس لا يزالان صديقين الى ذلك العهد ، فكان احدهما اذا أراد الخروج للصيد مع اصحابه دعا الاخر فخرج معهم . واتفق يوما ان عزم بيبرس على الخروج للصيد .فدعا قطزا لمرافقته فى غد ذلك اليوم ، وعلم منه قطز انه سيخرج مع جماعة كبيرة من اصحابه من كبار اشياع فارس الدين اقطاى

فرأى ان يغتنم فرصة غياب هؤلاء عن البلد لينفذ ما تعهد به من اغتيال اقطاى . فاظهر لبيبرس الموافقة على اقتراحه ، ولكنه بعث اليه فى صباح اليوم التالى من اعتذر له عن الخروج بانحراف مزاجه .

ولما تأكد قطز من خروج بيبرس وجماعته دخل على استاذه فأخبره ان الفرصة قد سنحت .

فبعث الملك المعز الى فارس الدين اقطاى يدعوه اليه ليستشيره فى امر مهم . وكان اقطاى قد اطمأن من جهته لما أظهره من موافقته ومصانعته ، ولما رأى من نزول شجرة الدر عن قصرها بالقلعة ، فلم يصغ الى مماليكه الذين نصحوه أن لا يجيب دعوة الملك المعز ، وقالوا له انما دعاك ليكيد لك فانتظر حتى يرجع بيبرس وقلاوون الالفى وسنقر الاشقر من الصيد ، فقال لهم : « انى لا انتظر فى امر كهذا حتى يرجع هؤلاء ، ولكن هؤلاء يجب ان ينتظروا حتى ارجع » .

وركب اقطاى غير مكترث بنصيحة مماليكه ، فقالوا لانتركك وحدك وركبوا معه ، فعندما دخل من باب القلعة وصار الى قاعة العواميد أغلق باب القلعة ومنع مماليكه من العبور معه ،فأحس بالشر ووضع يده على مقبض سيفه ، ومنعه كبرياؤه عن النكوص فمضى فى طريقه فلقيه قطز وصاحباه فى الدهليز ، فلما رآهم قال لهم بلهجة الآمر « اذهبوا فافتحوا الباب لمماليكى » .

فقال قطز لصاحبيه « اذهبا فافتحا لمماليكه » فمر الرجلان من جانب اقطاى حتى صارا خلفه ومضى به قطز قدما فى الدهليز فقال له « اعطنى سيفك فلا ينبغى للملك ان يقابله أحد رعيته والسيف معه » فغضب اقطاى وصاح فى وجهه قابضا على سيفه : « اتجردنى من سيفى ايها المملوك القذر ؟ »

فبدره قطز فطعن جنبه بخنجره وهو يقول له : « بل اجردك من حياتك وأطهر البلاد من رجسك »

فثار أقطاى وحمل على قطز بسيفه واضعا يده الاخرى على فم الطعنة فى جنبه فسل قطز سيفه فلقيه به ، وأراد الآخران ضرب اقطاى من خلفه فصاح بهما قطز « دعاه يقتله المملوك

القدر وحده لئلا يقول الناس قتله ثلاثة من مماليك المعز «فبقى قطز يوانبه ويتقى ضرباته الهائلة يبغى بذلك ان تخور قواه للطعنة التى فى جنبه واقطاى يصيح « يا ملعون اثبت لى » فيجيبه قطز « يا زوج الاميرة اثبت لنفسك » حتى نزف اقطاى الدم ، ونهكته المواثبة ، فخانته قدماه فوقع كالجمل البارك وما تكف يده عن الضرب بسيفه يمينا وشمالا ، وقطز امامه ينظر اليه ، وهو يقول لقطز فى صوت كالحشرجة « ادن منى يا صديق بيبرس ،ادن منى » .

وكانت الملكة شجر الدر تطل على المشهد من مقصورتها ، والملك المعز يشرف من ديوانه ، فنادت الملكة بصوت يسمعه أقطاى : « يا مغرور دع بنت الملوك تنفعك » . فلما سمع صوتها اجتهد ان يرفع طرفه نيراها فوقع على ظهره وهويقول « يا خائنة ! » ولم يقل بعدها شيئا .

ولما استبطأ مماليكه الذين على الباب خروجه ايقنوا بأن المعز قبض على استاذهم ، فانطلقوا يذيعون خبره بين اصحابه حتى بلغ بيبرس وجماعته وهم فى الصيد فرجعوا مسرعين ، وجمعوا اتباعهم فركبوا الى قلعة الجبل فى سبعمائة فارس يتقدمهم بيبرس فوقفوا تحت القلعة يطلبون تسليم زعيمهم . فما راعهم الا رأس اقطاى قد رمى به المعز اليهم وناداهم قائلا « انجوا بأنفسكم قبل ان ينالكم ما نال رئيسكم » .

فأسقط فى ايدى القوم وأيقنوا ان المعز لم يجرؤ على مافعل الا وقد استعد لهم ، فسرى فى قلوبهم الرعب فانطلقوا متفرقين ، فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار الى الملك الناصر بدمشق ، ومنهم من اقام ببلاد الغور والبلقاء والقدس يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه . وكان بيبرس فيمن لحق بالملك الناصر . وقد جعل من ذلك اليوم يقول : « لقد فعلها صديقى فى ، والله ليكونن من قتلاى ! »

الفصل الثالث عشر



الفصل الثالث عشر

قبض الملك المعز فى صباح اليوم الثانى على جماعة اقطاى من المماليك البحرية ، فقتل رؤساءهم الذين يخشى منهم وحبس الباقين . واستراح الناس من بغيهم وفسادهم ، وظلوا اياما يتذاكرون حديث مصرع اقطاى بيد سيف الدين قطز ، وأعجبوا بشجاعة قطز وبطولته ، وعظم فى عيونهم واحبوه من ذلك الحين . وعرف الملك المعز لمملوكه الشجاع الامين فضله عليه وعلى ملكه ، فزاد فى تقريبه وترقيته ، حتى اعتقه وقلده أكبر منصب فى الدولة وهو منصب نائب السلطنة ، فلم يزد قطز الا اخلاصا له وتفانيا فى خدمته .

ولم تنس الملكة شجر الدر فضل هذا المملوك الشجاع عليها ، فبرت له بوعدها وانعمت عليه بجلنار ، وكان الذى تولى عقد تزويجها له هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ،وكانت الملكة هى التى تولت بيدها اصلاحها وتزيينها ، وزفتها بنفسها الى نائب السلطنة سيف الدين قطز .

وأقيم العرس السعيد فى قلعة الجبل ، وجلس الملك المعز لاستقبال وفود التهنئة بزواج مملوكه الوفى ، كما جلست الملكة تستقبل وفود النساء المهنئات بزواج وصيفتها الجميلة

وانتصف الليل ، وانفضت جموع المدعوين والمدعوات ، وسكتت اصوات الغناء ، والحان المزاهر والعيدان ، وخفتت

الطبول · وسكنت حركات الرقص ، وتناعست عيون المصابيح وأخذ الخدم يرفعون الموائد ويطوون الاخونة ، وآوت الجوارى الى محادعهن بين الفرح والحسرة ، وأرخيت الستائر على الجناح الميمون ، وخلا الحبيبان السعيدان ·

فطاب اللقاء وساد الصفاء ، وسالت دموع الفرح ، وتحدث القلب الى القلب ، ونذت الشكوى ، ورقت النجوى ،وتذوكرت ذنوب الزمان ثم غفرت له دفعة واحدة · ومرت اللحظات ، كأنها حبات عقد من اللؤلؤ النضيد وهى سلكه فانتثر ، وقرت بنعيم الوصل عيون طالما اسهدها البين الطويل ، فماكانت تنطبق الا على نوم نافر ، ومضجع قلق ، فمشى اليها النعاس مترفقا يستعتبها فاعتبته وضمته فى شوق بين اهدابها الساجية ، فرقد اثنان الحب ثالثهما تحوطهما بسمات الله ورضوانه · وتحقق حلم فى الارض ، واجيبت دعوة فى السماء انطلقت من فم رجل صالح : واطمأنت روحا امرأتين غرقتا فى نهر السند ، وكانتا كثيرا ما تنظران اليهما صغيرين يلعبان فى حديقة القصر الملكى بغزنة فتتمنيان ان تريا مثل هذا اليوم ·

حتى تنفس الصبح وبرد السوار ، فهب العروسان مذعورين يخشيان ان يكون ما كانا فيه رؤيا فى المنام ، والتمس احدهما الاخر فى نور الغبش ، فاذا هما متعانقان ·

وعاش الزوجان السعيدان حينا من الدهر فى قصر من قصور قلعة الجبل تحت رعاية سيديهما الزوجين السعيدين ولكن الزمان الغادر كان ابخل من ان يبقى على قصرين هانئين فى تلك القلعة التى طالما تعاقبت فيها المآتم والافراح · فما لبثت يده ان جالت فى حواشى القصر الكبير فتكدر صفوه ونضبت بشاشته ورحلت الطمأنينة عنه ·

فان المعز لم يكد يتخلص من اقطاى وجماعته ويأمن جانبهم وتستتب له الامور ويدين له الجميع بالطاعة ، حتى استثقل سلطة الملكة شجرة الدر ونفوذها عليه وتشبثها بما تدعيه من حقها فى الاستئثار بالسلطان دونه ، اذ ترفع من تشاء وتضع

من تشاء ،ويرى امره مردودا الى امرها ،وأمرها ليس له رد ،وكان قد انقطع زمنا عن زوجته القديمة ام ابنه على ، فعاد اليها وجعل يفكر فى مستقبل ابنه وتوطيد الامور له ليكون خلفه على عرش مصر · فاستوحشت شجرة الدر منه ، وغارت من ضرتها عليه كما غارت منه على سلطتها المهددة بالزوال ·

وليست شجرة الضر بمن يستنيم للحوادث أو يترك حبل الامور على غاربها حتى يضيع حق قلبها فى الاستئثار بزوجها، وحق نفسها فى الاحتفاظ بسلطتها العتيدة · فعزمت على الكفاح دون هذين الحقين وعدم التفريط فى شىء منهما مهما يكلفها ذلك من المتاعب · فرسمت للدفاع عن كلا الحقين خطة تجرى عليها · فأما حقها الاول فقد امرت زوجها بالانقطاع عن زوجته الاخرى ، ولكى تستوثق من ذلك الزمته بطلاقها· واما الحق الثانى فكان امره يسيرا عليها اذ جعلت تدنى اليها من لا يميل الى الملك المعز من المماليك الصالحية ، وتقربهم وتوليهم المناصب ، وعمدت الى خاصة رجاله ومماليكه وأشياعه فطفقت تقصيهم وتنزع منهم مقاليد الامور · وما زالت كذلك حتى تعاظم نفوذها واستبدت بأمور المملكة فكانت لا تطلع الملك المعز عليها ·

أما الملك المعز فقد شق عليه ما فعلت شجرة الدر ،ولم تطب نفسه بتطليق ام ولده الذى كان يسعى فى توريث الملك له. فاشتدت الوحشة بينه وبين الملكة حتى خشيها على نفسه ، فنزل عن قلعة الجبل واقام بمناظر اللوق حيث يبيت فيها مع زوجته ام على ، ولا يغشى قلعة الجبل الا وجه النهار ليقوم فيها بشئون الملك · وظلت الحرب بين الملك والملكة مستعرة من وراء الستار ، وكلاهما يفكر فى التخلص من الاخر ومن عجيب امرهما انهما اتفقا فى وسيلة واحدة ظناها ناجعة فى هذا السبيل ، وأخذاها عن عدوهما البطل الصريع فارس الدين أقطاى ، وهى ان يرفعا من قدرهما بالاصهار الى ملك من ملوك البيت الايوبى · أما شجرة الدر فقد بعثت أحد أمناء سرها بهدية فاخرة الى الملك الناصر صاحب دمشق ،

وأرسلت معه كتابا تعرض فيه على الملك الناصر التزوج بها على ان تملكه مصر وتتكفل له بقتل المعز . اما المعز فانه بعث يخطب ابنة الملك المظفر صاحب حماة ، عروس عدوه اقطاى التى لم تزف اليه . فلما لم تقبل الاميرة الحموية طلب قاتل خطيبها عاد فبعث الى الملك الرحيم صاحب الموصل يخطب ابنته ، فقبل الملك الرحيم طلبه وكتب اليه يحذره من شجر الدر ويعلمه بأنها باطنت الملك الناصر .

وعلمت شجر الدر بما كان من خطبة المعز لابنة صاحب الموصل كما علم هو بما عرضت على الملك الناصر . فتضاعفت الوحشة بينهما وكشر الشر عن انيابه ، ولم يبق للوفاق بينهما سبيل ، واحتاطت شجر الدر فامرت وصيفتها جلنار بأن تنقطع عن خدمتها فى القلعة . فانتقلت مع زوجها الامير سيف الدين قطز نائب السلطنة الى قصر اخر خارج القلعة . وكان قطز قد حار فى هذه المسالة الدقيقة بين الملك والملكة ، فلأستاذه فضل عليه ولشجر الدر فضل على زوجته وعليه كذلك ، فظل زمنا يصرف استاذه عن خطبة ابنة صاحب الموصل ويوصيه بان يتريث فى الامور ويعالجها بالحكمة والرفق ، حتى تخضع له شجر الدر او يظفر بها اذا اقتضى الحال ذلك ، لكن استاذه كان يحتج بانه لا يستطيع اجابة الملكة الى ما سالت من تطليق أم ولده ، ولا يقدر ان يصبر على مجاهرتها بعداوته واستبدادها بالامور دونه . فلا يسع قطزا الا السكوت ، غير انه لما علم بمكاتبة شجر الدر للملك الناصر قوى عنده عذر استاذه فشد ازره فى الباطن ، ولكنه بقى على ود الملكة فى الظاهر حفظا لسابق جميلها معه ومع زوجته .

وعلمت شجر الدر بعزم الملك المعز على انزالها من القلعة الى دار الوزارة ، وانه جاد فى ذلك ، فعزمت على ان تسبقه بالكيد قبل ان يخرج الامر من يدها ، فبعثت اليه من حلف له بأنها ندمت على ما كان منها فى حقه ، واشتاقت الى مصالحته ، ونزلت عن الزامها اياه بتطليق ام ولده . وأنها مافعلت ذلك الا بدافع من حبه والغيرة عليه ، متكلة فى ذلك كله على مالها

من الدالة عنده ، وقد تبين لها الان انها اسرفت فى العتاب عليه ، وذهبت فى عقابه الى أبعد مما يقتضيه استصلاحه واسترجاعه اليها .

فرق لها الملك المعز حتى بكى ، وغلبه الحنين اليها ، والشوق الى سالف عهدها . وكان حبها لا يزال حيا فى قلبه وان رانت عليه المطامع وغشيته اهواء السياسة ، فما لبث ان انتعش لما سمع استعتابها الرقيق ، وعز عليه ان لا يعتبها بعد أن بعثت اليه تسترضيه وترجوه المصالحة . فقال لرسولها انه سيصالحها ويبيت عندها تلك الليلة .

وكانت شجر الدر قد اوصت رسولها بأن لا يخاطب الملك المعز فى حضرة مملوكه نائب السلطنة ، ولكن قطزا علم بما جرى فنهى استاذه عن المبيت فى القلعة . وحذره من كيد الملكة واكد له انها تنوى به الشر فلم يجد من استاذه اذنا صاغية

ولما اشتد قطز فى نهيه احتد عليه المعز وقال له : « أرأيت لو نهيتك عن لقاء زوجتك جلنار كنت تدعها لقولى ؟ » فعرض عليه قطز ان يصحبه الى القلعة . فامتنع وقال له : «ياحبيبى لا تفعل ، كيف اصالحها وأسيء الظن بها ؟ » فوجم قطز وقال فى نفسه : « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

وقضى الامر حقا وقتل الملك المعز فى الحمام ليلا بايدى جماعة من خدم شجر الدر . واشيع ان المعز مات فجأة فى الليل . وصاح الصائح فى القلعة فانطلق ممانيك المعز الى الدور السلطانية وقبضوا على الخدم والحريم حتى اقروا بما جرى . فقبضوا على شجر الدر واعتقلوها فى احد ابراج القلعة . ونصب نور الدين على ابن الملك المعز سلطانا بقلعة الجبل ولقب بالملك المنصور ، وأقيم الامير سيف الدين قطز نائب السلطنة على حاله ، وصار مدبر دولة الملك الصغير ، ولما استقرت الامور كان أول ما فعل الملك المنصور ان امر فحملت شجر الدر الى امه ، فأمرت جواريها فضربنها بالقباقيب حتى ماتت فالقيت من سور القلعة الى الخندق ، ثم ووريت التراب بعد ايام ، واسدل الستار على الملكة العظيمة المجاهدة شجر الدر صاحبة الملك الصالح أم خليل .

الفصل الرابع عشر



لما قدم بيبرس وجماعته المغاضبون الى دمشق اكرمهم الملك الناصر ، واغدق عليهم الاموال وخلع عليهم على قدر مراتبهم ، وما استقر بهم المقام عنده حتى جعلوا يحرضونه على قتال المعز وانتزاع مصر من يده . فظل الناصر يدافعهم عن ذلك، لا يجيبهم الى ما طلبوا ولا يؤيسهم من اجابته ، حتى تجدد الصلح الاول بينه وبين الملك المعز منصوصا فيه على ان لا يؤوى الملك الناصر احدا من المماليك البحرية . فما كان منهم الا ان غادروا دمشق ولحقوا بالملك المغيث فى الكرك فأقاموا عنده يحثونه على غزو مصر ، ويعرضون عليه مساعدته فى ذلك . فتردد الملك المغيث برهة حتى بلغه موت الملك المعز . فتشجع وسير عسكره مع بيبرس فى ستمائة فارس . فجهز الامير سيف الدين قطز عسكرا لقتالهم ، فالتقى الجمعان بالصالحية فانكسر عسكر المغيث وانهزم بيبرس الى الكرك .

شق على بيبرس ان يغلب فى هذه المعركة ، وكان قد منى نفسه بالتقدم الى مصر واخذها من يد المعز ، والانتقام لرئيسه أقطاى منه ومن اصحابه ولا سيما صديقه قطز الذى اقسم هو ليقتلنه بيده . ولما رجع من هزيمته الى الملك المغيث بالكرك آنس منه وحشة لان المغيث اعتقد انه غرر به وبعسكره اذ حرضه على غزو مصر ، فرأى بيبرس ان يعود الى الملك الناصر لعله يجد عنده من العزم على غزو مصر فى هذه المرة بعد مقتل

المعز مالم يجد عنده من قبل . فبعث الى الناصر يستأمنه ويستحلفه ، فآمنه الناصر وحلف له ، فرجع بيبرس اليه ، وعاد الناصر الى بره واكرامه .

وكان خطر التتار فى ذلك الحين قد عاد يتهدد بلادالاسلام بأشد مما كان فى ايام جنكيز خان . فقد انحدر منهم جيش كبير بقيادة طاغيتهم الجديد هولاكو فعصفوا بالدولة الاسماعيلية فى فارس ثم زحفوا على بغداد فقتلوا الخليفة اشنع قتلة ثم مضوا يسفكون الدماء وينتهكون الاعراض وينهبون الدور ويخربون الجوامع والمساجد وعمدوا الىمافيها من خزائن الكتب العظيمة فالقوها فى نهر دجلة حتى جعلوا منها جسرا مرت عليه خيولهم . واستمروا على ذلك اربعين يوما وأمر هولاكو بعد القتلى بعد ذلك فبلغت عدتهم زهاء مليونى نفس .

سرت أنباء هذه الفاجعة التى حلت بعاصمة المسلمين الكبرى فاهتز لها العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وامتحن الله بها قلوب ملوكه وامرائه ليعلم من يثبت منهم على دينه فينتدب لجهاد أولئك البغاة المشتركين ، ومن يرتد منهم على عقبيه جزعا من الموت وخوفا على مافى يده من زينة العاجلة ومتاع الحياة الغرور ، فيوالى اولئك البغاة ويمالئهم على دينه وامته ووطنه . فهذا الامير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد خشى التتار فأعانهم على اخوانه المسلمين المجاهدين بأربل . وهذا الملك الناصر صاحب دمشق ، سليل هازم الصليبيين وسميه قد أنفذ ابنه بهدايا الى طاغية التتار ليسأله فى نجدة يأخذ بها مصر من المماليك .

ولكن فى مصر - مصر التى حمت الاسلام يوم فارسكور ، وهزمت الصليبيين ، وسجن لويس التاسع فى دار ابن لقمان وردته الى بلاده بخفى حنين - رجلا كأنما اعده جبار السماء للقاء جبار الارض ! ومن أصلح لجهاد التتار من زوج جلنار الذى كان كل همه فى الحياة ان يعيش حتى ينتقم منهم لاسرتها المجيدة - وهذا حظ نفسه - وحتى ينتصف منهم

للاسلام – وهذا حظ دينه وملته ؟

فلم يكد نائب السلطنة المصرية يسمع بما حل ببغداد من نكبة التتار ،وبتحفز هولاكو للانقضاض على سائر بلاد الاسلام ، حتى ثارت شجونه ، وتمثلت له ذكريات خاله جلال الدين وجده خوارزم شاه ، وما كان من جهادهما لهم فى عهد طاغيتهم الاكبر جنكيز خان ، وكيف انتهى ملكهما على ايديهم وتشتت شمل اسرتهما فصاروا فى الناس احاديث • وأيقن أن دوره العظيم قد جاء لينتصف حفيد خوارزم شاه من حفيد جنكيز خان ، وان رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم قد بدأت تتحقق • اليس هو اليوم حاكم مصر ، ومدبر دولتها ومصرف أمورها ، وليس لسلطانها الصغير الا الاسم ؟

وقد سرى الخوف من التتار الى مصر لكثرة اللاجئين اليها من العراق وديار بكر ومشارف الشام • وأخذ هؤلاء يحدثون الناس بفظائع التتار وافاعيلهم المنكرة ، من أشياء تقشعر لها الابدان، وتقف الشعور ، وتستك المسامع ، وتنخلع القلوب جزعا وهلعا ، فما يشك الناس بمصر ان التتار آتون اليهم لا محالة ، ولا يقوم لهم جيش ، ولا تقى منهم حصون • فانتشر بينهم الذعر ، وعزم فريق منهم على الرحيل عن مصر الى الحجاز أو اليمن ، وعرضوا املاكهم ليبيعوها بأبخس الاثمان • فكان على نائب السلطنة ان يبذل جهودا عظيمة لطمئنة الناس وتسكين خواطرهم ، وافهامهم ان التتار ليسوا الا بشرا مثلهم • بل هم بما أعزهم الله به من الاسلام أقوى من أولئك الوثنيين ، وأجدر ان يثبتو للبأسى ، وأن يبيعوا نفوسهم غالية فى سبيل الله ودينه وكان الامير سيف الدين قطز فى خلال ذلك يختلف سرا الى بيت شيخ الاسلام ابن عبد السلام ويستشيره فى أمور كثيرة ، فاذا سأله الشيخ عما انجز من الاعمال استعدادا لقتال التتار ، شكا اليه قطز ما يلقاه من المصاعب ، لمكان الملك الصبى ، والتفاف بطانة السوء حوله وحول امه ، يفسدون ما بينه وبين قطز فيتصدى لخلافه فيما يرى القيام به لازما فى هذا الموقف -

وكان الملك المنصور قد كثرت مفاسده وشغل عن شئون الملك باللعب ومناقرة الديكة ، وتحكمت امه فاضطربت الامور وكرههما الناس • فأخذ ابن عبد السلام من ذلك الحين يشجع قطزا على خلع الملك والاستقلال بالسلطنة دونه ، بل جعل يوجب ذلك عليه اذ ليس فى البلاد اصلح منه لجمع كلمة المسلمين حتى يتأهبوا لدفع غائلة التتار عن بلادهم

وقد كان عزيزا على قطز المعزى ان يخلع ابن المعز استاذه وولى نعمته ، وتردد طويلا فى ذلك ، وود لو استطاع أن يمضى فى عمله مع بقاء المنصور فى السلطنة • ولكنه رأى استحالة ذلك فى مثل هذا الموقف العصيب الذى يحتاج الى اجتماع الكلمة وسرعة البت فى الامور ، فكان عليه ان يختار بين الوفاء لاستاذه الذاهب ، والوفاء لمصر الباقية ، وفى الاول تعريض سلامة مصر وسلامة سلطانها نفسه لخطر التتار • وفى الثانى الرجاء فى حمايتها وحماية سائر بلاد الاسلام من هذا الخطر الداهم • فصح عزمه على خلع المنصور •

واتفق اذ ذاك ان بعث الملك الناصر رسولا الى سلطان مصر الملك المنصور يستنجد بعسكر مصر لصد التتار عن بلاده • بعد ان يئس من اجابة هولاكو طلبه ، اذ كتب اليه هولاكو يأمره بالخضوع له وتسليم البلاد اليه • فاغتنم قطز هذه الفرصة ، وعقد مجلسا بقلعة الجبل عند الملك المنصور ، دعا اليه الوزراء والامراء والعلماء والقضاة واهل الحل والعقد ، وحضره سفير الملك الناصر ، فتذاكروا امر التتار وما اوجب الله على المسلمين من جهادهم ، ودفع شرهم عن البلاد •وحفظ بيضة الاسلام منهم • فشعر الحاضرون شعورا واضحا بضعف السلطان ، وعدم صلاحيته للحكم فى مثل هذه الظروف الحرجة ، وان لابد من سلطان قوى حازم يضطلع بهذا الامر الكبير حتى لا يختلف الناس وتذهب ريحهم •

وكان الشيخ ابن عبد السلام فيمن حضر ذلك المجلس من العلماء ، فجهر بهذا الرأى فى غير تعريض ، واقترح ان يلى الحكم الامير سيف الدين قطز لصلاحه وقوته حتى تتفق كلمة

المسلمين • فدهش اهل المجلس من شجاعة الشيخ وصراحته وأشفق عليه اصحابه ومحبوه ان يصيبه سوء من قبل السلطان والامراء الذين يعز عليهم ان يخضعوا لقطز ويستأثر دونهم بالسلطة • وحصل اضطراب فى المجلس ، وجهر الامراءالمماليك المعزية منهم والصالحية برفض الاقتراح ، وعدوه افتئاتا على حق الملك المنصور • وكاد يحصل مالا يحمد فى المجلس لولا أن فضه الامير قطز ، فانصرف الحاضرون وهم يتـــذاكرون ما جرى فى المجلس ، فمنهم من يميل الى الامير قطز وهم سواد الناس ، ومنهم من يميل الى الملك المنصور وجلهم من الامراء واتباعهم • وخشى الامير قطز على الشيخ ابن عبد الســلام أن يجنى عليه الامراء ، فرتب رجالا اشداء لحراســته حتى ابلغوه مأمنه ، وظلوا بعد ذلك يحرسونه اينما ذهب •

وانتهز الامير قطز فرصة خروج كبار الامراء ذات يوم للصيد فقبض على المنصور وأخيه قاقان وامهمــا واعتقلهم فى برج بقلعة الجبل واعلن نفسه سلطانا على مصر ، وجلس على سرير الملك وتلقب بالملك المظفر •

ولما رجع الامراء من الصيد وبلغهم ما فعله نائب السلطنة ركبوا الى قلعة الجبل وانكروا ما كان من قبضه على المنصور وتوثبه على الملك • فاستقبلهم السلطان الجديد استقبالا حسنا وألان لهم الحديث ، واعتذر لهم بحركة التتار الى جهة الشام فمصر ، والتخوف مع هذا من الملك الناصر صاحب دمشـــق أن ينضم الى التتار ويستنجد بهم للاغارة على مصر ، وقال لهم: « انى ما قصدت الا ان نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر • فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالامر لكم ، أقيموا فى السلطنة من شئتم • واذا كان فيكم من يرى نفسه اقوى منى على الاضطلاع بهذا الامر فليتقدم الى لأحله محـلى فيعفينى من هذه التبعة العظيمة ويتحمل مسئولية حفظ بلاد الاسلام امام الله • »

فسكت الامراء جيمعا ونظر بعضهم الى بعض ثم انصرفوا •

وورد الخبر الى مصر بان الملك الناصر لما استبطأ جـــواب

سلطان مصر اخذ يفاوض التتار مرة اخرى ليساعدوه على غزو مصر • فشق هذا على الملك المظفر ودعا السفير الشامى فقال له: « أما يستحى صاحبك ان يستنجد بنا على عدو الاسلام • ثم يستنجد به علينا ؟ اذا لم يكن عنده اسلام فلتكن عنده مروءة ! »

فجعل السفير يهدىء من غضب الملك المظفر ويقول له :«لعله استبطأ جوابكم فخشى ان تكونوا ضده » فقال له الملك المظفر وهو يتميز من الغيظ « فهب اننا كنا ضده لما بيننا من سالف الخلاف والتنافس ، ايرضى لنفسه ولدينه ان يتطوع لاعدائه واعداء الاسلام فيعينهم علينا ، ويمهد لهم السبيل لغـــزو بلادنا والقضاء على ما بقى فيها من دين وايمان ؟ والله لئن لم يكف عن خيانته للدين لأسيرن اليه فأحطمنه قبل التتار ! »

أما بيبرس فقد كان فى غزة لما بلغه قبض خصمه الامـير قطز على الملك المنصور ، واعلان نفسه سلطانا على مصر ،ففكر فى مصالحة عدوه وصديقه القديم ، فبعث اليـــه يعترف له بالسلطنة ، ويعظم شأنه ويصف له ما يكابده هو من ذل الغربة وعذاب التشرد ، ويتوسل اليه بحق الصداقة القديمة ان يقيل عثرته ويقبل خدمته ، ويأذن له بالرجوع الى مصر ، ليشـــد أزره فى عزمه على قتال التتار •

فلما قرأ الملك المظفر قطز كتابه ، ادركته الرأفة فبكى وقال: « الحمد لله قد عاد صديقى القديم الى » ، وكتب اليه جـوابا رقيقا يسأله القدوم عليه ويعده بالوعود الجميلة •

ففارق بيبرس غزة ، وسار فى جماعة من اصحابه عائدا الى مصر ، فلما قارب القاهرة ركب الملك المظفر للقائه ،فعانقه واستقبله استقبالا حسنا ، وأنزله بدار الوزارة وأقطعـــه قصبة قليوب واعمالها • وأخذ الملك المظفر بعد ذلك يقـربه اليه ويستشيره فى أموره ، ويبالغ فى اكرامه ومجاملتــــه خشية من بدواته • ولم ينس ما يضمره له كبـــير أتبـــاعه أقطاى من الخصومة والحقد ، فاجتهد ان يستل سخيمتــه من صدره ليتخذه عضدا له فى جهاد اعداء الاسلام ،لما يتصف



به بيبرس من الشجاعة والبأس . وكثيرا ما نصحه بعض بطانته بالقبض على بيبرس حتى يأمن جانبه فلا ينتقض عليه فى وقت الخطر ، فكان يعرض عنهم ويقول لهم : « دعونى وصديقى بيبرس ، ليس لى أن احرم المسلمين فضل بأسه وشجاعته . »

وكان بيبرس فى بدء اقامته بمصر يظهر الاخلاص للملك المظفر والاستعداد لخدمته ومناصرته ، ولكنه سرعان ما نسى جميل المظفر واحسانه اليه ، عندما كثر اجتماعه بزملائه من المماليك الصالحية الذين رأوا الامر قد خرج من ايديهم منذ مقتل اقطاى ، وغلبهم عليه المماليك المعزية ، فأوغروا صدره على الملك المظفر وحسنوا له الانتقاض عليه لاسترجاع سالف سلطانهم ، وذكروه بثأر رئيسهم فارس الدين اقطاى ، فصادف هذا هوى فى نفس بيبرس ، ولكنه اوصاهم بالكتمان ، وارجاء الامر الى الحين المناسب ريثما يدبرون مكيدة للقبض على الملك المظفر وحلول بيبرس محله .

وكان الملك المظفر اذ ذاك يفكر فى تدبير المال اللازم لتقوية الجيش المصرى ، وتكثير عدده ، وتجهيزه بالاسلحة والعدد وآلات القتال ، وجمع الذخائر والاقوات والارزاق الكافية لاعشته وتموينه — ان ليس ببيت المال ما يكفى للقيام بهذا الامر العظيم ، فخطر بباله ان يفرض ضريبة على الامة واملاكها لجمع المال اللازم ، فعقد مجلسا حضره العلماء والقضاة والامراء والوزراء والاعيان ، وفى مقدمتهم الشيخ عز الدين ابن عبد السلام . فاستفتى الملك المظفر العلماء فى جواز فرض الاموال على العامة لانفاقها فى العساكر فتهيب العلماء الافتاء ، وخافوا ان هم افتوا بالجواز ان يغضبوا العامة عليهم ، وان افتوا بالمنع ان يبوؤوا بغضب السلطان ، فظلوا يتدافعون الافتاء حتى صدع ابن عبد السلام بفتياه العظيمة فسكت سائر العلماء وانفض المجلس على ذلك .

وكانت الفتيا صريحة فى وجوب اخذ اموال الامراء واملاكهم حتى يساووا العامة فى ملابسهم ونفقاتهم ، فحينئذ يجوز

الاخذ من اموال العامة ، اما قبل ذلك فلا يجوز ، فحار الملك المظفر فى الامر لانه ان سهل عليه الاخذ من اموال العامة فليس من اليسير عليه ان يأخذ من اموال الامراء دون ان يحدث ذلك شغبا فيهم قد يوقد فى البلاد فتنة يصعب اطفاء نارها .

فبعث الى الشيخ ابن عبد السلام ، وشرح له صعوبة الاخذ من اموال الامراء ، وتلطف معه ليفتيه بجواز الاخذ من اموال العامة اذا صعب الاخذ من اموال الامراء ، فلم يرض ابن عبد السلام وقال له : « لا ارجع فى فتواى لرأى ملك اوسلطان » وذكره بالله والعهد الذى قطعه على نفسه ان يقوم بالعدل وينظر لمصلحة المسلمين ، وأغلظ له فى ذلك حتى لم يشك الحاضرون أن السلطان سيقبض عليه ، فما كان من الملك المظفر الا أن اغرورقت عيناه بالدموع ، وقام الى الشيخ فقبله على رأسه قائلا : « بارك الله لنا ولمصر فيك ، ان الاسلام ليفتخر بعالم مثلك ، لا يخاف فى الحق لومة لائم » .

وبعث الملك المظفر الى الامير بيبرس فاستشاره فى هذا الامر الخطير ، فخوفه بيبرس فى أول الامر من عاقبة الاخذ من اموال الامراء ، واكد له انهم سينتقضون عليه ولايطيعونه وكان غرضه بذلك ان يحمل الملك المظفر على نقض ما افتى به ابن عبد السلام ، ليغضب هذا العالم لدينه فيثير الناس على المظفر . ولكنه لما بلغه ان المظفر رضى عن الشيخ لتشدده فى التمسك بفتياه ، وأثنى عليه لذلك ، رجع بيبرس الى المظفر وقال له : « قد رجعت عن رأيى الاول ، وأرى الان أن تمضى ما افتى به الشيخ ابن عبد السلام ، وساكون اول من ينزل عن املاكه لبيت المال » وكان بيبرس يريد بهذا ان يثور الامراء على الملك المظفر ويخلعوه ويولوا بيبرس مكانه ، .وقد اجتمع بهم سرا وحرضهم على ذلك ، وانذرهم بان قطزا سيجردهم من املاكهم واموالهم ويساويهم بالعامة ، وان فى ذلك اخلالا بشرفهم واسقاطا لحقوقهم ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

وأخذ أولئك الامراء يستعدون لذلك اليوم الذى يفاتحهم فيه الملك المظفر بالنزول عن ممتلكاتهم لبيت المال ، وتشاوروا



طويلا فيما يقابلونه به عندمايحاول بهم التنفيذ ، وكانواموقنين
بأنه سيأخذهم بالشدة ، فتهيـــأوا لمقابلتها بمثلها ولو أفضى
بهم ذلك الى قتله ·

وانتهى شيء من خبرهم الى الملك المظفر فدعا الامير بيبرس
اليه وخلا به وقال له : « اتق الله يابيبرس فى دينك ووطنك
اننا لسنا فى وقت يكون لنا فيه ان نتنافس على الملك ،فأمامنا
امنا لسنا فى وقت يكون لنا فيه أن متنافس على الملك ، فأمامنا
المتوحشون على أطراف الشام وهم قادمـــون الينا · فاذا لم
ننهض لصدهم فسيكون مصيرنا مصير بغداد · وقد تعـين
علينا الجهاد فى سبيل الله ، فلنمض به ولنجمع عليه ، ولاتفرقنا
المطامع والاهواء ولا الاحن والعداوات · »

فحاول بيبرس ان يتنصل مما عزى اليه ، فبدره السلطان
قائلا : « لا تنكر ذلك بالقول يا بيبرس ، ولكن انـــكره
بفعلك · واعلم انى لو اردت قتلك لما اعجزنى ذلك ،ولكنى
اضن برجل مثلك ان يقتل فى غير ســـبيل الله ، وأريد ان
استبقيك ليوم مع اعدائنا مشهود ، تكون لك فيه البطـولة
والفضل » ·

قال بيبرس وقد ظهر الغضب فى وجهه : « اتهددنى ياسيف
الدين ؟ فوالله انى لاقوى منك ناصرا وأكثر عددا » ·

قال السلطان : « وانى لا اهاب عددك ، ولا اخشى ناصرك
ولو امتلأ الوادى بشيعتك من منبعه الى مصبه لرجـوت الله
أن ينصرنى عليك ويكفينى شرك ولو افردتوحدى ، فان حسبى
الله به حولى وقوتى وهو نعم الوكيل ! »

فاطرق بيبرس مليا ، فمضى السلطان يقول : « انك جئت
الى ـ وقد تقاذفتك بلاد الله الواسعة ، فضاقت عليك بمارحبت
ـ تستقيلنى فاقلتك ، وقبلت عذرك ، وأدنيتك من مجلسى ،
واتخذتك صفيا لى لا اقطع امرا دونك ، واقطعتـك من مال
البلاد لتقوم بخدمتها ، فقل لى ماذا تنقم منى فأنصـــفك من
نفسى ؟ »

فرفع بيبرس رأسه وقال ، وقد سكت عنه الغضب :«انى
ما انقم منك الا سوء ظنك بى » ·

ـ انك انت الذى افسدت رأيى فيك ، وانى لمســـتعد
لاعود لحسن ظنى بك اذا قمت بواجبك نحو دينك وامتك » ·

ـ ماذا تريد منى ان اصنع لترجع عن سوء رأيك فى ؟

ـ ابسط لى يدك فعاهدنى ان تكون معى على هـــؤلاء
المؤتمرين من شيعتك ، الذين طالما شبعوا من اموال الامة ،ثم
بخلوا عليها بالقليل حين تعرضت سلامتها للخطر ·

ـ أعاهدك بشرفى ودينى اننى اقاتل معك اعداء الاسلام
التتار حتى تنتصر عليهم أو اقتل دونك، أما الامراءالذين ذكرت
فشأنك وشأنهم لا اعينك عليهم ولا اعينهم عليك ·

فمد السلطان يده فصافحه قائلا : « حسبى هذا منـــك
ان تقاتل معى التتار وان تكون بصدد الامراء كفافا ،لا على
ولا لى » ، وحلفه عن ذلك فحلف له بيبرس ·

ولم ينم الملك المظفر ليلته تلك ، فقد قضاها ســـاهرا
يفكر فى طريقة يحمل بها الامراء على تسليم ما عندهم من
ذهب وفضة · وفى الصباح دعا وزيره يعقوب ابن عبـــد
الرفيع وتشاور معه طويلا ، ثم اتفقا على امر نوى التصميم
عليه

ودعى الامراء المماليك الى مجلس القلعـــة ، فلما حضروا
حميعا دخل عليهم المظفر فقاموا له وحياهم جميعا ، ثم بسط
لهم القضية التى دعاهم من اجلها وكان ممـــا قاله لهم : «ان
الامراء هم جنود الدولة ، جاءوا الى هذه البلاد من اســواق
الرقيق لا يملكون شيئا ، فغنوا من أموال الامة ، وامتـــلأت
خزائنهم بالذهب والفضة حتى ان فيهم لمن يجهز بنـــاته
بالجواهر واللآلى ، ويتخذ الاناء الذى يستنجى به فى الخلاء
من فضة ، ويرصع مداس زوجته باصناف الجواهر ، كل ذلك
والامة صابرة عليهم راضية بهم لانهم يقومون لها بمهمـــة
الدفاع عن بلادها ، وتوفير اسباب الامن لها ، وها هو ذا
العدو على الابواب قد اقبل يريد القضاء عليها وعلى دينهــا
وشرفها وعرضها ومالها · وليس فى بيت المال ما يكفى لتجهيز
الجيش اللازم لرد العدو · فكان علينا ان نأخذ من أمـــوال

الامة لبيت المال اذ لا سبيل لنا غير ذلك . ولكن الشرع الشريف افتانا بانه لا يجوز لنا ذلك حتى ننزل نحن ــ معشر الامراء ــ عما احتجناه من اموال الامة ، ونرد لبيت المال ما كنزنا من ذهب وفضة وجواهر وغيرها مما يفضل عن حاجتنا ، فاذا احصينا ذلك ولم يكف كان لنا حينئذ ان نأخذ من اموال العامة . واني ما دعوتكم الان الا لتساعدوني على تنفيذ حكم الشرع في وفيكم ثم في الامة ، حتى نبرأ الى الله من مظالمنا ونخرج للجهاد في سبيله وقد رضي عنا ورضينا عنه ، فينصرنا على عدونا ويثبت اقدامنا يوم اللقاء » .

كان الامراء قد عرفوا ما دعاهم الملك المظفر من اجله قبل حضورهم ، فعزموا على بيبرس ان يتولى عنهم محاجة السلطان ، ولكن بيبرس اعتذر لهم قائلا : « ان الملك المظفر قوي البيان فاختاروا منكم رجلا اقوى مني بمحاجته ،واني لا اخالفكم في امر تجتمعون عليه » فقبلوا عذره واختاروا غيره ليتولى عنهم الكلام .

فلما انتهى الملك المظفر من حديثه انتدب له لسان القوم فقال له : « أتريد أن تجردنا من أموالنا يا خوند ؟ » .

قال السلطان « كلا .. بل اريد ان تتجردوا عما يفيض عن حاجتكم مما اخذتموه من مال الامة » .

ــ أأردت ان تقول ان اموالنا ليست لنا ؟

ــ نعم انها ليست لكم وانما هي للامة . والا فاخبروني من أين جاءتكم .. ؟ فهل ورثتموها عن آبائكم و كسبتموها بالتجارة أو أي طريق من طرق الكسب المشروعة ؟

ــ حرام عليك يا خوند ان تتركنا نموت جوعا لتعيش انت وحدك سلطانا على مصر ويخلو لك الجو .

ــ انكم لن تموتوا جوعا ، فانتم جنود الامة وعليها اعاشتكم من صلب مالها ، وها هو ذا سلطانها بينكم (يشير الى نفسه) يتعهد لكم باعاشتكم واعاشة ابنائكم وأهليكم بما يكفل لكم شرفكم ويصون حرماتكم ، يقتطع ذلك لكم بالمعروف من بيت مال الامة ، وسأكون اول من ينزل لبيت

المال عما يملك من ذهب وفضة . وهذه حلى سلطانتكم ــ وأشار الى صندوق كان قد وضعه قدامه ــ قد نزلت عنها لبيت مال الامة . واقسم لكم بالله أني لن آخذ من مال البلاد الا ما يكفيني ولن يزيد نصيبي على نصيب أي فرد منكم . أما قولك يا هذا انني اريد ان يخلو لي الجو فانتم والله عدتي وقوتي ، وكيف يعيش السلطان بغير عدة وقوة ؟ .

فانقطع متكلم القوم ولم يحر جوابا ، فنظروا اليه مغضبين وصاحوا به « تكلم ! انطق ! » فقال لهم « والله لا ادري ماذا أقول له . لقد أوقعني بيبرس في هذه الورطة وخلص هو منها سالما » ونظروا يتلمسون بيبرس فلم يجدوه بينهم فقالوا للسلطان « امهلنا حتى نرى رأينا فيما ذكرت » فأجابهم السلطان : « لا امهلكم اكثر من هذا اليوم فتشاوروا فيما بينكم الان ان شئتم ،ولن تخرجوا من هنا الا على شيء » .

وكان بيبرس قد سبقهم الى القلعة ، واتفق مع الملك المظفر ان يجلس وراء الباب الذي دخل منه السلطان بحيث يسمع حديثهم ، وعليه جماعة من حرس السلطان ، فلما قال القوم « نريد بيبرس نرى رأيه » قال لهم السلطان « ان الامير بيبرس قد اتفق معي على ما اردت ، وحلف لي بذلك ، وهو الان موجود خلف هذا الباب يسمع حديثكم » .

فصاحوا جميعا « لقد باعنا بيبرس ! » وطلبوا دخوله اليهم ، فناداه السلطان ، فدخل بيبرس القاعة فرموه بعيون محمرة وصاحوا به « بعتنا للسلطان يا بيبرس ! » فأجابهم بيبرس قائلا : « كلا والله ما بعتكم للسلطان ، واني غير مسئول عنكم تعرفون شأنكم معه . وانما عاهدت السلطان ان اقاتل معه التتار ، وتعهدت له بانني لا اعينكم عليه ولا اعينه عليكم . وهذا التعهد لايربط غيري . اما انتم فأحرار تفعلون ما شئتم ! » .

فصاح القوم جميعا : « لا نطيع السلطان ، لا ننزل له عن اموالنا واملاكنا » ونظروا الى ابواب قاعة العواميد فوجدوها قد غلقت عليهم فاستقروا في مجالسهم ، وعند ذلك نهض

السلطان من مجلسه وقال لهم : « سأمهلكم ساعة تتراجعــون فيها وحدكم لتتنزلوا عما عندكم من اموال الامة راضين ،قبل ان تنزلوا عنه صاغرين ! » واخذ بيد صديقه بيبرس فبرح به القاعة من الباب الخاص ٠

وكان الملك المظفر قد دبر فرقة من رجاله الاشداء الامناء لكبس بيوت الامراء المماليك وكسر خزائنهم وحمل ما فيهـا من الذهب والفضة والجواهر الى بيت المال ، وخصص كلا منهم لبيت من بيوتهم ، وأمرهم أن ينتظروا اشارته بذلك ٠ فلما مضت الساعة ولم يتفقوا على شيء اشـــار الى رجاله فانطلقوا ينفذون تدبيره ٠

وما راعهم الا السلطان قد دخل اليهم يقول لهم : « انصرفوا الى بيوتكم فقد نفذ الله فيكم ما اراد سبحانه » ونظروا فاذا أحد أبواب القاعة قد فتح ، فجعلوا يخرجون منه واجمين ، واذا عصبة من رجال السلطان قد وقفوا خارج البـــاب فقبضوا على رؤساء القوم وتركوا الباقين ٠

وأحصى ما جاء من عند الامراء فوجد انه لا يكفى لتقـوية الجيش وتموينه ، فعند ذلك امر الملك المظفر باحصـاء الاموال وأخذ زكاتها من اربابها ، وبأخذ كراء شهرين من الامـلاك والعقارات المستأجرة ، وبفرض دينار على رأس كل قادرمن سكان القطر المصرى ، فاجتمع من ذلك فى بيت المال نحــو ستمائة الف دينار ٠

ولما انتهى الملك المظفر من ذلك عهد الى وزيره يعقوب بن عبد الرفيع وأتابكه اقطاى المستعرب ان يباشرا تقوية الجيش المصرى بالاسلحة والعدد وآلات القتال ، وتكثير عـــدده بتجنيد الشباب الاقوياء من اهل مصر واستقدام العربان والبدو وتجنيدهم وتفريق الاموال فيهم ٠ وامرهما بانشاء المصـانع الكبيرة لصنع الاسلحة والمجانيق وغيرها من العدد الحربيةفى جميع ارجاء البلاد ، وبشراء الجياد العربية العتيقة والبغـال القوية والابل الهجان ٠

وأوعز للشيخ عز الدين بن عبد السلام فانشأ ديوانا كبيرا للدعوة الى الجهاد فى سبيل الله ، يضم اليه من يختارهم من خطباء الجوامع فيلقنهم ما ينبغى لهم ان يخطبوا الناس به على المنابر ليدعوهم الى الجهاد ويبينوا لهم فضائله . ويفصلوا لهم ما انزل التتار ببغداد وغيرها من الخراب والدمار ، وما اقترفوه فيها من سفك الدماء ونهب الاموال وانتهـــاك الاعراض والحرمات وتهديم الجوامع والمساجد وقتل الاطفال الرضع والشيوخ والعجائز وبقر بطون الحوامل ، ويبعثمن ذلك الديوان الوعاظ يطوفون بالقرى يدعون اهلها الىالجهاد، ويوقدون فى قلوبهم نار الحماسة لله والوطن ٠ وكان الشيخ ابنعبد السلام لايجيزاحدا منهؤلاءالخطباء والوعاظ بالانطلاق لعملهم حتى يحفظ سورتى الأنفال والتوبة من القرآن عن ظهر قلب ٠ فكان من جراء ذلك أن صـــارت المنابر والجوامع والاندية ومجالس القرى تعج بآيات القتال من القرآن حتى كاد الرجال والنساء والاطفال يستظهرونها حفظا ٠

وكانت الاخبار ترد باطراد تقدم التتار فى بلاد الجزيرة ، يقصدون الشام ومصر ٠ كل ذلك والملك المظفر رابط الجاش ساكن الاعصاب لا يضيع من وقته لحظة فى غير الاستعداد٠ وفى خلال ذلك جاءت رسل التتار الى مصر ، وكانوا بضعة عشر رجلا يرأسهم خمسة من كبارهم ، يحسنون اللســـان العربى ، ومعهم صبى مراهق ٠ وكان فيهم رجال مخصصون للتجسس ، ليعرفوا مداخل الحصون ومخارجها واستحكامات المدينة والثغر الضعيفة فيها ، وقد جاءوا بكتاب منهولاكو الى الملك المظفر ، فأمر باستقبالهم استقبالا حسنا ، ورتبجماعة من عسكره ليقوموا بشئونهم وحاجاتهم ويصحبوهم الىكل موضع يحبون الذهاب اليه ٠ وقد عجبوا لهذه الحرية التى اعطيت لهم الا واحدا من رؤسائهم الخمسة امر الملك المظفـر أول ما قدموا فعزل عن اصحابه ، واعتقل فى برج منأبراج القلعة ، فلم يسأل الباقون عنه لانهماكهم فى تعرف قـــوى الدفاع للدولة ، والاطلاع على حصون المدينة واسوارهاوأبوابها

حتى اذا قضوا من ذلك ما احبوا أمر بهم الملك المظفر فاعتقلوا فى برج اخر · اما الصبى التترى ، فكان يتسلل الى القصور السلطانية فى غفلة الحراس ، حتى عثر عليه يوما عند الحريم قد احاطت به جوارى القصر ، يتعجبن من خلقته وشكله ، وهو يخاطبهن بكلمات عربية مكسرة ، فقبض عليه، وسيق الى الملك المظفر ، فأمر باعتقاله وحده ·

واستشار السلطان الامراء فيما يجيب التتار به ، فأشار معظمهم ان يرسلوا الى هولاكو جوابا لطيفا يتقون به شره ، ويخطبون به وده ، ويتفقون معه على مال يؤدونه جزية اليه كل سنة لئلا يهجم على بلادهم فيهلك الحرث والنسل · وقالوا انه لا فائدة من مقاومة التتار ، وان اللين معهم انفع من الشدة فغضب الملك المظفر غضبا شديدا ، واحمر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه وجعل يقول بصوت اجش : « ان الله تعالى يقول فى كتابه : « حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » وأنتم تريدون منا ان نعكس الآية ونقول : « حتى تعطوا الجزية عن يد وانتم صاغرون » ثم قام الى كبير الجماعة فاختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم القاه امام صاحبه، وهو يقول : « ان السيف الذى يجبن حامله عن القتال لخليق ان يكسر هكذا ويلقى فى وجه صاحبه · »

وأمر باحضار الرسل فاحضروا بين يديه ، فقال لرجاله : « اصنعوا بهم ما امرتكم به » فخرجوا بهم ، ونودى بأمرهم فى الناس ، فخرج الرجال والنساء والصبيان لمشاهدتها فى موكب عظيم ، وقد اركبوا على جمال شدوا الى اقتابها بالحبال ووجوههم الى اذيالها ، ما عدا الرسول المفرد المعزول وحده ، فقد قيد وحمل على محفة ليشاهد ما يفعل باصحابه، وما خلا الصبى التترى ، فقد امر السلطان باستبقائه ليجعله فى جملة مماليكه · وخرج الموكب بالطبول من القلعة، وسارت جموع الناس حولهم يصيحون ويضحكون ويصفقون بايديهم لهوا ومرحا ، حتى وصلوا سوق الخيل تحت قلعة الجبل فقتلوا أحد الرسل ، ولما بلغوا ظاهر باب زويلة قتلوا

الثانى وقتلوا الثالث بظاهر باب النصر ، والرابع بالريدانية ثم انزل الباقون فقتلوا دفعة واحدة ، وعلقت رؤوس الجميع على باب زويلة ·

وأمر السلطان فاقيم عصر ذلك اليوم عرض عظيم للجيش المصرى فى ميدان الريدانية حيث نصب للملك سرادق فى مرتفع جلس فيه على كرسيه يحيط به كبار الامراء والوزراء ، فأقبلت فرسان الجيش فرقة بعد فرقة يتقدمها أميرها حاملا لواءه وهم جميعا شاكو السلاح ، فكلما مرت فرقة اشار أميرها بالتحية، فقام الملك المظفر وأومأ بيده ردا على تحيته ، ثم مرت فرق المشاة وهم شاكو السلاح حتى غص بهم الميدان وأقبلت وراءهم فرقة المجانيق محمولة على عجلات تجرها البغال القوية · ثم مرت فرق الهجانة على ذللهم وعليهم العمائم الصفر · ثم مر كبار الامراء فامتطوا جيادهم وتباروا سبعة أشواط فى الميدان ، ولما انتهى الشوط السابع ترجلوا وقصدوا السرادق فصافحهم الملك واجازهم ·

ونهض الملك المظفر بعد ذلك ونزل من السرادق وامتطى جواده الابيض تحرسه كوكبة من الفرسان ، وتحرك ركابه الى قلعة الجبل يخترق الجماهير المحتشدة وهى تهتف له بالدعاء « يعيش السلطان! يديم الله ايامه ! يطول عمر المظفر!» حتى اذا ما حاذى السلطان باب القلعة امر بالصبى التترى فاحضروه لديه · وامر بالرسول التترى فاطلق بين يديه وقال له : « اخبر مولاك اللعين بما شاهدته من بعض قوتنا، وقل له ان رجال مصر ليسوا كمن شاهدهم من الرجال قبلنا وقل لمولاك اننا استبقينا هذا الصبى عندنا لنملكه عليكم فى بلادكم عندما نكسركم ونمزقكم كل ممزق » ·

ثم امر وزيره يعقوب بن عبد الرفيع فسلم الرسول التترى جوابا مختوما لهولاكو ، وأمر جماعة من رجاله ليحرسوه ويوصلوه الى الحدود · وهكذا قطع الملك المظفر امل اولئك الامراء المشاغبين فى مسألة هولاكو ووضعهم امام الامر الواقع ·

لم يكتف المظفر باعداد الجيش المصرى واكمال عدده ومؤنه لملاقاة التتار ، بل رأى أن يقيم دونهم جبهة قوية من ملوك بلاد الشام وامرائها . وكان يعلم تخاذلهم وتواكلهم وتقاعسهم عن قتال التتار وميلهم الى التسليم لهولاكو والخضوع له فكتب الى كل واحد منهم رسالة يشرح لهم فيها انه جاد فى العزم على قتال التتار وقد اعد للتتار جنودا لا قبل لهم بها ، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الاسلام منهم ، ويطهرها من رجسهم ، وأنه يعتبر بلاد الشام حصون مصر الامامية ، وأن وقوعها فى ايدى التتار يعرض سلامة مصر للخطر . ويؤكد لهم فيها انه لا مطمع له فى ملك الشام وسيترك بلاد الشام لملوكها وأمرائها المسلمين . وانما غايته ان يساعدهم على حفظها من السقوط فى أيدى الكفرة الفجرة ، ويقول فيها انه وان اعترف ان بلاد الشام لملوكها الا انه لن يسمح لاحد منهم ان يستسلم للتتار بله ان يظاهرهم على اخوانه المسلمين . وان مثله ومثلهم ومثل التتار كمثل من اشتعلت النار فى بيت جاره الأدنى ، فعليه أن يسعى لاطفائها وليس لجاره أن يقول له

« لا شأنلك بدارى » . ويصرح لهم فيها أنه سيعاقب من يمالىء الاعداء منهم بقتله وتوريث بلاده لمن هو احق بها منه ممن قاتل التتار من ملوك الشام . وانه اذا لم يستطع احدهم الوقوف فى وجه العدو واضطر للنجاة بنفسه ، فعليه ان يلحق بالديار المصرية حيث يجد التكرمة والحفاوة حتى يحين الوقت لتحرك الجيوش المصرية فيقاتل معها عدو الجميع . ومن لم يفعل ذلك وتأخر لغير عذر قاهر فانه يفقد بلاده وملكه عندما يتم اجلاء التتار عنها بسيوف المصريين . وما اكتفى السلطان كذلك بهذه الرسائل حتى سير الى بلاد الشام جماعة من الشاميين المقيمين بمصر ليحدثوا اهل بلادهم بما أعده الملك المظفر من الجيوش الاسلامية العظيمة لرد غارات التتار واجلائهم عن بلاد المسلمين .

ولما اشتدت هجمات التتار لبلاد الشام لحق بمصر كثير

من ملوكها الذين آثروا الانضمام الى الملك المظفر ليقاتلوا التتار معه ، فاكرم السلطان وقادتهم ، وجعلهم فى بطانته يستشيرهم فى كبار الامور ويشركهم معه فى تبعات الجهاد فى سبيل الاسلام . وامر كلا منهم على من قدم معه من مماليكه وجنوده الى مصر . وضم اليه عددا من الجنود المصريين فكانوا تحت قيادته . ولحق آخرون ممن كتب الله عليهم الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة بهولاكو ، حتى كان فيهم من أعانه وقاتل المسلمين معه .



الفصل الخامس عشر



قضى الملك المظفر عشرة اشهر من ملكه لم يعرف للراحة طعما ، ولم ينم الا غرارا بل ملأ ساعاتها كلها بجهود تنوء بها العصبة أولو القوة ، فقد كان عليه أن يوطد أركان عرشه ، بين عواطف الفتن وزعازع المؤامرات ، ويدبر ملكه ، ويقضى على عناصر الفوضى والاضطراب ، ويضرب على ايدى المفسدين والدساسين ويقبض بيد قاهرة على ازمة السياسة الجامحة ، ويعالج الامراء المماليك ، ويستعمل مع بعضهم اللين ومع آخرين الشدة ، وكان عليه ان يقوى الجيش ، ويضاعف عدده واسلحته وعدده ، ويجمع له المؤن والذخائر والاقوات ، ويحصل لذلك كله الاموال الكافية . وكان عليه ان يسكن القلوب الوجلة من قدوم التتار .وينفخ فيها روح العزم لمقاومتهم على كثرة المخذلين من الامراء ، المعوقين عن قتالهم ، الداعين الى مسالمتهم والخضوع لهم .. ولولا ما خصه الله به من قوة البنية ، ومتانة الاعصاب ،ومضاء العزيمة ، وصرامة الارادة ، وصدق الايمان ، والعقيدة القوية بان الله قد هيأه وأعده للقيام بكسر التتار وطردهم من بلاد المسلمين لما استطاع ان ينجز فى بضعة اشهر ، ما يعجز غيره عن القيام ببعضه فى بضع سنوات . فقد خلق

الجيش المصرى خلقا جديدا ، ونفخ فيه روح الفداءِ والاستماتة فى الدفاع عن الدين والوطن ، وأفاض عليه من شجاعته وحماسته، فاذا هو يتوقد حماسة للقتال ،ويحن شوقا للجهاد فى سبيل الله . وقد استطاع ان ينزل السكينة والطمأنينة فى قلوب سواد الناس بعد ان كانت ترجف هلعا من ذكر التتار وان يبذر فيها الثقة واليقين بأن مصر ستفلح فى رد غارات التتار عنها ، بل طردهم من بلاد الشام ، كما افلحت من قبل فى رد الصليبيين على اعقابهم .

وكانت زوجته وحبيبته السلطانة جلنار تشد أزره فى ذلك كله وتشجعه على المضى فى هذا السبيل الوعر . فكانت تسهر الليل معه ، وتشاطره همومه وآلامه ، وتمسح بيدها الرفيقة شكواه ، كلما ضاق صدره بتخاذل الامراء عن طاعته ، ونيلهم منه فى مغيبه ، ونفاقهم له فى مشهده ، والقائهم العوائق فى طريقه . وكان ربما انساه انهماكه فى عمله الدائب طعامه وشرابه فعنيت بتقديم ذلك بنفسها اليه واذا نهكه السهر فى اعقاب الليل ، قامت اليه ،فأخذت بيده وقادته الى فراشه ، ليأخذ نصيبه من نومه وراحته . وكانت لا تفتأ تملأ قلبه ثقة بالفوز فيما ندب نفسه للقيام به ، فيزداد يقينه ويتضاعف ايمانه وكانت تقول له : «انى سأخرج معك الى ميدان القتال ، لارى مصارع الاعداء بعينى ، فيشتفى بذلك صدرى » ، فيقول لها « اخشى عليك ياحبيبتى من سهامهم » فتقول له « لن أخشى على نفسى مالاأخشاه عليك ولكى تطمئن على سأكون وراء الجيش فى مأمن من سهامهم وكراتهم » .

— أما تخافين ان يخلصوا اليك اثناء الكر والفر ، فتقعى أسيرة فى ايديهم ؟

— أنا ابنة جلال الدين لا يخلصون الى وجوادى معى ينجو بى منهم ، اما تذكر يا محمود ايام كنا نتبارى على جوادينا ، فتسبقنى حينا وحينا اسبقك ؟

فيضحك الملك المظفر ، ويعانقها قائلا : « اجل اذكر ذلك

يا جهاد ! كيف انسى تلك الايام السعيدة ؟ »

ورأى الملك المظفر عندما انسلخ الشهر العاشر من حكمه ان قد تكامل جيشه واصبح كافيا بحول الله وقوته لملاقاة التتار فاراد ان ينتظر بهم شهر رمضان ، حتى اذا انقضى تحـرك بجيشه لقتالهم • ولكن حركات التتار صوب الديار المصرية كانت اسرع من ان تدع له انتظار شهر رمضان حتى ينقضى• فقد وردت الانباء بان طلائعهم قد بلغت غزة وبلد الخليـل ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والصبيان ونهبوا الاسواق ، وسلبوا الاموال ، وارتكبوا الفظائع كعادتهم ، فلم يسـع السلطان الا العزم على الاسراع لملاقاتهم والتعجيل بالخروج•

وكان شهر رمضان قد دخل ، وصام الناس بضعة ايام منه، حينما نودى فى القاهرة وسائر مدن القطر المصرى وقراه ، بالخروج الى الجهاد فى سبيل الله ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم • وتردد هذا النداء العظيم فى جميـع ارجاء القطر ، فخالط الناس شعور عجيب ، لم يعهدوا له مثيـلا من قبل ، وأحسوا كأنهم خلق آخر غير ماكانوا ،وانهم يعيشون فى عصر غير عصرهم ذاك ـ فى عهد من عهود الاسلام الاولى حين كان الصحابة رضوان الله عليهم يلبون دعوة الرسـول عليه الصلا والسلام ، فينفرون خفافا وثقالا ، يجاهـدون معه المشركين ، ويبتغون احدى الحسنيين ، النصر اوالشهادة حتى يجعلوا كلمة الذين كفروا السفى ، وكلمة الله هى العليا

وطغى هذا الشعور على جميع طبقات العامـة ، حتى كف الفسقة عن ارتكاب معاصيهم ، وامتنع المدمنـون عن شرب الخمر ، وتأثمت العواهر عن مزاولة البغاء ، وامتلأت المساجد بالمصلين ، ولم يبق للناس فى البيوت والاندية والمسـاجد والطرقات من حديث الا حديث الجهاد !

وأمر الملك المظفر الامراء والقواد بدعوة اجنادهم ،واعدادها للمسير الى الصالحية وأن يضرب بالمقارع كل من وجـد مختفيا منهم • وتقدم هو بالمسير ، حتى نزل بالصالحيـة ينتظر تكامل العساكر • فلما تكاملت طلب الامراء ، وكان

قد آنس ازورارا من جانبهم ، وميلا الى القعود والتخلف ، فتكلم معهم فى الرحيل للقاء انعدو ، فأبى ذلك عليه جماعة كبيرة من الامراء ، كانوا قد تعاقدوا على عصيان الملك المظفر واعتذروا له بان الرأى هو أن يبقوا هنالك حتى تأتى جموع التتار فيصدوها عن البلاد فغضب الملك غضبا شديدا حتى انعقد لسانه ولم يستطع الكلام برهة من الزمن ، ثم انفجر يخاطبهم قائلا : « بئس الرأى الضعيف رأيـكم ! اما والله ما حملكم على هذا الا الجبن والهلع من سيوف التتار ان تقطع رقابكم هذه التى سمنت من اموال الامة ! الم تعلموا ياامراء السوء انه ما غزى قوم فى عقـر دارهم الا ذلوا ؟ يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون اموال بيت المال ، وانتم للغزاة كارهون ما اشبه الليلة بالبارحة ! وما اشبهكم باولئـك المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول الله فيهم : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين • لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين • لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) والله لأتوجهن بمن معى لقتال أعداء الله ، فمن اختار الجهاد منكم فليصحبنى ، ومن لم يشأ فليرجع الى بيته غير ماسوف عليه فان الله مطلع عليه ، وتبعة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين ! »

ولم يكد يتم كلامه حتى اشار على الامراء الذين ثبتوا معه على رأيه بأن يعتزلوا ناحية ، وطلب منهم ان يبايعوه على المسير لجهاد التتار فبايعوه على ذلك حتى الموت ، فما وسع الباقين الا الموافقة فأخذوا يتسللون واحدا بعد واحد ، فيبايعونه على المسير حتى لم يبق منهم احد الا بايع •

وأمسى الليل والصالحية مدينة كبيرة من المضارب والخيام يتوسطها المخيم السلطانى ، ولم تنقطع حركة الجمال والبغال تحمل المؤن والذخائر والاثقال • فيتلقاها الرجال المكلفون

بذلك . وأصدر الملك المظفر أوامره بان تأخذ العساكر قسطا
من النوم والراحة ، ورتب طوائف كبيرة من الحرس
العسكرى ليسهروا على بعد من حدود المعسكر ، ولا سيما فى
الجهة الامامية نحو الشام ، حتى لا تاتى طلائع العدو ،
فتبيت المعسكر على غرة ، ويقوم على المخيم السلطانى الحرس
الملكى ، ومعظمه من رجال السلطان نفسه ومماليكه الذين
يثق بهم ، اما الامراء المماليك فجعلت مضاربهم فى الخط
الامامى مما يلى جهة الشام يصل بينها وبين المخيم السلطانى
مجاز تحرسه فرقة قوية من الحرس الملكى ولا يؤذن لجندى
من غير الامراء ان يمر فيه .

وكان مع الملك المظفر فى مخيمه الامير بيبرس والوزير
يعقوب بن عبد الرفيع والاتابك اقطاى المستعرب ، وعلى مقربة
منه مضارب ملوك الشام اللاجئين . وكان السلطان يتشاور
مع هؤلاء فى رسم الخطط للهجوم على العدو فكان يعرض
الرأى فيناقشونه فيه ، فيستمع الى اعتراضاتهم واقتراحاتهم
بانتباه شديد ، فيرد على هذا برفق ، ويتلقى رأى هذا بالقبول
والاستحسان ، ثم يستخلص من ذلك كله الرأى الذى يصمم
عليه ، بعدما اشعرهم جميعا بان الرأى رأيهم وليس رأيه
وحده . فلما انتهوا من ذلك عرض على الامير بيبرس ان يأخذ
نصيبه من النوم ، واشار على الاخرين بمثل ذلك وقال لهم :
« انكم ربما لا تذوقون النوم غدا ومساء غد » . فشكروه
وانصرفوا الى مخادعهم ، الا اتابكه الامير اقطاى المستعرب
فقد بقى مع السلطان . وبعد ان ساد الصمت بينهما برهة
شكا اليه السلطان من تخاذل الامراء فى مثل ذلك الوقت
الحرج .

فقال له الاتابك : « هون عليك يا مولاى فان فى مضاء
عزمك ما يأخذ المسالك على تخاذلهم ، وقد فعلوا ذلك مرارا
فما لبثوا ان انصاعوا لامرك ونزلوا على حكمك ، فاحتمل
ذلك منهم فانت اهل للاحتمال » .

قال السلطان : « انى قد احتمل هذا منهم فى وقت السعة
والأمن ، ولكنى لا استطيع احتماله فى وقت الضيق والحرب

وانى سائلك فلتجبنى بدون مواربة ما رأيك فى الامير
بيبرس ؟ »

قال أقطاى : « ليس المسئول عنه بأعلم من السائل »
فبدره السلطان قائلا : « أريد ان اعرف اما يزال يتصل
بالامراء سرا ويحرضهم على ؟ »

فأجابه الاتابك : « ما اظن ذلك يا مولانا ، ومبلغ علمى به
انه منذ يوم القلعة اذ عاهدك على قتال التتار وفى بما عاهدك
عليه فلم يحرضهم على العصيان ولم يحاول ان يصرفهم عنه ،
واذا كان فيهم وسمع شيئا من ذلك سكت ولم يشترك معهم »

قال السلطان : « ولكن هذا السكوت هو الذى اتعبنى منه
يا اقطاى » .

قال الاتابك : « ولكن مولانا قد رضى هذا السكوت منه »

فقال السلطان : « نعم قد رضيته منه ، ولكنى كنت احسبه
يرجع الى صوابه فيما بعد ، ويخلص للامر الذى نعمل له ،
فلا يدع هؤلاء يتآمرون على عصيانى بين سمعه وبصره دون
أن يصدهم عن ذلك بفعل او قول . الا ترى معى يا اقطاى
انه لولا وجود بيبرس وحياده هذا لما اجترأ اصحابه هؤلاء
على شىء مما فعلوه ؟ »

قال اقطاى : « الامر لمولانا السلطان ، اذا شاء انفذت امره
فى أكبر رأس يشتمل عليه هذا المعسكر » .

قال السلطان : « لا يا أقطاى لا نستغنى عن بيبرس ، انى
لا اريد ان احرم المسلمين شجاعة هذا الرجل وقوته . وقد
رأيت منه انبعاثا للخروج ورغبة صادقة فى قتال التتار ، ولعل
الله ينصر به المسلمين نصرا مؤزرا »

واشار السلطان على اتابكه ان ينام قليلا نيستريح ،
واضطجع هو على فراشه فنام نومة خفيفة وكذلك فعل
الاتابك .

ولما كان الهزيع الاخير من الليل هب السلطان من نومه ،
وأيقظ اتابكه واوعز اليه بان يصدر الاوامر للعساكر بالسرى
فهب المعسكر كله واخذ فى الاستعداد للمسير وينتظم

كذلك اذ بلغ السلطان تلكؤ الامراء عن المسير ، فلم يكترث بهم ولم يقل لهم شيئا بل ركب هو وركب معه رجاله وقال: « أنا القى التتار بنفسى ! » فلما رأى الامراء المتلكئون ذلك منه ادركهم الخجل فركبوا معه على كره .

وكان السلطان قد أمر الامير بيبرس ان يتقدم فى جمع من العسكر ليكون طليعة يعرف له اخبار التتار ، فسار بيبرس والجمع الذى معه سيرا حثيثا حتى وصل غزة وبها طلائع التتار ، فناوشهم القتال فانهزموا اذ ظنوا ان وراءه جيشا عظيما وتركوا له غزة فدخلها ونزل فيها بجمعه حتى وافاه السلطان بالعساكر فاقام فيها يوما يستجم ويدبر الخطط .

وهناك وافته السلطانة جلنار راكبة على جوادها وهى بملابس الفرسان من الامراء ، الا قناعا من الحرير الاسود مسدولا على وجهها لولاه لقل من يستطيع تمييزها عنهم . وتصحبها جاريتان حبشيتان على بغلتيهما ويسير حولها جماعة من العبيد السود يحرسونها ويقومون بخدمتها ، فضرب لها مخيم خلف المخيم السلطانى جعل السلطان يتردد عليها فيه .

ولاح للسلطان ان عكاء بيد الفرنج وانهم قد يغدرون بالمسلمين عند ما يلقون التتار فيطعنونهم من الخلف . فرأى ان يقطع عليهم هذا السبيل ، فتوجه الى عكاء من طريق الساحل بعد ما بعث اليها رسلا من قبله . حتى اذا شارفها وعلم اهلها بدنوه منهم خرجوا اليه بالتقادم والهدايا ، فقال لهم السلطان انه لا ينوى بهم السوء ولم يخرج لقتالهم ، وانما خرج لقتال التتار فعليهم ان يلزموا الحياد التام . فخافوا منه والطفوا له القول واعربوا له عن اخلاصهم وولائهم له ، وعرضوا عليه ان يسيروا معه نجدة من عسكرهم ، فشكرهم وقال لهم ان جيشه لا يحتاج الى معونة احد . ثم خلع عليهم واستحلفهم ان يكونوا لا له ولا عليه . واقسم لهم لئن تبعه فارس منهم او راجل يريد اذى المسلمين ليرجعن اليهم فيقاتلنهم قبل ان يلقى التتار .

وكان هؤلاء الفرنج قد كاتبوا التتار قبل ذلك يعلمونهم بانهم

معهم على المسلمين ، وانهم على استعداد ليجيئوا المسلمين من خلفهم اذا تقدموا لقتالهم ، ولكنهم لما رآوا انهزام طلائع التتار وجلاءهم عن غزة خشوا ان ينقض عليهم المسلمون فاتبعوا سبيل الوفاق معهم . ولم يكتف السلطان بوعدهم وايمانهم حتى شرط عليهم ان يبقى فى الحصون القائمة على منافذ عكاء حاميات من عسكره ليضمن بذلك بقاءهم على الحياد فوافقوا على ذلك مكرهين .

ورحل السلطان عن عكاء حتى اذا عسكر بعيدا عنها ، جمع الامراء والقواد ومقدمى العساكر فوقف بينهم خطيبا على جواده وجعل يحضهم على قتال العدو ويذكرهم بما حاق باهل الاقاليم من القتل والسبى والحريق ، ويخوفهم وقوع مثل ذلك لهم ولبلادهم ، ثم حثهم على استنقاذ بلاد الشام من ايدى التتار ونصرة الاسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله وغضبه اذا هم قصروا فى جهادهم . فضج السامعون بالبكاء ، وتحالفوا على الصدق والاجتهاد فى قتال التتار ..

وحينئذ دعا السلطان الامير بيبرس وامره ان يسير بكتيبته من العسكر لتكون طليعة له ، فصدع بيبرس بأمر السلطان وسار بكتيبته حتى لقى طلائع التتار ، فكتب الى السلطان يعلمه بذلك . واخذ يناوشهم فتارة يقدم عليهم وتارة يحجم عنهم ، يبغى بذلك مشاغلتهم وعدم الاشتباك معهم فى معركة فاصلة . واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت فنزل بعساكره فى الغور ، ولما رأى طلائع التتار قدوم الجيش المصرى لزموا مواقعهم ينتظرون تكامل جموعهم المقبلة .

وامست ليلة الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان ، والسلطان مخيم بعسكره فى الغور ، ومن دونهم معسكر التتار تتوارد اليه جموعهم طوال الليل ، وكلا الفريقين ينتظر النهار ، ولا يشك ان غدا سيكون يوم الفصل . ولم يأو الملك المظفر الى فراشه ليلته هذه ، بل قضاها فى ترتيب العساكر وتعيينهم فى مواقعهم ، واصدار الاوامر الى قوادهم ومقدميهم ، والتفكير فى خطط الهجوم . ولما غلبه النعاس من شدة التعب نام على مقعده ، ولم يضطجع على الارض ،

وكان فى خلال ذلك يكثر من ذكر الله ، وتلاوة ما يحفظ من آيات القرآن وسوره ، ويطرق من حين الى حين مخيم زوجته فيطمئن عليها ويخرج ٠

وكان هولاكو قد رحل من حلب يريد بلاده لاخبار وصلت اليه بوفاة اخيه منكو خان ملك التتار ٠ واناب عنه فى قيادة عساكره قائده الكبير كتبغا وامره بمواصلة الغزو الى مصر ٠ ولكنه لما وصل الى بلاد فارس ، بلغه مسير سلطان مصر بجيوشه العظيمة الجرارة ، فاقام بها ينتظر ما تتمخض به الحوادث ٠

ولما طلع الصباح تراءى الجمعان فتهيب كلاهما لقاء الاخر ، لانه يعلم ان المعركة التى هو خائضها ستقرر مصيره ٠ وحبس كليهما عن التقدم للقاء الاخر حابس ٠ اما التتار فلما يصل كتبغا قائدهم الكبير ، فوقفوا ينتظرون قدومه ٠ واما المسلمون فقد انتظر بهم الملك وقت صلاة الجمعه ليباشروا قتال اعدائهم وخطباء المسلمين على المنابر يدعون لهم بالتأييد والنصر ٠

ووصل كتبغا قبل الزوال بساعة فما لبث ان رتب عساكره وساقها للقاء المسلمين ٠ وكان الملك المظفر اذ ذاك قد عين عساكره فى مواقعهم ، فجعل الامير ركن الدين بيبرس على ميسرته ، والامير بهادر المعزى على ميمنته ، وكان هو على القلب وحوله جماعة من ابطاله ومماليكه ، وبينهم الصبى التترى الذى كان استبقاه من رسل التتار ، واتخذه مملوكا له ووكل بمن علمه فرائض الدين ، فكان يسير معه لايكاد يفارقه وكان الملك المظفر يحبه لذكائه وفطنته ٠ ويقول له : انت ملك التتار فكان رجال المظفر يدعونه دائما ملك التتار ، وكان الصبى يزهى بذلك فيضحكون له ٠

وما لبث العسكران ان تقاربا ، فاخذت سهام التتار تمرق فى صفوف المسلمين فتجرح وتقتل فيهم ٠

فلما اشتد ذلك على المسلمين امر السلطان رجاله بالهجوم عليهم فاندفعوا الى الامام ، حتى تصافحت الصفوف

الامامية من كلا الفريقين بالسيوف ٠ واشتد القتال واستبسل الفريقان استبسالا عظيما ، واستحر فيهما القتل ، الا ان المسلمين كانوا لذلك الحين ظاهرين على اعدائهم ٠

وكان الملك المظفر فى وسط القلب ينظر الى القتال بصدر منشرح ، كأنه سره ان يرى اصحابه يهجمون على التتار بعد ان كانوا يخشون لقاءهم ويظنون انهم قوم لايغلبون لكثرة ما سمعوا من اخبار شجاعتهم وتوحشهم ٠ وهو يدفع ابطاله ويحض رجاله على التقدم ٠ وكان الصبى التترى واقفا على فرسه بين مماليك السلطان وقريبا منه ، فاستأذنه الصبى ان يتقدم للقتال فابتسم له السلطان ، وقال له : « تقدم يا ملك التتار ! » ، فشق الصبى صفوف المسلمين امامه ، ثم اندفع فى صفوف التتار يضرب بسيفه يمينا وشمالا فيقتل اربعة منهم او خمسة ، ثم يتخلص منهم عائدا الى صفوف المسلمين حتى يقف فى موضعه الاول عن يسار السلطان فيحييه السلطان ويقول له : « مرحى يا ملك التتار ! » ، وقد تكرر هذا الفعل من الصبى ، فصار المسلمون يوسعون له السبيل اذا ذهب منطلقا كالسهم الى صفوف التتار ، واذا كر راجعا اليهم ، ويتعجبون من شجاعته وفروسيته ، ويصيحون به (احمل يا ملك التتار ! مرحى ياملك التتار !)

ولكن الصبى كان يهمس لقومه التتار كلما خاض صفوفهم ويعلمهم بموقع السلطان فى القلب ليتبعه فرسان منهم وهو ينهزم الى مركز السلطان فيتيسر لهم قتله ٠

وكانت السلطانة جلنار قد جعلت وكدها حماية زوجها من الغيلة ، فجعلت تلاحظه وهى على جوادها من تل مرتفع خلف السلطان ، وتراقب من حوله ، فوسوس لها خاطرها من جهة الصبى التترى ، وعجبت كيف يخوض صفوف التتار ثم يخلص منها سالما ، فظلت تراقب حركاته ٠ وانها لكذلك . اذ حمل الصبى فقتل من قتل من التتار كعادته ، ثم ارتد سريعا وخلفه خمسة فرسان من التتار اندفعوا كالسهم الى جهة السلطان ٠ ففوجىء السلطان ودهش ، وفوجىء من

حوله من الرجال فاضطربوا ، ولكن السلطان تلقاهم بسيفه فجندل ثلاثة منهم ·

واذا بالمملوك التترى قد رمى السلطان بسهم من خلفه فاخطأه وأصاب الفرس فترجل السلطان وقصده الفارسان التتريان فجعل يحيص عنهما ، ثم قصد احدهما فضرب قوائم فرسه فتدهدهت ، وكاد الفارس التترى الاخر يعلو السلطان بسيفه لو لم يبرز له فارس ملثم شغله عن ذلك · فاختلفا ضربتين بالسيف فخرا صريعين ·

وصاح الفارس الملثم : « صن نفسك يا سلطان المسلمين ! ها قد سبقتك الى الجنة ! » وكان هذا الفارس قبل ذلك قد أطار رأس الصبى التترى ·

وكان فرسان الحرس السلطانى قد ثاب اليهم رشدهم اذ ذاك ، فاجتمعوا حول السلطان وقبضوا على الفارس الذى ضرب السلطان قوائم فرسه فقتلوه ، وسدوا الثغرة الامامية وتكاثفوا فيها دون السلطان فلم يدعوا احدا يقترب منه · وتذكر السلطان صوت الفارس الملثم فارتاب فى امره فقصد اليه وكشف عن وجهه فاذا السلطانة جلنار وهى تجود بنفسها ، فهاله الامر وحملها وهو لا يعقل ما يفعل · وبعث الى بيبرس وهو على الميسرة ليحل محله فى القلب · وانفتل هو منطلقا الى المخيم فلقى اقطاى الاتابك على الباب فقال له : « لا ترع ، هذه سلطانتك جريحة ، فعلى بالطبيب والجاريتين » فذهب اقطاى ليحضرهم ، واضجعها السلطان على فراشه وجعل يقبل جبينها والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها : « وازوجتاه ! واحبيبتاه ! » فاحست به ورفعت طرفها اليه وقالت له بصوت ضعيف متقطع وهى تجود بروحها فى السياق : « لا تقل واحبيبتاه ·· قل وا اسلاماه ! » وما لبثت ان لفظت الروح بين يديه حين حضرت الجاريتان الحبشيتان مرتاعتين وخلفهما الطبيب . فطبع السلطان على جبينها القبلة الاخيرة ، ومسح دموعه ونهض تاركا زوجته الشهيدة للطبيب والجاريتين يتولون تجهيزها ، وخرج من المخيم فامتطى جوادا طار به الى مقدم المصاف ·

وكان قد شاع فى عسكر المسلمين خبر مصرع السلطانة

جلنار وانتشر فيهم كالنار فى الهشيم ، وخالطهم من ذلك اسف ووجوم · وشاع فيهم ايضا ان السلطان احتملها الى المخيم وترك مكانه للامير بيبرس · فلما رأوه عاد الى محله صاحوا جميعا « الله أكبر » وتمثلت لهم بطولة السلطانة الصريعة فشعروا بهوان انفسهم عليهم ، وحموا واستبسلوا ·

ولما رأى التتار ذلك — وكانوا قد فرحوا بغياب السلطان · وظن كثير منهم انه قتل — حموا ايضا واستماتوا فى الهجوم · فاضطربت ميمنة المسلمين التى عليها الامير بهادر حتى صار صف المسلمين خطا مائلا مقدمه الميسرة عليها بيبرس ، ومؤخره الميمنة التى انكشفت حتى تعرض القلب لهجمات التتار الحامية ، وقد ادركوا ان فيه السلطان فاندفعوا لاختراقه ، وضغطوا عليه حتى تقهقر قليلا فكاد يوازى الميمنة المنكشفة ، وصار الصف بذلك اشبه بضلعين بزاوية منفرجة

وعند ذلك تقدم السلطان قليلا الى الامام فكشف عنه خوذته والقى بها الى الارض وصرخ بأعلى صوته ثلاثا « وا اسلاماه ! » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، وتردد صوته هذا فى ارجاء الغور فسمعه معظم العسكر ورددوه معه وحملوا حملة عنيفة انتعشت بها الميمنة ، فتقدمت ببطء شديد من كثافة جموع التتار الذين حاولوا منها ان يطوقوا المسلمين وبصر السلطان بكتبغا قائد التتار وقد حمى واستبسل وهو يضرب بسيفين ، وكلما عقر جواده استبدل به جوادا آخر وكأنما كان يترقب الفرصة ليشق لبعض مقدمى رجاله منفرجا يصلون به الى السلطان ·

وكان الامير بيبرس اذ ذاك يحض اصحابه على الهجوم ، ولا يدع لهم مجالا للتقهقر مهما اشتد بهم الضغط ، فكأنما كانوا مقيدين بسلسلة طرفاها فى يده ، فثبتوا ثبات الرواسى وكثر القتل فيهم وفى اعدائهم حتى انهم ليطأون بحوافر خيولهم على جثث قتلاهم وصرعاهم · وكان يزج بنفسه فى مقدم الصف فيجندل ما يجندل من ابطال العدو [illegible] ويغوص بين اصحابه ويطوقهم من [illegible] يحرضهم ويدفعهم

الى الامام ، وما اسرع ما يمرق من خلال صفوفهم حتى يبرز الى المقدمة من ناحية اخرى وهكذا دواليك ٠

وكان فى كل ذلك حذرا كائما ينظر بالف عين ٠ لاتفوته اقل حركة يقوم بها العدو ، ولا أى تضعضع يبدو من قبل اصحابه ٠ وكان مع ذلك موكل الطرف بالشجعان المعلمين من رجال العدو يتخير اشدهم على المسلمين فيفجأه بضربة لاتمهله فربما قده وقد جواده معه ! وربما اطار رأسه فوثب الجواد بجسم لا رأس له ! وكثيرا ما وكل ذلك الى احد ابطال رجاله فيقول له : « اقتل هذا الفارس وخلاك ذم ! » ٠

وكان من جراء شجاعة بيبرس وصرامته ان تحامى العدو الميسرة واستضعفوا الميمنة واندفعوا اليها حتى كان من امرها ما كان ٠ ولم يفت بيبرس ان العدو لما رأى قوة الميسرة امر ميمنته بالتأخر قليلا والانتشار الى الغرب ، وغرضه من ذلك ان تندفع ميسرة المسلمين الى الامام فيقوموا بتطويقها ، فأبطل عليهم تدبيرهم هذا اذ امر رجاله بالانتشار الى الغرب ايضا وجعل تقدمه ببطء وحذر ريثما يرى ما يكون من ميمنة المسلمين والقلب ، حتى اذا سمع صرخة الملك المظفر : « وا اسلاماه ! » ورأى القلب يتقدم ويكر على صفوف الاعداء وأدرك بفطنته ان السلطان يريد ان يطوق ميسرة التتار ويفصلها عن قلبهم اذ رآه يندفع بشطر من القلب فاخترق به صفوفهم — رأى الفرصة سانحة حينئذ ليقوم بحركة تطويق لميمنة التتار وقلبهم حتى يحصرهم بين ميسرته وبين الشطر الاخر من قلب المسلمين فأمر رجاله بالتقهقر قليلا ليندفع العدو الى الامام ، وبالانتشار الى الغرب ثم التقدم الى الغرب ، ليسد بذلك على العدو سبيل الالتفاف ثم امر رجال الشكل الهلالى ان يضغطوا شيئا فشيئا على العدو فأخذ مجال العدو يضيق من ذلك الحين ٠

وكان الملك المظفر يقاتل قتال المستميت حاسر الرأس ، وقد احمر وجهه وانتفش شعره ، فصار كأنه قطعة من اللهب يعلوها اعصار من الدخان الاسود ، وكان الناظر اليه وهو

يتقدم الصفوف ويضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، فكلما اعوج له سيف التمس له سيفا اخر ورمى الاول فى وجوه العدو ، وكلما جندل بطلا من ابطال العدو صاح « الله اكبر » — يشفق عليه ، ولا يشك انه يتعرض للشهادة ، وانه عما قليل سيصاب ٠ فعظم ذلك على خواص رجاله المخلصين لما رأوا من قلة حذره وتهاونه بنفسه الى حد التهور ، فعزم ابطالهم على ان يقوه بانفسهم ما استطاعوا ٠ فكان لا يتقدم خطوة الى الامام الا تقدموا معه محيطين به فى نصف دائرة ، فاستحر القتل فيهم ولم يثنهم ذلك عن الاندفاع معه الى حد التهور اذ لا سبيل لهم مع ذلك الى الاخذ بجانب الحيطة والحذر ٠

وبصر السلطان بسهم يصوب نحوه فشد عنان جواده فوثب الجواد قائما على رجليه ، فنشب السهم فى صدر الجواد فتداعى ونزل عنه السلطان ومسح عرفه وهو يقول « فى سبيل الله ايها الرفيق العزيز ! » واستمر السلطان يقاتل راجلا وهو يصيح « الى بجواد ! » فأراد بعض اصحابه ان ينزل عن فرسه فأبى السلطان عليه ذلك وقال له « اثبت مكانك ٠ ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك فى هذا الوقت ! » ٠

وبقى يقاتل راجلا حتى جىء له بفرس من الجنائب فامتطاها وتوغل بشطر كبير من جيشه فيما بين قلب العدو وميسرته ٠ وبعث الى الامير بهادر قائد الميمنة بما عزم من تطويق ميسرة العدو ، فأمر الامير بهادر رجاله بالانتشار الى الشرق فى اتجاه شمالى ٠

وبقى الملك المظفر يحث اصحابه على توسيع المجال الذى اخترقه فى صفوف العدو ليقيم بذلك برزخا قويا بين ميسرة العدو وسائر جيشه ٠ فلم يزل البرزخ يتسع بما يندفع فيه من صفوف الجيش الاسلامى ٠ وكان القتال احمى ما يكون فى جانبى البرزخ ولا سيما فيما يلى قلب العدو ، حيث يرى كتبغا كبير التتار وقد استكلب فى القتال وهو يقاتل بسيفه ، وخواص رجاله يقونه بانفسهم من الضربات فيتصرعون امامه وحواليه، والملك المظفر يتردد بين البرزخ وبين سائر القلب

حتى اذا ما عاينه كتبغا فى البرزخ تقدم صوبه بأبطـــاله يريد اختراق البرزخ اليه . فأراد المظفر أن يلقاه فتقدمه أصحابه يبغون ان يصدوه عن ذلك اشفاقا عليه ، والسلطان يقول لهم « دعونى له ! ليس له قاتل غيرى ! أريد أن أقتله بيدى ! » .

فلما أعياهم ذلك انتدب أحد أبطالهم وهو الامير جمال الدين آقوش الشمسى – وكان يقاتل الى جانب السـلطان – فأبصر فرجة فاقتحمها الى قائد التتار الاكبر وصاح يخاطب السلطان « يا خوند ! أنا يدك لقد قتلت عدو الله بيدك ! » وأهوى بسيفه على عاتق الطاغية فأبانها وضربه كتبغا بيده الاخرى فصرعه من على فرسه ، ولكن الامير آقوش كان قد زج حينئذ برمحه فى عنق الطاغية ، فلما هوى من فرسه هوى الطاغية معـه ورمح آقوش ناشب فى حلقه وآقوش قابض على الرمح بيديه . وكبر الامير آقوش – وسيوف العدو تتعاوره من كل جانب – فكبر السلطان وكبر من حوله معه ، فعرف المسـلمون أن كتبغا قد هلك ، فكبروا جميعا بصوت واحد ألقى الرعب فى قلوب التتار، فازداد هلعهم واختلت صفوفهم وأخذوا يتقهقرون .

فأمر السلطان جنود البرزخ وصفوف الميمنة أن يكملوا تطويق ميسرة العدو ، واندفع باقى القلب الى البرزخ ليسـاعد ميسرة المسلمين التى عليها الامير بيبرس على تطويق من لم يتمكن من الفرار من قلب العدو وميمنته ، فانحصر معظم جيش العدو فى هاتين الدائرتين ، وحيل بينهم وبين الفـرار ، فاوقع بهم المسلمون وأفنوهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح حتى امتلأ الوعر بجثثهم واشلائهم ، ولم يسلم منهم الا القليل من سادتهم الذين تمكنوا من الفرار . واعتصم منهم جماعة بالتل المجـاور لمكان الوقعة واخذوا يمطرون المسلمين بوابل من سهامهم . فاحدق بهم المسلمون وصابروهم فى القتال ، وحملـوا عليهم مصعدين حتى سحقوهم سحقا بعد أن كثر قتلى المسلمين دون هذا التل ، لما لقوه من سهام التتار التى تتساقط عليهم كالمطر ولا تكاد تخطىء أهدافها .

وانتهت المعركة وقد تهللت وجوه المسلمين فرحا واستبشارا

بما أنعم الله عليهم من هذا النصر الكبير ، وبما غنموا من أموال التتار مما نهبوه وسلبوه من اغنى المدن والبلاد التى مروا بها، فكانت غنيمة عظيمة لم ير مثلها فى حروب ذلك العهد .

وخر الملك المظفر ساجدا لربه ، شاكرا لما اجتباه من أنعمه ، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تتحادر عـلى لحيته حتى سلم من صلاته ، فامتطى صهوة جواده ، وخطب فى جيشـه قائلا : « ايها المسلمون ! اياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله، انه ذو القوة المتين. وما يدريكم لعل دعوات اخوانكم المسلمين ، على المنابر فى الساعة التى حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم، يوم الجمعة وفى هذا الشهر العظيم، شهر رمضان ، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التى بها ضربتم، والرماح التى بها طعنتم ، والقسى التى عنها رميتم . واعلمـوا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وانما بدأتموه . وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الاسلام بطرد أعدائه من سـائر بلاده . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . الا فترحموا على اخوانكم الذين علم الله ما فى قلوبهم من الايمان والخير ، فاختار لهم الشهادة والجنة ، واختار لكم النصر والبقاء ، لتعودوا للجهاد فى سبيله ، وما عند الله خير وأبقى . وترحموا عـلى أمة الله سلطانتكم . فقد صدقت الله ما عاهدته عليه ، وآثرت ما عنده على ما عند عبده قطز ! » .

وهنا أدركته الرقة فبكى وعلا نحيبه ، فبكى المسلمون جميعا وتعالت أصواتهم بالنحيب ، وهم يقـولون : « يرحمها الله ! يرحمها الله ! » .

ثم تلا السلطان قوله تعالى : « ولا تحسبن الـذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الفصل السادس عشر



فرغ الملك المظفر بعد ذلك لمحاكمة الاسرى من المسلمين الذين انضموا الى التتار، فتقدموا اليه فردا فردا ،فكلما تقدم اليه واحدمنهم مع أعدائهم ، فقدموا اليه فردا فردا ، فكلما تقدم اليه واحد منهم سأله عن اسمه واسم أبيه واسم بلده ، وعن عمله وحاله من الفقر والغنى ، ثم سأله عن التتار وماذا يعتقد فيهم، وما حمله على القتال معهم ، فكانوا يجيبونه بأجوبة مختلفة ، فاذا تبين له من كلام المسئول أنه لا عذر له من اضطرار أو اكراه أو جهل أمر به فضربت عنقه ، والا بين له سوء عمله ، واستتابه وضمه الى جيشه بعد ان اعلمه ان حكمه القتل، ولكنه عفا عنه لا يتوسم فيه من بقية خير .

ثم تحرك بعساكره الى طبرية حيث أرسل كتابا الى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح وكسر العدو ، ويعدهم بالوصول اليهم ونشر العدل فيهم ، وأنه سيولى عليهم خير من يرتضونه من ملوكهم وامرائهم . وأمرهم بالقبض على أعوان التتار وانصارهم من أهالى دمشق حتى يصل اليها فيرى رايه فيهم .

وبعث بكتاب آخر فى معناه لمولاه الاول السيد ابن الزعيم الذى كان مختبئا فى بعض نواحى دمشق . وكان ابن الزعيم يتنسم اخبار مملوكه قطز منذ فارقه الى الديار المصرية مع خادمه الحاج على الفراش ، وكان يراسله الفينة بعد الفينة ويشجعه على تحقيق البشارة النبوية ، حتى اذا جلس قطز على أريكة السلطنة كتب اليه يهنئه بها ، وختم رسالته بهذا الامضاء : «من خادمكم المطيع ابن الزعيم» فلما قرأها الملك المظفر بكى وقال : «الحمد لله الذى ولى عبده قطزا على عباده المسلمين» ، وكان ابن الزعيم بعد ذلك يوالى الرسائل اليه ، ويصف له أحوال دمشق

وغيرها من بلاد الشام ، ودخائل ملوكها وأمرائها وزعمائها ومواقفهم من معاداة التتار وموالاتهم . فاسترشد السلطان بهذه الرسائل فى حملته هذه على بلاد الشام وتطهيرها من دسائس التتار .

وما لبث الملك المظفر أن وصل بعساكره الى ظاهر دمشق فى آخر يوم من شهر رمضان ، فخيم هناك حيث وافاه السيد ابن الزعيم ففرح به السلطان فرحا عظيما ، وطفقا يتعانقان طويلا والدموع تنهمر من عيونهما . وعيد السلطان فى ذلك الموضع ، وذبح الذبائح فأطعم الفقراء والمساكين من أهل القرى المجاورة ، واشار على ابن الزعيم فصلى به وبعساكره صلاة عيد الفطر ، وتمنى كلاهما لو أن الشيخ ابن عبد السلام كان حاضرا ذلك اليوم ليؤم الناس .

ثم دخل السلطان مدينة دمشق ، ففرح به اهلها . واقاموا له الزينات ، واستقبلوه بالطبول والاعلام ، ونثروا على طريقه الازهار والرياحين ، حتى نزل بقلعتها . وكان أول شىء فعله عقب دخوله دمشق أن سير الامير بيبرس بجيش كبير فطارد فلول التتار ، وقتل منهم خلقا عظيما ، ونازل حاميتهم الكبيرة بحمص حتى مزق شملهم ، واستولى على حمص بعد أن قتل خلائق منهم وأسر . وهرب الباقون فى طريق الساحل فتخطفهم عامة المسلمين ولم ينج منهم أحد . وكانت وقعة حمص هذه آخر أمر التتار ببلاد الشام ، فقد هربوا بعدها من حلب وغيرها، والقوا ما كان بأيديهم من أموال ومتاع ونجوا بأرواحهم فارين الى بلادهم .

ولما بلغ هولاكو وهو ببلاد فارس كسرة عسكره ،وقتل نائبه الكبير كتبغا عظم عليه الخطب ، فانه لم يكسر له عسكر قبل ذلك . ولم يهدأ غضبه حتى قتل من لحقوا به من خونة ملوك الشام واولادهم فلقوا جزاء خيانتهم بيد من مالأوه على اخوانهم المسلمين . الا واحدا منهم عشقته زوجة هولاكو فشفعت له عند زوجها فعاش طليق امرأة كافرة ! ورحل طاغية التتار الاكبر ليومه بمن بقى من جموعه الى بلاده تشيعه لعنة الله ولعنات المسلمين .

الفصل السابع عشر



استطاع الملك المظفر الى هذا الحين أن يكبت حزنه على زوجته الشهيدة منذ سمعها تقول له وهى فى السياق « لاتقل واحبيبتاه ... قل وا اسلاماه » فحبس دمعه واستمر منطويا على لوعته وبثه ما كان خطر التتار قائما فى بلاد الشام . فلما انتهى أمرهم بعد وقعة حمص وهرب الباقون منهم ناجين بأرواحهم الى بلادهم واكمل هو تدبير بلاد الشام وجعلها بأيدى من اصطفاهم من ملوكها وأمرائها ممن قاتل معه أو حسنت توبته ، شعر بأنه قد قام بما أوجبه الله عليه من الصبر على مصيبته بفقد زوجته لئلا يشغله الحزن عليها عن كمال الاضطلاع بالامر العظيم الذى عاهد الله على القيام به . فرجع الى نفسه وفكر فى مصابه فاذا هو قد فقد سلواه الوحيدة فى الحياة بفقد جلنار ، فانفجر ما كان حبيسا فى نفسه من الحزن اذ ضعف عن مغالبته ولم يعد يقوى على احتماله ، فسالت دموعه حتى تقرحت جفونه، وأظلمت الدنيا فى عينه ، وضاقت عليه الارض بما رحبت . وجعل يتذكر مصرع جلنار، وكيف احتملها الى المخيم، وكيف قالت له تلك الكلمة التى صرخ بها ساعة العسرة فى الجيش فكانت مفتاح النصر . ثم تذكر أنها لن تعود معه الى مصر ولن تشاطره فرح

الناس بمقدمه ظافرا منتصرا تقام له الزينات والافراح وتدق له الطبول وترفع الاعلام وتنثرفى طريقه الازهار والرياحين ، وأنه سيأوى الى قلعة الجبل وحيدا لا أنيس له ، وسيعود الى الاضطلاع بشؤون الحكم وتدبير أمور الدولة ، وماذا فى الحكم غير النصب والهم والتقلب بين حسد الحاسدين وطمع الطامعين؟ وأنى له القدرة اليوم – وقد ضعفت نفسه وخارت عزيمته – على جماح الامراء المماليك وغرامهم بالخلاف وتكالبهم على السلطة والجاه ؟ أيدع البلاد لهم فتعود الى سيرتها الاولى من الظلم والفساد والفوضى والاضطراب ، وتنطلق أيديهم فى اموال الامة وخيرات البلاد فيبتزونها بالباطل ، ويعودون الى اكتناز الذهب والفضة والجواهر ، غافلين عن مصالح البلاد ، غير آبهين لما يتهددها من الاخطار ، حتى تحل بها كارثة لعلها تكون أعظم من كارثة التتار ؟ وقد رأى كيف انهم لم يخرجوا معه لقتال التتار الا بالاكراه والقسر ، وبعد أن تعب فى ممارستهم ومعالجتهم باللين وبالشدة ، ولقى منهم من التخاذل والتقاعس والتواكل مرة بعد مرة ما كان كافيا لصد أمضى العزائم وتخذيل أقوى النفوس حماسة ويقينا ، لو لم يظهره الله عليهم بتأييد من عنده .

وقد كان له فى الدنيا امل هون عليه كل ما لقى فى سبيل ذلك من المتاعب ، وذلل كل ما قام فى طريقه من المصاعب ، فأين ذلك الامل اليوم ؟ لقد انطوى الى الابد ، اين جلنار التى كانت تشاطره همومه وآلامه ، وتمسح بيدها الرقيقة شكواه ، وتطرد عن نفسه اليأس ، وتنعش فى قلبه الامل ، وتذكى فى فؤاده الرغبة فى الحياة والمجد ؟ وما لذة الحياة بعد جلنار ؟ وفيم يطلب المجد وقد نامت العين التى كانت تباركه وتسهر عليه ؟

أين جلنار التى كان يشهد فيها بقية أهل بيته الذين نكبهم التتار ؟ وها هو ذا قد انتقم لهم وللاسلام من التتار ولكن بأى ثمن ؟ ما أحقر هذه الحياة الدنيا لذوى النفوس الشاعرة ، وما أهونها على من ينظر فى صميمها ، ولا ينخدع بزبرجها وباطل نعيمها . لقد كتب الله عليها أن لا يدوم فيها شىء الا لحقه

النقصان ، ولا يربح فيها امرؤ الا أدركه الخسران ·

طغى الحزن الجبار على تلك النفس القوية فوهنت ، وعلى تلك العزيمة الماضية فكلت ، وعلى تلك الهمة الطائرة فهيض جناحها ، وعلى ذلك الرأى الجميع فانتفض غزله من بعد قوة أنكاثا وأصبح الملك المظفر يائسا فى الحياة يستثقل ظلها ، ويستطيل أمدها ، ويود لو استطاع فجاز ما بقى له فيها من الأيام مرحله واحدة ، الى حيث يلقى حبيبته الشهيدة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ! ·

ولكن الذى هزم التتار ، وحمى الاسلام فى وقعة عين جالوت فاضافها الى اخواتها الكبرى : بدر وأحد ، والقادسية واليرموك وحطين وفارسكور . لم يكن لينسى اذا هو عاف الحكم وضاق ذرعا بالحياة ان ينظر للاسلام وأهله ، فيختار من بين المسلمين رجلا قويا يعهد اليه بحكمهم ، ويبرأ به الى الله من تبعتهم ، فظل أياما يتلفت فيمن حوله من الملوك والامراء ، فما ملأ عينه منهم الا صديقه القديم وعدوه اللدود ونصيره فى جهاد التتار الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى · فقد رآه ـ على ما فيه من الخديعة والمكر والتكالب على الرئاسة والحكم ـ اقومهم جميعا بالأمر ، واقدرهم عليه ، واجدرهم ان يسوق الناس بعصا ، ويحملهم على ما فيه استقامة أمورهم ، ودوام قوتهم وعزتهم ، وبقاء هيبة الاسلام فى صدور أعدائه · فعزم على أن ينزل له عن الحكم ويتخلى له عن عرش مصر عاصمة المسلمين وملاذهم ، ومظهر قوتهم وسلطانهم فى ذلك الحين ·

ولكنه رأى ان يكتم هذا الامر عن الناس حتى يعود الى مصر خوفا من الفتنة وخشية من انتقاض الامراء المماليك واختلافهم اذا سمعوا بذلك ، ولا سيما المعزية منهم اذ كانوا يرون أنفسهم أولى من غيرهم بالحظوة والتقدم عند المظفر لما بينه وبينهم من صلة الخشداشية والانتساب الى أستاذ واحد هو الملك المعز عز الدين أيبك · وكانوا قد نقموا على السلطان أنه ساواهم بالأمراء الصالحية فى الاقطاعات التى أقنعهم اياها ببلاد الشام ، واعتقدوا أنه ظلمهم بذلك ، وتحدث بعضهم

الى بعض فى مطالبة السلطان بحقهم المهضوم ، والالتجاء الى القوة فى اكراهه على ذلك اذا اضطروا اليها ولكنهم خشوا ان يتشيع الصالحيه للسلطان ، ويكونوا معهم البا واحدا عليهم ، فارجأوا التفكير فى ذلك الى فرصة ملائمة ·

وكان الامير بيبرس قد سأل السلطان أن يعطيه نيابة حلب وأعمالها فوعده بذلك · ولكنه لما عزم على النزول له عن الحكم كله وتوليته سلطانا على مصر مكانه لم يبق عنده موضع للوفاء للأمير بيبرس بما وعد ، فأعطى نيابة حلب لأحد ملوك الشام ·

ولما بلغ ذلك بيبرس غضب غضبا شديدا على السلطان واضطرم حقدا عليه وأيقن أن السلطان انما حسده على ما أظهره هو من آيات البطولة فى قتال التتار ومطاردتهم الى اقاصى البلاد ، فخشى أن ينافسه فى الحكم ويؤيده الناس فى ذلك ، فأراد بهذا اهتضامه واذلاله ،واشعاره بقوته وسلطانه ،وقدرته عليه وعلى رجاله بعد أن خضعت له رقاب الملوك ، ودانت له بلاد الشام قاطبة ·

ومما قوى هذا الظن عند بيبرس أمران : أحدهما أنه كان ينوى منافسة السلطان حقا حين طلب منه نيابة حلب ليستقل بها ويتخذها بعد ذلك نواة لاشباع مطامعه بالاستيلاء على ما دونها من البلاد حتى يضم الشام جميعها تحت لوائه ، وحينئذ ينازع الملك المظفر على عرش مصر · ولم يختر نيابة حلب فى أقصى الشام عبثا ، فقد آثرها لانها ببعدها عن مركز السلطان أصلح من غيرها للقيام بحركته · وثانيهما انه لم ينس ما كان منه فى مصر من تحريض الامراء على السلطان ، حين دعاهم السلطان للنزول عن املاكهم لبيت المال · فظن ان السلطان انما اغتفر عنه وتمكن له ذلك واستبقاه لحاجته اليه يومئذ ، حتى اذا استغنى عنه وتمكن منه عاقبه على ما سلف من ذنبه لئلا يعود فى المستقبل الى مثله ·

هذا ما وقر فى قلب بيبرس ، ولم يكن يعلم من نية السلطان شيئا ، اذ لم يشأ السلطان ان يخبره بما طوى عليه

عزمه ، لاعتقاده أن بيبرس لن يقدر على كتمانه ولابد أن يبوح
بهذا السر لأصحابه ، فينتشر الخبر ويقع الاختلاف المحذور .

ولم يكن ما سبق رأى بيبرس وحده بل شايعه على ذلك
أصحابه من الامراء الصالحية ومماليكهم وأتباعهم ، فأوغروا
صدره على السلطان وقالوا له : « لولاك لما صنع شيئا ولما قدر
على هزم التتار ، وهو الآن يملك بلاد الشام كلها ، ويفرق
ولاياتها على من شاء من الملوك والامراء الذين لم يبلوا بلاءك ،
ولم يقوموا ببعض ما قمت به ، من غير سابق وعد ، ولا سالف
عهد ، ويبخل عليك بنيابة مدينة واحدة فى اقصى الشام كنت
طلبتها منه فوعدك بها فهل تريد اشد من هذا اذلالا لك واستخفافا
بأمرك ؟ ومايمسك يمسنا جميعا ، ولا يغرنك ما اقطعنا من الاقطاعات
رأسك ، وحينئذ يستردها منا ويردها على اصحابه بعد التخلص
منك » .

وجاء بيبرس ــ وهو يكتم غضبه ــ الى الملك المظفر، فعتب
عليه أنه أخلف وعده وأعطى نيابة حلب لملك لم يقم بمعشار
ما قام هو به من جهاد التتار وطردهم عن البلاد ، وكان فى
وسع السلطان اذا شاء أن يمنحه ولاية أخرى من ولايات الشام
غير هذه التى كان السلطان قد وعده بها لما طلبها منه .

فقال له السلطان : « انى لا أنكر يا بيبرس بلاءك العظيم
فى قتال العدو ، ولا أضن بعده بشىء عليك ، ولكنى أخشى اذا
أنا وليتك على حلب ان تغرك نفسك فى ذلك الطرف القصى
فتستقل بحكمها وتسعى لضم سائر البلاد اليك ، وتشق
بذلك كلمة المسلمين . وقد بلوت طباعك يا بيبرس فلست
اجهل مطامعك ونياتك » .

فامتعض بيبرس واضطرب لأن السلطان كشف الحجاب عن
ذات صدره ، وصرح له بانه على علم بخبيئة نفسه . ولكنه
أخفى امتعاضه واضطرابه وقال له : « سأحلف لك باغلظ
الايمان أنى لا أستقل عنك ، ولا أنتقض عليك » .

قال السلطان : « ان نفسك الأمارة بالسوء لن تعدم سببا
تتعلل به لنقض ايمانك المغلظة » .

قال بيبرس محتدا : « اذا كنت لا تنوى اعطائى نيابة حلب
فلماذا وعدتنى بها ؟ »

فأجابه السلطان : « وعدتك بها حين رأيت فى ذلك مصلحة
المسلمين ، ومنعتك اياها حين خشيت من ذلك على كلمة
المسلمين » .

ــ اذن فأعطنى نيابة دمشق فهى أقرب اليك من حلب .

ــ هيه يا بيبرس : كيف تريد من لا يأمنك على طرف من
أطراف بلاد الشام أن يأمنك على عاصمتها ؟ .

فقال بيبرس وقد بان الغضب فى وجهه : « اذن فما قصدك
الا مراغمتى واهتضام حقى . فابق على ما انت عليه ، فسأعرف
ماذا أصنع ! »

فضحك السلطان ضحكة خفيفة وقال له : «هانتذا ياصديقى
قد اظهرت عصيانى وانا بعد عندك ، فكيف لو بعدت بى الدار
عنك ؟ انك يابيبرس ــ ما علمت ــ لشرس الطباع سريع
البادرة ، ولعل الله جعل فى ذلك خيرا للمسلمين ، فاجتهد
ان لا تستعمله فى غير موضعه . واعلم انى ما اردت بمحاجتك
الا ان تثوب الى رشدك فلا تؤثر مصلحتك على مصلحة أمتك
ودينك . ومن يدرى لعلك تكون يوما ما سلطانا على المسلمين ،
فليت شعرى بأى خلق تسوسهم ، وأى طريق تسلك بهم
اذا كان هواك غالبا على تقواك ؟ »

فقال بيبرس : « اسألك بالله ياخوند الا تجمع على بين المنع
والسخرية ، فانى قد احتمل الامر الاول ، ولكنى لا احتمل
الثانى »

قال السلطان : « انى والله ما اسخر منك يا بيبرس فانت
حقا جدير بأن تكون سلطان المسلمين لو استطعت ان تدوس
هواك بقدمك . ولكن دعنا الان من حديث السلطنة فالله أعلم
حيث يجعل ولاية المسلمين ، وأصغ الى ما اريد ان احدثك به:
الحق اقول انى ما منعتك حلبا او دمشق الا لحرصى الاتكون
بعيدا عنى ، فانى بحاجة الى مثلك فى مصر ، وقد رأيت ما نزل
بى من المصيبة بفقد السلطانة ــ رحمها الله ــ ولا آمن أن يغلبنى

الحزن فيشغلني عن القيام بواجبي نحو رعيتي ، فاريدك ان تستر نقصي وتجبر تقصيري »

فسكت بيبرس مليا يفكر فيما يجيب به السلطان، وجعل ينظر الى وجهه كأنه يريد ان يتبين قصده بذلك . فما رأى على السلطان الا آيات الانكسار والحزن ودلائل الاخلاص والصدق . فحار في امره وخشي ان يكون ذلك خديعة منه ، ثم قال له : « اليس في وزير السلطان وأتابكه وكبار اصحابه ما يغنيه عني ؟ »

فقال له السلطان « اني لا استغني عمن ذكرت ، فلهؤلاء شؤونهم ولكنهم لا يقومون لي بما تقوم به انت »

قال بيبرس « ماذا عسى ان ترجو من شرس مثلي لا يؤمن على ولاية صغيرة قاصية ؟ »

فقال السلطان « ما تزال يا بيبرس طامعا في هذه الولاية الصغيرة ، وما تدري بأني محتفظ لك بخير منها ومن دمشق »

فقال بيبرس « لعلها قصبة قليوب التي اقطعتني اياها ! »

فضحك السلطان مرة اخرى وقال له « لا يا صديقي بيبرس بل خير منها كثيرا ، انها قلعة الجبل .. قلعة الـ ... »

وهنا وقف السلطان ولم يتم كلمته ، وبقي برهة واجما كأنه ندم على تصريحه بذلك لبيبرس . ثم استأنف حديثه قائلا « انصرف يا صديقي مطمئنا فليس لك عندي الا الخير »

وما خرج الامير بيبرس من عند السلطان حتى تلقاه جماعته الذين كانوا في انتظاره ، فرأوه اشد غما واكثر حيرة مما كان قبل مقابلته للسلطان في قلعة دمشق ، فبدأوه السؤال عما جرى بينه وبين الملك المظفر ، فحدثهم بكل ما داربينهما من الحوار ، وهم يصغون اليه ، حتى اذا ما انتهى الى قول السلطان « انها قلعة الجبل » قالوا له « حسبك : قد صرح لك السلطان بما يضمر لك . انه يعني ستلقى مصرعك هناك كما لقي صاحبك اقطاي . لله ما اشد جرأته عليك واستخفافه بك اذ يقول هذه الكلمة في وجهك وهو ضاحك يتنهى بك ».

فبدرهم بيبرس قائلا « ولكنه قطع ضحكه بعد ان لفظ هذه

الكلمة وبقي برهة واجما »

قالوا له « انه لا ريب ندم على تهوره هذا بالتصريح لك بما نوى من قتلك »

قال بيبرس وقد اشتد حنقه واحمرت عيناه « قلعة الجبل! لا والله لالحقنه بزوجته انثى يبكيها قبل ان ترى عينه قلعة الجبل ! ما بالكم تنظرون الي ؟ ما رأيكم ؟ اشيروا علي ! »

قالوا له « انك سريع التقلب يا بيبرس . وانا نخشى ان نشترك معك في هذا الامر الخطير ، ثم تنكل عنه وتتركنا للسلطان يتحكم في رقابنا ! »

قال بيبرس غاضبا « ويلكم أأترككم له وقد حلفت لكم لاقتلنه ؟ »

قالوا له « ولكنك قد حلفت بمثل هذا عندما قتل اقطاي ، ثم رجعت عن يمينك وعدت اليه تطلب منه الامان فاقطعك قصبة قليوب ، فما يدرينا انك لا تعود لمثلها فيقطعك قلعة الجبل ؟!»

فصاح بهم بيبرس « كفى ! » فسكتوا جميعا وبقوا كذلك برهة حتى قال لهم بيبرس « ولكن مارأيكم في المعزية ماذا نصنع بهم ؟ »

قالوا له « لقد كفاك الله امرهم . انهم غاضبون جميعا على صاحبهم اذ سوى بيننا وبينهم في الاقطاعات . وما علموا أنه انما فعل ذلك خديعة لنا ليسكتنا الى حين . وهب انهم قاموا له اتظننا نعجز عنهم وقد قطعنا رأسهم ؟ أقد نسيت يا بيبرس اننا هربنا من البلاد لما رمى الينا برأس اقطاي ونحن يومئذ سبعمائة فارس ؟ »

فقال لهم بيبرس « ما رأيكم في استمالة اقطاي المستعرب الينا ليكون معنا في هذا الامر ؟ »

فاختلفوا في الرأي فمن قائل : « نستميله فهو صالحي مثلنا ، وسيذلل لنا السبيل لقتل السلطان » ومن قائل : « بل نكتم هذا الامر عنه فهو وان كان صالحيا الا انه مخلص للسلطان وهواه مع المعزية . ولكنه اذا رآنا قد قطعنا الرأس فانه عائد الينا لا ريب »

وأخذ القوم بعد ذلك يتشاورون كيف واين يقتلون السلطان واتفق رأيهم اخر الامر على أن يترصدوه فى طريقه راجعا الى مصر حتى اذا امكنتهم منه غرة تعاوروه بسيوفهم ، وعلى ان يشركوا معهم فى ذلك اثنين من المعزية هما الامير سيف الدين بهادر والامير بدر الدين بكتوت الجوكندار ، ليكون ذلك اسهل فى ارضاء المعزية اذا ثاروا لصاحبهم ، حين يرون ان الصالحية لم ينفردوا دونهم بهذا الامر ، وقد اختاروا هذين الرجلين لشدة حقدهما على السلطان وحسدهما له .

وما هى الا ايام حتى عزم الملك المظفر على الرجوع الى مصر بعد ان رتب احوال النواب والولاة ببلاد الشام ، ورد المظالم الى اصحابها . فأعاد الى مولاه ابن الزعيم ما صادر التتار من املاكه ، وما صادره منها الملك الصالح اسماعيل قبل ذلك ، واحسن الى صديقه القديم الحاج على الفراش واكرمه وخلع عليه ، وسأل عن موسى ابن غانم القدسى فقيل له انه قد بدد ميراث ابيه فاصبح فقيرا فأمر نائبه بدمشق فاجرى راتباله ، وعن مولاته العجوز أم موسى فقيل له انها ماتت فذهب الى قبرها يزورها ويترحم عليها .

وخرج من دمشق بعد ان ودع مولاه ابن الزعيم وداعا حارا وسار بعساكره وامرائه المعزية والصالحية . وكان الامير بيبرس لا يفارقه طوال الطريق يتحدث معه ويسليه عن مصابه وقد اظهر له الرضاء التام عنه ، ولم يعد يذكر له حلبا ولا دمشق ، فاذا جرى ذكرهما عرضا فى الحديث قال له بيبرس: « لقد اخترت لى الخير يا خوند ، فانى لا اعدل بالاقامة فى مصر بدبلا » .

فلم يزل السلطان سائرا الى ان خرج من الغرابى وقارب الصالحية ، وكان اتابكه اقطاى المستعرب قد سبقه اليها بالعساكر ومعظم الامراء ، ليعد بها الدهليز السلطانى لنزوله فرأى السلطان ارنبا بريا منطلقا فى جانب الطريق ، فلم يملك نفسه اذ رآه ان انحرف عن الدرب ودفع جواده يسوق وراء الارنب . وقد خيل اليه اذ ذاك ان جلنار تسوق معه على جوادها الصغير لصيد الارنب كما كانا يفعلان فى ربوع

الهند ، فاستمر فى عدوه حتى ابعد فى البرية . فما راعه الا الامير بيبرس وستة معه من الامراء ، فالتفت اليهم السلطان قائلا : انتم ايضا تحبون صيد الارانب مثلى ؟ .

فأجابه بيبرس قائلا « انك تعلم يا خوند انى لا احب صيد الارانب ، وانما رأيناك ابعدت فى البرية فخشينا عليك ولحقنا بك » .

فقال السلطان : « شكرا لكم لا خوف على من عدو هنا » والتفت الى الدرب وراءه فقال « ارانى ابعدت حقا كما ذكرتم فهلم بنا نعد ! »

فبدره بيبرس قائلا : « اريد قبل ان انسى يا خوند ، أن تمن على بتلك الاسيرة التترية التى حدثتك عنها امس فانها اعجبتنى »

فابتسم السلطان وقال له : « قد علمت انك مغرم باصناف النساء يا بيبرس ، خذها لك ان شئت » .

فشكره بيبرس وترجل عن فرسه ، ودنا منه ليقبل يده، فمد اليه السلطان يده ، فقبض عليها بشدة — وكانت تلك اشارة بينه وبين جماعته الامراء — فحمل بكتوت على السلطان فضرب عاتقه بالسيف ، وتعلق به انس الاصبهانى فالقاه عن فرسه ، ورماه بهادر المعزى بسهم فنشب فى صدره .

وكان السلطان فى خلال ذلك لا يبدى اية حركة المقاومة ، وانما كان يقول « حسبى الله ونعم الوكيل .. اتقتلنى يا صديقى بيبرس وانا اريد ان أوليك سلطانا مكانى ؟ »

فلما سمع ذلك بيبرس منعهم من الاجهاز عليه ، فصاحوا به : « أراد أن يخدعك دعنا نتم قتله » ، فأبى بيبرس عليهم فصاح الامراء مرة ثانية : « دعنا يا بيبرس قبل أن يأتينا هؤلاء » فقال لهم بيبرس : « دعوهم يأتوا الينا ، انه لن ينجو مما به » .

وكان بيبرس يريد ان يستوضح السلطان كلمته الاخيرة، وكان السلطان قد اغمى عليه اذ ذاك ، فأحاطت بهم الفرسان شاهرين سيوفهم . وكانوا جماعة من خواص السلطان ومماليكه قد ارتابوا فى سير الامراء وراءه ، فلحقوا بهم ،

فقالوا للامراء : « القوا سلاحكم فى الارض والا قتلناكم ! »
فانتبه السلطان لصوتهم ورفع طرفه اليهم · وهو ملقى على الارض . وقام بيبرس شاهرا سيفه يريد مقاومتهم · واستعد الامراء الاخرون للدفاع عن انفسهم فحمل الفرسان على بيبرس يريدون قتله · فما راعهم الا صوت السلطان : « دعوا بيبرس لا تقتلوه ! انه سلطانكم قد وليته عليكم فاطيعوه ! »

قال الفرسان : « انهم قتلوك يا خوند · فلن نتركهم » قال السلطان : « ما قتلنى غير سلطانكم بيبرس وقد سامحته · فاسمعوا له واطيعوه · وقولوا للاتابك ان يسمع له ويطيع » ·

فدهش الفرسان لما سمعوا من السلطان · فوقفوا جامدين فى اماكنهم والقى بيبرس سيفه الى الارض ودنا من السلطان واهــوى عليه يقبل رأســه ويديه · ويقــول : « يا خوند ! اذبحنى يا خوند ! · ويل لى · قتلت سـلطان المسلمين ! قتلت هازم التتار ! قتلت صديقى الكريم ! »

وكان السلطان اذ ذاك قد تولاه مماليكه واسندوه على ظهره وجعلوا يمسحون عنه الدم بمناديلهم وثيابهم . وهــو يردد الشهادتين · فتركه بيبرس لهم والتقط سيفه وسار الى الامراء الواقفين وهو يصيح : « ويل لكم يا خونة يا مجرمون ! » فتحاماه الامراء وجعلوا يتقهقرون عنه ·

وعندئذ صاح السلطان بجهد ومشقة : « بيبرس ! بيبرس ! دعهم يا بيبرس ، قد عفوت عنك وعنهم · انتم فى حل جميعا شكرا لكم ·· كفيتمونى عناء الانتظار وقربتم موعد اللقاء · تعال يا بيبرس » فعاد بيبرس واقترب منه ، فقال السلطان : « اتستحل دمى يا بيبرس ؟ »

فأجابه بيبرس والدموع فى عينيه : « كلا يا خوند وانما خشيت ان تقتلنى فاتقيت ذلك »

فقال السلطان : « كيف اقتلك وقد وعدتك بالسلطنة ؟ الم أقل لك يوما انى سأعطيك قلعة الجبــل ؟ » قال بيبرس : « وا أسفاه ظننتك تريد قتلى بقلعة الجبل »

قال السلطان : « الحمد لله اذ لم تستحل دمى · وانمــا شط بك الظن · قاتل اعداء الاسلام يا بيبرس ··· هــذه

وصيتى لك . ويغفر الله لك خطيئتك ! »

وصرف السلطان نظره عن بيبرس الى السماء · وتنهــد من اعماق قلبه · كأنما انتزعها من روحه انتزاعا : (واحبيبتاه! ·· وا اسلاماه !) · وخفق رأسه خفقة ، لفظ على أثرها روحه فحمله مماليكه الى حيث دفنوه مبكيا عليه ·

وانطلق بيبرس يتقدمه رجال السلطان الشهيد وخلفــه سائر الامراء حتى بلغوا الدهليز السلطانى بالصالحيــــة فوجدوا على بابه الاتابك أقطاى المستعرب ، فاخبره رجال السلطان بما كان من مصرع مولاهم بأيدى الامراء السبعة ، ومن وصيته لبيبرس بالسلطنة · فعظم على اقطاى ان يغدر هؤلاء الامراء بهذا السلطان العظيم فى أوج انتصاره، وساعة قفوله ظافرا الى بلاده · ولكنه عجب من وصية السلطــــان لبيبرس ، وكيف لم يذكر له السلطان عنها شيئا · ولم يعرض له فيها بشىء · ولولا ان خواص رجال اسلطان انفسهم حكوا له ذلك لما صدق هذا الخبر ، وقد زاد من غضبه ونقمته على بيبرس ان يشترك مع الستة فى قتل من اراد ان ينزل له عن السلطنة ·

وكان فى وسع الاتابك ان يصنع شيئا . فقد ثار المعزية جميعا لصاحبهم · فلو امرهم بالقبض على بيبرس وجماعتــه لأطاعوه ولكانوا ولوه سلطانا اذا نجح فى ذلك ولكنه رأى وصية السلطان لبيبرس حائلة دون ما يريد ، فعــزم على تنفيذها والطاعة لبيبرس · الا انه اراد ان يبكته على فعلتــه الشنيعة ويذكره بانه سيجلس على اريكة صديق له اراد به الخير فكان جزاؤه منه الغدر ·

ولما حضر بيبرس والامراء الستة ادخلهم الاتابك الى الدهليز وكانت الامراء المعزية ومماليك السلطان واشياعه قد ركبوا الى الدهليز فاحاطوا به متهيئين لما يسفر عنه الحادث ··· وكذلك وقفت الامراء الصالحية ينتظرون ما يكون من بيبرس ·

قال الاتابك اقطاى للامراء السبعة : رحم الله مولانا السلطان من قتله منكم ؟ ·

فسكتوا مليا وخشوا أن يكون اقطاى قد اعد العـــدة

لقتلهم • وكان الستة قبل ذلك يخافون بطش بيبرس لانه نقم عليهم تحريضهم اياه على قتـــل السلطان ، فعادوا الآن يخافون اقطاى الاتابك •

ولكن بيبرس ما لبث ان اجاب الاتابك بصوت جهـــير تخالطه نغمة الحزن : أنا قتلته !

فنظر اليه الاتابك نظرة دامعة عاتبة وقال له : « فاجلس على الاريكة مكانه يا خوند ! »

فادرك بيبرس غرض الاتابك من تبكيته فلم يقل شيئا ، بل مشى متثاقلا الى الاريكة حتى جلس عليها ، وبقى برهـــة واجما يغالب عبرة تترقرق فى عينيـــه ثم قال : « يرحم الله صديقى المظفر ! هلموا نفذوا وصيته ، واحلفوا لسلطـــانكم الجديد الملك القاهر » ومد يده فصافحه الاتابك وحلف له ، وتبعه الامراء الستة فحلفوا له ، ثم تتابع الامراء الذين كانوا خارج الدهليز فدخلوا اليه وحلفوا له ثم حلفت له العســـاكر جميعا •

ودخل الملك القاهر بيبرس الى القاهرة ـ وكانت قدزينت لمقدم الملك المظفر فأبقيت كما هى ـ وسار فى موكبه ولم يشأ ان ينزل قلعة الجبل الا بعد ايام لحزنه على الملك المظفر ، حتى قيل له ان سلطتك لا تتم الا اذا اقمت بقلعه الجبل ، فانتقل اليها حينئذ ، وخوفوه من شؤم لقبه فعدل عنه وتلقب بالملك الظاهر •

وما سمع الناس بمصرع الملك المظفر وقدوم بيبرس سلطانا مـــكانه حتى عراهم هم عظيم • وحـــزنوا على الملك المظفر حزنا شديدا • وبكوه بعيونهم وقلوبهم برهة ، ثم خشوا السلطان الجديد فكفت عيونهم عن بكاء المظفـــر وظلت قلوبهم وحدها تبكيه !

أما الشيخ ابن عبد السلام فلما بلغه موت تلميذه العظيم بكى وانتحب وكان مما قال فيه : « رحم الله شـــبابه ، لو عاش طويلا لجدد شباب الاسلام ! لله ابوه ! ما منعه من اختيار بيبرس بغض بيبرس له ، وما ولى امر المسلمين بعد عمـــر ابن عبد العزيز من يعادله صلاحا وعدلا ! »

وجهد الملك الظاهر بيبرس لينال رضى الناس عنه ، فالغى الضرائب التى فرضها الملك المظفر لبيت المال ، فهل رضوا عنه بعد ذلك ؟ وماذا قالوا فيه ؟ قالوا : « انه ابطل ماعلينا لبيت المال ، ولم يبطل ما علينالنفسه وامرائه ومماليكه ! »

على ان الملك الظاهر لم يال جهدا فى العمل بوصية صديقه وسلفه الملك المظفر قطز ، فقد ظل يذكرها ويقوم بها الى اخر ايامه • فوفى للاسلام ، وقاتل اعداءه من التتار والصليبيين حتى اذلهم ، ونهض بمصر واعلى كلمتها حتى جعلها فى عهده امبراطورية عظيمة باذخة •

ورئى الملك الظاهر بيبرس ذات يوم يقلب يده فى اوراق الملك المظفر قطز ، فعثر على كتاب هذا نصه :

الى ولدى الأعز الأجل الملك المظفر قطز :

تلقيت كتابك جواب التهنئة باعتلائك عرش مصر ، تذكر فيه عزمك على الرجوع الى اسمك الاول الذى سماك به ابوك الامير ممدود واشهاره ، ثم عدونك عن ذلك خشية ان ينتقض عليك الامراء المماليك اذا علموا باصلك ، وتستشيرنى فى ذلك فالرأى عندى ما رأيت • وليس العبرة بالاسماء ولكن بالخلال والاعمال • والله يعلم انك محمود بن ممدود ابن اخت السلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه ، وان التى تحت عصمتك هى ابنة خالك جلال الدين ، فحسبك هذا من ربك • والناس يعلمون انك مملوك علت به همته وكفايته وصلاحه ، حتى صار من اعظم ملوك المسلمين واعدلهم ، وحسبك هذا من الناس •

والسلام منى ومن خادمك الامين آلحاج على الفراش عليك وعلى شيخنا الامام عز الدين ابن عبد السلام ورحمـــة الله وبركاته .

كتب بدمشق فى غرة المحرم سنة ٦٥٨ •

من خادمك المطيع

ابن الزعيم

فلما قرأ الملك الظاهر بيبرس هذا الكتاب تدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه حتى توارتا فى لحيته ، وجعل يقول بصوت متهدج : « رحمة الله عليك يا صديقى قطز ! لقدما اتعبنى اقتفاء أثرك ، وما أرانى بعد الجهد الطويل ابلغ بعض ما بلغت » •

